

قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام

تأليف
الدكتور / وفاء محمد على





فِي حَمْرِ الدَّوْلَةِ الْأَجْيَبِيَّةِ

فِي مِصْرَ وَالشَّامِ

تَأَلِيفَ

الدكتور وفاء محمد علي

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الآداب - جامعة أسيوط

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ

ملزوم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

11 شارع جبرائيل / القاهرة

ص ١٣٠٠ - ت ٧٦٠٥٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ



<http://al-maktabeh.com>

« بسم الله الرحمن الرحيم » « بين يدي الكتاب »

هذا بحث جديد يضاف الى ماكتب عن دولة الأيوبيين ، خصصت به قيام هذه الدولة في مصر والشام ، وفي اعتقادي أن ماكتب عن هذه الدولة - رغم قيمتها المؤثرة - في تاريخ الإسلام - لا يصل إلى الحد الذي ينبغي أن تناله من رعاية وعناية ، فقد كانت هذه الدولة بحق هي الأمل الذي تحقق بعد أن راود رجالاً من الأبطال عملوا جاهدين من أجل تحقيق هدفين أحدهما وسيلة إلى الآخر : الهدف الأول هو تحقيق الوحدة العربية ، والهدف الثاني هو تحرير الأرض التي دنسها الوجود الصليبي أمداً طويلاً فسبق على درب الجهاد الطويل أبطال مثل مودود ، وزنكي ثم نور الدين محمود الذي غرس البذر ، ولم ينعم بالثمار .

وقد قسّمت هذا البحث إلى أربعة فصول أحقتهم بعدة ملاحق :
الفصل الأول بعنوان : الحالة في مصر قبيل قدوم صلاح الدين تناولت فيه على الخصوص فترة مايسمى بتحكم الوزراء ، تلك الفترة التي بدأت بعهد بدر الجمالي الذي جاء من عكا بناء على دعوة الخليفة المستنصر بالله له بعد أن سادت الفوضى أنحاء البلاد نتيجة الصراع بين طوائف الجند المختلفة التي كانت تكوّن الجيش الفاطمي ؛ وما أعقب ذلك من تناحر بين الوزراء شمل : الصراع بين ابن السلار وابن مصال ، والصراع بين عباس الضنهاجي وضرغام ، والصراع بين رزيك بن الصالح طلائع وشاور ؛ ثم الصراع بين ضرغام وشاور ، ذلك الصراع الذي انتهى بلجوء شاور إلى نور الدين محمود في الشام : وطلبه العودة إلى كرسى الوزارة في مصر على أسنة السلاح النوري ، ثم الصراع بين النوريين والفرنج والذي شمل ثلاث حملات عسكرية نورية قادها أسد الدين شيركوه ، واشترك معه فيها

صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، والتي انتهت ثالثها باستقرار شيركوه في مصر وتولية الوزارة الفاطمية للخليفة العاضد بالله ، ولم يمكث شيركوه طويلاً في الوزارة حيث توفي بعد قليل فتحول الأمر الى صلاح الدين .

وكان الفصل الثاني في هذا البحث بعنوان : « الدور الأيوبي حتى وفاة نور الدين ، وناقشت فيه بعض الموضوعات التي ثار حولها الجدل وحاولت أن أدلى فيها بدلوى معتمداً على المصادر الأصلية والتي عاصرت الأحداث لاثبات ماذهبت إليه وقد تعرضت في هذا المجال لدعوى أن إعلان الخلافة العباسية في مصر وإحلالها محل الفاطمية « لم ينتطح فيه عنزان » وكأن المصريين « عبيد لمن غلب » كما روج بعض المؤرخين وأثبتت أن ثمة حركات ثورية قامت تناوياً الحكم الجديد امتدت من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب : في الاسكندرية ، في القاهرة ، في قوص وفي أسوان استهدفت عودة الدولة الفاطمية « دولة المصريين » وأيدت العواطف الشعبية المصرية هذه الحركات .

كما نالت العلاقات بين نور الدين محمود وصلاح الدين - والتي تعددت فيها الآراء - حظاً من هذه الدراسة ، وأثبت أنه خلاف لم يتخذ صورة الغدر أو الخيانة من صلاح الدين لنور الدين وأن ما طرأ بينهما من خلاف كان مجرد خلاف - في الرأي والوسيلة ولكنه لم يكن خلافاً في الأهداف والغايات ، والخلاف في الرأي « لا يفسد للود قضية » كما يقال .

أما الفصل الثالث فتناول الدور الأيوبي بعد وفاة نور الدين وولاية ابنه الصغير الملك الصالح إسماعيل ، مما هياً لصلاح الدين فرصة تحقيق طموحه بإيجاد وحدة مصرية شامية تكون الركيزة للانطلاق لتطهير الأرض من الفرنج الغاصبين . ومن هنا كان على صلاح الدين في هذه المرحلة مواجهة ثلاثة مصاعب أو عقبات هي : الزنكيون - الفرنج - والباطنية ؛ وبنيت ما قام به صلاح الدين في هذه المرحلة وما حققه من نجاح .

أما الفصل الرابع والأخير ف جاء بعنوان « تدعيم الدولة الأيوبية في مصر والشام ، وكان صلاح الدين قد فاز باعتراف الخلافة العباسية به ملكاً لمصر والشام ، وقد تمكن صلاح الدين في هذه المرحلة من الاستيلاء على بقية بلاد الشام ، واستولى على حلب بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل وتمكن من إخضاع صاحب الموصل لسلطانه ، ثم بينت كيف حارب الفرنج - الذين كانوا يسعون بوحى من أنفسهم وبدعوة من الزنكيين الخائفين من صلاح الدين على بلادهم - بعد ذلك بجهة إسلامية موحدة من مصر والشام والجزيرة العراقية فاستولى على قلاعهم ومدنهم وحقق عليهم نصره الساحق في حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وحقق أمل المسلمين قاطبة بتحرير بيت المقدس في نفس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، ثم أوضحت رد الفعل الأوربي الغربي لسقوط بيت المقدس والذي تمثل في الحملة الصليبية الثالثة التي لم أتأولها بإسهاب كبير حيث أن أهم ما فيها ما أسفرت عنه من نتائج تمثلت في صلح الرملة الذي كان يعنى أكثر من أى شىء أن الحملة الصليبية الثالثة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس . على أن صلح الرملة وإن تم على غير هوى من صلاح الدين إلا أنه جاء في وقته المناسب الذي خطته يد العناية الإلهية حيث مالبت أن توفي صلاح الدين بعده بقليل ولم يتجاوز الخامسة والخمسين أو السادسة والخمسين من عمره تاركاً لأولاده وإخوته من بعده دولة أيوبية مترامية الأطراف .

وختمت البحث بسؤال هو : هل ملأ خلفاء صلاح الدين الفراغ الذي وجد بموته ؟ ولعل الإجابة عنه تأتي في بحث آخر قريب إن شاء الله .

وإننى أرجو من الله جلّ وعلا أن أكون قد وفقت في إضافة لبنة إلى صرح الدراسات في الدولة الأيوبية ، والحمد لله في الأول والآخر ؛ وعليه وحده قصد السبيل .



الفصل الأول « الحالة في مصر قبيل قدوم صلاح الدين »

اضطرت الظروف التي سادت مصر في العصر الفاطمي الثاني الخليفة المستنصر بالله في سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م أن يستنجد ببدر الجمالي والى عكا لينقذه من تلك الفتنة المدمرة التي نشأت في عهده بين طوائف الجند المختلفة ، فجاءه بدر الجمالي بجنده من الأرمن^(١) وتولى الوزارة للمستنصر وزارة سيف وقلم ، وأعاد الأمن إلى البلاد ، ووضع الأمور في نصابها ، وصارت له الكلمة العليا في مصر مدة عشرين سنة^(٢) من سنة ٤٦٧هـ إلى سنة ٤٨٧هـ (١٠٧٤ - ١٠٩٤م) ، فعمر الريف ، وأرخص الأسعار ، وأصلح سودان الصعيد ، واستدناهم إليه ، وجاءه منهم الكثير « فصلحت الحال في مصر بعد فسادها ، وعمرت بعد خرابها^(٣) » ؛ ولم يبق للمستنصر مع بدر أمر ، وألقى إليه مقاليد مملكته ، وسلم إليه أمور خلافته^(٤) .

ويعرف العصر الذي بدأ ببدر الجمالي « بعصر الوزراء العظام » ، وذلك أن الوزراء أصبحوا هم أصحاب السلطة دون الخلفاء^(٥) ، وجاء في سجل

(١) في ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٤٦٦ هـ استدعاه المستنصر من عكا التي كان والياً عليها ، ووعده الخليفة بتملك البلاد والاستيلاء عليها ، فاشتراط عليه أن يقدم بعسكر معه ، وأنه لا يبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم ، وكان معظم العسكر الذين استعان بهم من الأرمن ، وبهذا دخل عنصر جديد في تكوين الجيش الفاطمي إلى جانب الأتراك والسودان والمغاربة والمصطنعة أي المرتزقة . انظر اتعاظ الحنفاج ٢ ص ٢١١ المتن ؛ وحاشية رقم ٤ ومصر في العصر الفاطمي / الشيال ص ٤٤٦

(٢) مرآة الزمان ج ٩ ص ٤٢٦

(٣) اتعاظ الحنفاج ج ٢ ص ٣٢٩

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٢٩

(٥) مصر العربية الاسلامية ص ١٩٦ ، وهم بهذا المعنى وزراء تفويض لا وزراء تنفيذ كما كان الحال في العصر الفاطمي الأول وانظر في ذلك قوانين الوزارة

تولية بدر الوزارة مايدل على ذلك ، فجاء فيه : « وقد قلّدك أمير المؤمنين ماوراء سريره ^(٦) .

وانتهى الأمر بالخلفاء الفاطميين إلى أن تركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ، ويوزعون مزايا الحكم كما يشتهون ^(٧) .

وبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ^(٨) ، قام بالخلافة ابنه المستعلى بالله (٤٨٧ - ٤٩٥هـ) (١٠٩٤ - ١١٠٢م) وهو في حوالى العشرين من عمره ^(٩) ، وكان الوزير في عهده هو الأفضل بن بدر الجمالى ^(١٠) وسيطر على المستعلى سيطرة كاملة ، حتى غدا وليس له معه حكم ، ونشبت في عهد المستعلى هذا الصراعات بين المستعلية والنزارية التى انتهت بمقتل نزار ^(١١) .

وعلى الجملة اختلفت الأحوال في عهد المستعلى ، وانقطعت من أكثر

(٦) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٠٤ في العصر الفاطمى الأول

مصر في العصر الفاطمى / الشيال ص ٤٤٥

وأنظر مصر في العصر الفاطمى ص ٤٤٥ .

(٧) قصة الحضارة ج ٢ مجلد ٤ ص ٣١٨ .

(٨) وكان بدر الجمالى قد توفى قبله ، كما مات فيها كذلك الخليفة المقتدى بالله العباسى ، ولذلك عرفت تلك السنة بسنة موت الخلفاء . انظر شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٨٠ - ٣٨٣ .

(٩) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦١ واتعاظ الحنفا ج ٣ ص ١١ وكذلك النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٢ ويجعله صاحب ذرر التيجان ٤٤٩ سبع عشرة سنة .

(١٠) اسمه شاهنشاه ، أما الأفضل فهو لقبه ، حيث استحدثت في عهده عادة اتخاذ النعوت الشخصية ، على مثال نعوت الخلفاء ، وسرى استعمالها بعد ذلك في فلقب شاهنشاه نفسه بالأفضل ، كما سيلقب أبو على أحمد بن الأفضل بالأكمل .

الألقاب الاسلامية ص ٧٢ ، ومصر في العصر الفاطمى ص ٤٤٥

(١١) وكان الحسن بن الصباح القائم بدعوة الاسماعيلية النزارية ، فكلم المستنصر في إقامة الدعوة له في بلاد المعجم ، فأذن له في ذلك سرا ، فأظهرها ابن الصباح ، واستولى باسمه على القلاع والبلاد ، وكان ابن الصباح سأل المستنصر بالله : من إمامي بعدك ؟ فقال : ابني نزار ، وهو أكبر أولاده فلما مات المستنصر عدل الأفضل الوزير عن إقامة الدعوة لنزار وأقامها للمستعلى .

النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٨٠ - ٨١

مدن الشام دعوة الفاطميين ، وانقسمت البلاد بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الصليبيين^(١٣) وكان الأفضل في عهد المستعلي قائماً بتدبير أمر الدولة تدبير سلطنة وملك ، لاتدبير وزارة ، وامتدت سطوته إلى عهد الخليفة الأمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) (١١٠١ - ١١٣٠ م) ، وكان حاجزاً عليه ، ليس له معه أمر ولا نهى ، وكان هو الخيفة في الظاهر ، وليس للأمر معه من الأمر شيء حتى قتل الأفضل بن بدر الجمالي في أول رمضان سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م^(١٣) .

وكان الثالث من أفراد أسرة بدر الجمالي هو أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي الملقب بكتيفات المنعوت بالأكمل والذي استوزره الخليفة الحافظ فطغى واستبد به ، وحجر عليه ، بل وسجنه فيما بين الديوان وباب العيد^(١٤) ، واستولى على مافي القصر من الذخائر والأموال ، وقال : هذا مال أبي وجدى^(١٥) - وذلك لأن الخليفة الأمر كان قد نقل أموال وزيره الأفضل القتييل إلى دار الخلافة - وبلغت الأمور بالأكمل أن قطع الأذان بحى على خير العمل ، وضرب الدراهم باسمه ، واعتقل الخليفة ، وخطب للقاتم المنتظر ، فألب ذلك القلوب عليه ، وحمل عشرة من صبيان الخاص عليه خارج باب الفتوح ، وطعنوه حتى قتل ، وذلك في يوم الثلاثاء ١٦ من محرم سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م ، ثم إن الخليفة الحافظ أخرج من الخزانة ، وأعيدت الأموال والذخائر إلى قصره مرة أخرى^(١٦) ، واعتبر اليوم الذى قتل

(١٢) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٧

(١٣) اشترك في قتله أربعة رجال من الباطنية ، قتل منهم ثلاثة وقطعوا وأحرقوا ، وكان عمر الأفضل لدى قتله سبعاً وخمسين سنة بعد أن وزر ٢٨ عاماً ؛ وخلف الكثير من الأموال .
درر التيجان ص ٤٥٦ . اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٦٠ - ٦١ .

وشذرات الذهب ج ٤ ص ٤٧

(١٤) أحد أبواب القصر الفاطمي الكبير ، وأمامه رحبة سميت باسمه . حاشية ج ٢ ص ١٤٠ .
اتعاظ الحنفا

(١٥) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٩

(١٦) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ١٤٣ وشذرات الذهب ج ٤ ص ٧٨ وانظر النجوم الزاهرة ج ٥ ص

فيه الأكمل عيداً للإسماعيلية وسمى « عيد النصر » : وظلت الدولة تحتفل به سنوياً في عهد الحافظ ، وفي عهود من تلاه من الخلفاء إلى أن دالت الدولة وزالت (١٧) .

ويموت الأكمل انتهى عصر تحكم أسرة بدر الجمالي في الفاطميين الذي ابتداء بدخول بدر في سنة ٤٦٦هـ / ١٠٩٣م ، وانتهى بمقتل حفيده الأكمل سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م ، وفي تسلطهم جميعاً على الأحوال في مصر يقول ابن تغرى بردى : « إن أحمد هذا ووالده وجده ، كانوا أصحاب مصر ، والخلفاء معهم تحت الحجر والضييق ، وتصديق ذلك ما خلفه الأفضل شاهنشاه من الأموال والمواشى وغير ذلك ، وإنما كان يطلق عليهم الوزراء ، لكون العادة جرت بأن الملك للخليفة (١٨) .

الصراع على الوزارة :-

وفي عهد الخليف الحافظ بدأت تطل مشكلة جديدة تعمل عملها في إضعاف الدولة الفاطمية .

وذلك أن الخليفة الحافظ وليّ بهرام الأرمني النصراني الوزارة ونعت بهرام « بسيف الإسلام تاج الملة (١٩) » ، وكادت تقع بسبب ذلك فتنة طائفية ، فقد ازداد نفوذ الأرمن في البلاد بعد ما جاءوا بأعداد وفيرة إلى مصر ، وببالغ أخوه المسمى « الباساك » في استباحة أموال الناس ، والمبالغة في إيذائهم وظلمهم ، مما أثار موجة عارمة من السخط في أوساط الناس ، كما عظم على الأمراء ذلك ، فاستغاثوا بأبى الفتح رضوان بن ولخشى متولى الغربية يومئذ ، الذى جمع جموعه وتوجه لمحاربة بهرام (٢٠) ، وتمكن من هزيمته ؛ وعندما سرى خبر هزيمة بهرام إلى قوص قتل الناس

(١٧) مصر في العصر الفاطمى ص ٤٥٢

(١٨) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٩ ، واستمرت وزارته سنة واحدة وعشرة أيام . درر التيجان ص ٤٦٢ .

(١٩) اتعاظ الخنفاج ٣ ص ١٥٥

(٢٠) انظر نفس المصدر ص ١٥٩ - ١٦٠ .

« الباساك » ومثلوا به ، وأذن الخليفة الحافظ لرضوان بن ولخشي بالنزول في دار الوزارة ، واتخذ وزيراً ، وتم ذلك في يوم الجمعة ١٣ من جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م .

وكان رضوان هذا خفيفاً عجولاً ، فأخذ يبين حاشية الخليفة ، بل انه همّ بخلع الخليفة نفسه ، وقال : « ما هو بإمام ، وإنما هو كفيل لغيره ، وذلك الغير لم يصح^(٢١) .

ودبر الحافظ عليه حتى أثارها فتنة ضده ، وهزم رضوان ، فخرج إلى الشام ليتقوى منه بجند يعود بهم إلى حرب الخليفة الحافظ ، ولكنه عندما عاد هزمه جنود الحافظ ، ففر إلى الصعيد حيث قبض عليه ، واعتقل ، غير أنه تمكن من الهرب من معتقله ، وخرج من نقب ، وثار بجماعة ، وكانت فتنة انتهت بقتله في سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م^(٢٢) .

الصراع بين ابن مصال وابن السلار :-

ولى الخليفة الظافر الخلافة بعد وفاة الحافظ في سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩^(٢٣) ، وقد دخلت مصر في عهده في فوضى الاضطرابات وزاد الصراع على السلطة بين الوزراء ، وتدخلت سيدات القصر وأميراته في شئون الحكم نظراً لصغر سن الخليفة حيث كان في السابعة عشرة من عمره ، وكان محور الصراع في ذلك الوقت على وجه الخصوص يتركز بين الوزير ابن مصال وبين المظفر الملك العادل ابن السلار والى البحيرة والإسكندرية ، وذلك أن الخليفة الظافر استوزر ابن مصال بوصية أبيه له ولم يرض ذلك ابن السلار ، فاتفق مع ربيبه عباس على مناهضة ابن

(٢١) وذلك أن الحافظ ولى الحكم ولم يكن ابناً للأمر وإنما هو ابن عمه حتى تضع زوجة الحافظ حملها الذي قيل أنه جاء بتناً كما قيل أنه جاء ولدأ ولكن الحافظ تخلص منه .

مصر في العصر الفاطمي ص ٤٥٠ - ٤٥٢

(٢٢) ابن الفلانسى ص ٢٧٠ - ٢٧٣ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ واتعاظ الحفاج ٣ ص ١٨٣ - ١٨٤

(٢٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٦ والمواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٠ والكامل ج ٩ ص ٢٤

مصال ، ووقعت لذلك الحرب بينهما ، وتمكن ابن السلار من دخول القاهرة في يوم الأربعاء ١٥ من شعبان سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ، فوقف على القصر ، وسير إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء يعلم بحاله (٢٤) ، وانتهى الأمر بولايته الوزارة ، وظل يحقد على الخليفة الظافر الذي كان يميل إلى ابن مصال ، وكذلك كان في نفس الخليفة نفور من ابن السلار ، وكان ابن السلار سنياً مغالياً ، فأسقط الصبغة الشيعية ، وحول الشعائر الرسمية إلى المذهب السني (٢٥) .

وولى ابن السلار أمور جيشه عباساً ابن زوجته ، فسار عباس إلى ابن مصال وهزم جنده على دلاص (٢٦) ، وقتل ابن مصال ، وحملت رأسه إلى القاهرة وطيف بها على قناة وذلك في يوم الخميس ١٣ من ذى القعدة سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ، وتمكن ابن السلار من فرض سيطرته على الخليفة « وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم (٢٧) » ، غير أن الأمور لم تستقر لابن السلار حيث تآمر عليه عباس الصنهاجي ربيبه ، وتم بمعرفة نصر بن

(٢٤) تدخلت سيدات القصر وأميراته في شئون الحكم بسبب تزايد سلطة الوزراء ، ومآصبات الخلفاء على أيديهم من المهانة ، فتدخلن للانتقام من بعض الوزراء لحماية بعض الخلفاء الصغار ، فبعد قتل الظافر مثلاً أرسلن شعورهن إلى طلائع بن رزيك للاستغاثة به ، وقذفن الوزير القاتل عباس وجنوده بالأحجار ، كما عملن على التخلص من ابن رزيك نفسه بعد ذلك .

(٢٥) أظهر ابن السلار اعتناقه للمذهب السني ، وصار شافعي المذهب ، ولما ولي الاسكندرية بعد وصول الحافظ السلفي الفقيه الشافعي في ذى القعدة سنة ٥١١هـ / ١١١٨م ، عامله بكل تجل واحترام ، وأنشأ في سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م مدرسة للشافعية بالاسكندرية أسند إليه إدارتها ، وبهذا هيا ابن السلار لرجوع المذهب السني إلى مصر . الفاطميون في مصر ص ٢٩٦ .

وأنظر مصر العربية الإسلامية ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٢٦) دلاص : كورة بصعيد مصر على غربي النيل ، ودلاص مدينتها معدودة في كورة البهنسا

معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٩

وقوانين الدواوين ص ١٤٠

(٢٧) الكامل ج ٩ ص ٢٥

عباس قتل ابن السلار (٢٨)، وتشابكت الأحداث بعد ذلك لتنتهي بمقتل الخليفة نفسه على يد نصر بن عباس (٢٩) في نصف المحرم سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م (٣٠) وكما لقي الخليفة مصرعه بتلك الأيدي الأثمة لقي أخوا الخليفة نفس المصير على يد عباس حيث اتهمها عباس بقتل الخليفة (٣١).

ولم تسر الأمور وفق ماأراد المتآمرون ، حيث ثارت الفتنة بمصر ، وأبغض الناس قتل الخليفة ، وفي تلك الأثناء كاتبت بنات الحافظ طلائع بن رزيك ، وأرسلن إليه يستصرخن على عباس (٣٢) ، ولبي طلائع بن رزيك النداء وسار من منية الخصيب (٣٣) في صعيد مصر حيث ولايته ، وتمكن من هزيمة عباس الذي خرج هارباً إلى بلاد الشام ، ولكن الفرنج

(٢٨) وكان ذلك بتحريض من أسامة بن منقذ وموافقة من الخليفة الظافر . ابن القلانسي ص ٣١٩ ، ٣٢٠ والكامل ج ٩ ص ٤١ .

(٢٩) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٠٩ ، وفي كنز الدرر : الذي قتل الخليفة هو عباس نفسه ، حيث التقاه بسيفه وقاله له : « خليفة يقبل من أمر الصبيان » ثم قبض عليه وذبحه كنز الدرر ق ٣ ج ٦ ورقة ٣٠٦ .

(٣٠) الكامل ج ٩ ص ٢٥ « درر التيجان ص ٤٥٦ كان مقتله في ٦ من المحرم ص ٤٦٩ ، ويشترك معه في ذلك ابن ميسر . انظر ج ٢ ص ٩٢ وقال صاحب شذرات الذهب ان مقتله كان في شعبان . شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٢

(٣١) والأخوان هما : أبو الأمانة جبريل ويوسف .

انظر في ذلك الاعتبار حيث كان أسامة شاهد عيان

انظر أخبار مصر ج ٢ ص ٩٣ واتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢١٤

(٣٢) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٣ وأخبار مصر ج ٢ ص ٦٤

وانظر Saunders, A history of Medieval Islam, P. 163

Lane- Poole, Hist. Of Egypt in the middle ages P. 173

(٣٣) بلد على شط النيل ، ميامناً للصاعد فيه ، كبير الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن . رحلة ابن جبير ص ٢٨ ، وفي القاموس الجغرافي لمحمد رمزي : على الضفة الغربية للنيل ، وهي منسوبة إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هارون الرشيد

القاموس الجغرافي ج ٢

مالبثوا أن فتكوا به وقتلوه ، وقتلوا معه ابنه حسام الملك (٣٤) ، ووقع نصر أسيراً في أيدي الفرنج حيث أعادوه إلى مصر في قفص من حديد بناء على طلب من أخت الظافر التي بذلت لهم الكثير من الأموال في سبيل ذلك وأباحتهم مامعه ، وأدخل نصر إلى القصر وقد قطعت يده اليمنى ، وصلب سحراً على باب زويله ، وكان قتله نخساً بالمسال ، وشفعاً بالنعال ، وقطع لحمه وشوى وأطعم إياه ؛ واشترك في قتله على هذه الصورة نساء الظافر وجواريه (٣٥) .

واستبد الصالح طلائع بن رزيك ، فسيطر على الخليفة الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥هـ) ، وصار الخليفة معه ، وليس له من الخلافة إلا مجرد الاسم فقط ، وذلك لصغر سنه (٣٦) . وبعد وفاة الفائز في سنة ٥٥٥هـ استمرت سيطرة الصالح طلائع على الخليفة العاضد وزوجه من ابنته ليصير له الملك والخلافة معا (٣٧) ، ولم يرض ذلك سيدات القصر فدبرن مؤامرة قتل فيها الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م (٣٨) وتولى الوزارة بعده ابنه رزيك بن الصالح .

شاور ورزيك :-

بدأ رزيك عهده بالظفر بقتله أبيه ، وظفرهم ظفراً عجيباً بعد أن كانوا تشبثوا في البلاد (٣٩) ، وسار العادل رزيك سيرة عادلة فسامح النلس بما بقى (٣٤) أخبار مصر ج ٢ ص ٨٥ وتمعظ الحنفاج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣٥) اتمعظ الحنفاج ٣ ص ٢٢١ ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « فأقمن يضربنه بالقباقيب والزرايبيل أياماً ، وقطعن لحمه ، وأطعمنه إياه ، ثم صلب ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١١ ، بينما يقول صاحب شذرات الذهب : « فقتعوا يديه وقرضوا جسمه بالمقاريض وصلبوه على باب زويلة ، وبقى سنة ونصفاً مصلوباً ، شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٣ .

(٣٦) اتمعظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٣ .

(٣٧) Wiet, l'Egypt Arabe, P.289

(٣٨) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٧٧

Kerr, The Crusades, P. 163

(٣٩) اتمعظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٣ .

عليهم في الدواوين ، وأسقط من الرسوم عن الناس مبالغ عظيمة .
وفي عهد رزيك تم زفاف أخته إلى الخليفة العاضد ، ذلك الزواج الذي
كان وراءه الطمع في الملك وإحكام القبضة على الخلافة الفاطمية .
وكان الصالح طلائع قد وضع بنفسه بذرة الخلاف على ابنه عندما عين
شاور بن مجير السعدي ولاية قوص (٤٠) ، وكان الصالح طلائع - أدرك خطأه
هذا ، وندم على توليته لشاور على قوص ، حتى إنه أراد إعادته من
الطريق ، ولكنه لم يتمكن من إعادته ، في حين صمم شاور على المضى
إلى ولايته ، ولو أدى الأمر إلى التحدى وقال : « لا بد لقوص من والٍ ،
وأنا ذلك ، والله لا أدخل القاهرة ، ومتى صرفني دخلت النوبة (٤١) » ، مما
اضطر الصالح إلى تركه .

وكان الصالح طلائع بن رزيك يعد ولايته لشاور على الصعيد الأعلى
إحدى ثلاث غلطات ارتكبها (٤٢) . وحذر الصالح طلائع ابنه رزيك من
شاور ، وطلب منه ألا يتعرض له بإساءة ، ولا يغير سياسته تجاهه ، حيث
أنه لا يؤمن عصيانه والخروج عليه ، ولكن رزيك لم يعمل بنصيحة والده
فجاءه الشر من حيث حذره ، وانتهت على يدي شاور دولة بنى
رزيك (٤٣) فقد عمل رزيك بمشورة بطانته التي زينت له عزل شاور ،
وصرفه عن قوص حتى يتم له الأمر كله ؛ وإن كان هذا لا يعنى أن رزيك

(٤٠) وكانت مصر في العصر الفاطمي تنقسم إلى أربع ولايات كبيرة هي : ولاية قوص ويحكم
متوليها جميع بلاد الصعيد ، وولاية الشرقية وتشمل الأرض الواقعة شرقي فرع دمياط ، وولاية
الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعي رشيد ودمياط من الشمال إلى الجنوب ، أما الرابعة فهي
ولاية الاسكندرية ويضاف إليها البحيرة .

أنظر الدولة الفاطمية في مصر ص ١٤٤ د . جمال سرور

(٤١) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٤ .

(٤٢) والغلطتان الأخرتان هما : بناء الجامع على باب زويلة ، فإنه مضر على القاهرة ، وخروجه
بالعساكر إلى بلبس وتأخيره إرسالها إلى بلاد الفرنج ، وكان ذلك قد كلفه مائتي ألف دينار ، إنفاقاً
على العسكر . اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٤ .

(٤٣) من صور الجهاد الاسلامي ص ٨٥

قد عدم الخلصاء الذين تميزوا ببعد النظر فقد أشار عليه سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء بالألا يتعرض لشاور وأن يبقيه على ولايته ، فرأى رزيك بعد تردد أن يعزله ، وولى مكانه الأمير نصر الدين شيخ الدولة بن الرفعة ولاية قوص (٤٤) ، وكتب رزيك إلى شاور كتاباً يطالبه فيه بالتخلي عن ولايته وتسليمها إلى نصير الدين ، وأن يحضر إلى القاهرة ؛ ولم يقبل شاور بذلك ، وأرسل إلى نصير الدين الذي وصل في طريق ولايته إلى أخميم قائلاً له : « ارجع ولا تحضر ، قولاً واحداً » ، فاضطر نصير الدين إلى العودة إلى القاهرة ؛ وجاهر شاور عندئذ بالعصيان على العادل رزيك ، فخرج إلى طريق الواحات ، وتوجه إلى تروجه (٤٥) ، ووجد من الناس مؤيدين له فقوى أمره ، ولعل اجتماع الناس عليه يرجع إلى مالقوه على يد ممالك الصالح الذين زاد طغيانهم في زمن رزيك ابنه حتى ضج الناس منهم (٤٦) ، وقد سبب ذلك قلقاً بالغاً لرزيك .

وقد توجه شاور بمن اجتمع معه في طريقه إلى القاهرة ، والتقى بقرها بجيش رزيك الذي كان تعداده ثلاثة آلاف فارس ، فلم يثبت له ذلك الجيش ، بل انضم بعض أمرائه إلى جيش شاور ، وكان ممن انحاز إلى جيش شاور من جيش رزيك أبو الأشبال ضرغام ، ومن على شاكلته من الأمراء ، وكذلك بنو الحاجب ونظراؤهم ، مما عجل بهزيمة جيش رزيك ، حتى إن حسين بن أبي الهيجاء كان أول من لاذ بالفرار وحسام بن فضة ؛ واستجار ابن أبي الهيجاء في الخوف بطريف بن مكنون أحد أمراء جذام فأجاره ، ومكّنه من الذهاب إلى المدينة المنورة حيث جاور بها مدة ومات فيها .

(٤٤) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٤ .

(٤٥) تروجة : قرية من أعمال البحيرة حالياً ، وكانت من أعمال الاسكندرية في الطريق منها إلى القاهرة ، وأشتهرت بزراعة الكمون . قوانين الدواوين ص ١٢٢ ، ٢٢٦ .

(٤٦) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٧ ، وقد وصف بعضهم ذلك الحال فقال :

أمنتهم يابنسى رزيك جهلاً فذاك الأمر يتبعه الأمانسى
أباد الله دولتكم سريعاً فقد ثقلت على كتف الزمان

أما رزيك فإنه لم يواجه جيش شاور ، وخرج إلى اطفيح^(٤٧) ، فقبض عليه مقدم العربان وأحد صنائع والده المعروف بسليمان بن الفيض ، وأخذ كل ما كان معه^(٤٨) ، وأسلمه إلى شاور الذي كافأه على ذلك شراً ، حيث قال : « ياسليمان لقد خبأك الصالح ذخيرة لولده حين استجاريك ، فأسلمته لي ، وأنا الآخر أخبتك ذخيرة لولدي » ثم أمر به فشئق^(٤٩) .

ثم أمر شاور بقتل العادل رزيك فقتل في رمضان سنة ٥٨٥ هـ ، وقدمت رأسه إلى شاور بدار الوزارة في طشت^(٥٠) ، وبعث العاضد بخلعة الوزارة إلى شاور ، ولقبه « أمير الجيوش » وفي ذلك يقول صاحب الكواكب الدرية : « وكانت عادة خلفاء المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعرفوا عجزه ، وقَّعوا للقاهر ، وربوه ومكَّنوه ، فإن قوتهم إنما كانت تتم بعسكر وزيرهم^(٥١) »

وهكذا انتهت تلك المرحلة من الصراع بقتل العادل رزيك الذي انتهت بقتله دولة بني رزيك^(٥٢) ، لتدخل البلاد من بعده في دائرة جديدة من الصراع بين شاور وضرغام .

(٤٧) اطفيح : بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقية ، وفي قبلته مقام موسى بن عمران ، عليه السلام فيه موضع قدمه ؛ وهي من أعمال الاطفيفية .

انظر معجم البلدان ج ١ ص ٢١٧ وقوانين الدواوين ص ١٠٢

(٤٨) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٨

(٤٩) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٥٩ .

(٥٠) وقال في ذلك عمارة اليمنى وهو مشهور بوفاته :

أعزَّزَ عليّ أبا شجاع أن أرى ذاك الجبين مضرجاً بدمائه
ماقبلته سوى رجال قلبوا أيديهم من قبل في نعمائه

اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٩

(٥١) الكواكب الدرية ص ٤٥

(٥٢) وكانت مدة بني رزيك في الوزارة تسع سنين وشهراً وأيام ، وفي زال دولة بني رزيك قال عمارة في حضرة شاور :-

زالت ليالي بنى رزيك وانصرفت والحمد والذم فيها غير منصرم =

شاور وضرغام :-

سرعان نشب الخلاف بعد تولى شاور الوزارة بينه وبين ضرغام بن عامر بن سوار الذى كان مقدماً للأمراء البرقية كما كان صاحب الباب ، وانتهى الأمر إلى انقسام العسكر إلى فرقتين : إحداهما تؤيد « شاور » ، والأخرى تؤيد « ضرغام » ، وكان ضرغام « من نفسه وإخوته وأصحابه فى جيش عظيم (٥٣) » ، وكانت ثورة ضرغام على شاور بعد مضى تسعة أشهر من وزارة شاور وذلك فى ١٨ من رمضان سنة ٥٥٨ هـ مستغلاً قتل شاور لرزيك فى حبسه ، والتقى الفريقان فى وقعة انتهت بهزيمة شاور ، وقتل ابنه طى أكبر أولاده ، وكذلك سليمان الطارى وهو الأصغر ، بينما أسر الكامل ثم قتل وتركت جثته ملقاةً بين القصرين مدة يومين ، وقد خرج شاور من القاهرة إلى الشام إلى الملك العادل نور الدين محمود ، فنهب داره ، ودور أولاده وحاشيته ، « وذهب جميع ما نالوه من بنى رزيك (٥٤) » .

وتمكن ضرغام من الوزارة (٥٥) ، وكان ضرغام « فارس عصره ، كاتباً ،

فى صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
والسلم قد تنبست الأوراق فى السلم
بأن ذلك جمع غير منهزم
من كان مجتمعاً من ذلك الرحم
وإنما غرقوا من سلك العرم
تعظيم شأنك فاعذرنى ولا تلئم
لعهدهما لم يكن بالعهد من قدم
لم يرض فضلك إلا أن يسد فمى
منه وينهى عن الفحشاء فى الكلم
انظر اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٥٩

== كان صالحهم يوماً وعادهم
هم حركوها عليهم وهى ساكنة
كنا نظن ، وبعض الظن مائمة
فمنذ وقعت وقوع النسر خانهم
ولم يكونوا عدواً ذل جانبه
وما قصدت بتعظيمى عداك سوى
ولو شكرت لياليهم محافظة
ولو فتحت فمى يوماً بدمهم
والله يأمر بالاحسان عارفة

(٥٣) النكت العصرية ص ٦٨ .

(٥٤) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٦١

(٥٥) فكان فى هذه السنة ثلاثة من الوزراء هم : رزيك بن الصالح وشاور وضرغام

اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٦٢ والكامل ج ٩ ص ٨١

جميل الصورة ، فكه المحاضرة ، عاقلاً كريماً ، لا يضع كرمه إلا في سمعة ترفعه أو مداراة تتبعه » ، وإن كان يعيبه أنه « كان أذنأ متخيلاً على أصحابه ، وإذا ظنَّ بإنسان شراً جعل الشك يقيناً ^(٥٦) » فقتل كثيراً من الأمراء المصريين ^(٥٧) ولكنه شأنه شأن شاور كان مغلوباً على أمره في وزارته ، ففي حين كان الكامل بن شاور متحكماً في عهد أبيه كان ضرغام مغلوباً على أمره مع أخويه ناصر الدين همام وفخر الدين حسام ^(٥٨) ، وكان همام كأنه مشارك لأخيه في الوزارة « كل منهما يوقع ويقطع ^(٥٩) »

وفي سنة ٥٥٨هـ / ١٦٦٣م سار الفرنج إلى ديار مصر بحجة عدم وفاء الفاطميين له لهم بدفع الجزية السنوية ^(٦٠) ، وخرج ضرغام للقائهم ، ولكنه هزم ، وعقدت بينه وبين الفرنج هدنة على مال يدفعه إليهم ^(٦١) . كما فتح ذلك المهجوم أعين الفرنج على مدى إمكانية فتح مصر الواسعة الثراء التي استشرى الضعف فيها ^(٦٢) .

واستغل شاور ما حدث له ، وما جرى على القاهرة من هجوم فرنجي لدى العادل نور الدين . وقد أفسح له نور الدين في رحابه ، ولم يستمع لدعوة ضرغام إليه بالقبض على شاور وأظهر له غير مايبطن ، وبدأ نور الدين يفكر فعلياً في التدخل في أمور مصر لاسيما وقد عرض شاور عليه في مقابل إعادته ، إلى منصب الوزارة ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء ويتصرف بأمره ^(٦٣) ، وكان نور الدين يرمي من وراء ذلك إلى تحقيق

(٥٦) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦١ .

(٥٧) الكامل ج ٩ ص ٨١ .

(٥٨) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦٢ .

(٥٩) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٦٢ .

(٦٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨١ .

(٦١) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦٤ .

(٦٢) Setton, : A history of the Crusades, vol ١, PP, 550- 551 .

(٦٣) WIET: L'Egypte Arabe. P 249 .

خطته التي كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توطئة لمقاومة الخطر الفرنجي والقضاء عليه بالاضافة الى رغبته في زيادة ملكه (٦٤) كما رأى نور الدين في ضرب القوى الفرنجية في مصر امتداداً لدولته حتى يحيط بقوى الفرنج وأن يلقي بغزة الغرب إلى البحر (٦٥). وإن كانت الأخطار التي كانت تحول بين نور الدين ، وبين التدخل في شئون مصر . مازالت قائمة : فهو يخشى ماقد تتعرض له قواته نتيجة لكون الفرنج في طريقه إلى مصر قد يقطعون عليه خطوط مواصلاته في الذهاب والإياب ، وكان لتدخل شيركوه (٦٦) أثره في دفع نور الدين إلى إجابة شاور إلى مطلبه ليتسنى له أن يكون نائباً فيها عن نور الدين ، فيحقق بذلك أمله في ولاية ضخمة ، يمكن أن يتصرف في شئونها مستقلاً ولو إلى حد ما بدلاً من خضوعه التام لنور الدين باعتباره أحد قواده في بلاد الشام ، ولاشك أن اضطراب الأحوال في مصر سيجعل له اليد العليا في مصر كما كانت لبدر الجمالي فيما مضى (٦٧).

استقر رأى نور الدين على إرسال شاور إلى مصر في صحبة أسد الدين شيركوه في أولى الحملات النورية على مصر (٦٨).

حملة شيركوه الأولى على مصر سنة ٥٥٩هـ

وقد تم ارسال هذه الحملة بعد سنة كاملة من لجوء شاور إلى نور الدين (٦٩) وكان اللقاء بين شاور في الجند الشامي وضرغام في بلبس ،

(٦٤) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦٤ وانظر مصر في العصر الفاطمي ص ٤٥٤ .

(٦٥) Saunders , Ahistory Of Medieval Islam, P. 164

(٦٦) وهو أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان أحد أمراء نور الدين ونائبه على حلب .

اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦٥

(٦٧) مصر والشام والصليبيون ص ٩٥ .

(٦٨) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٨٦ والكامل ج ٩ ص ٨٤ .

(٦٩) نفس المصدر ج ٩ ص ٩٥ .

وذلك بعد أن استولى على الأقاليم الشرقية ، على أن كثرة العكسر المصرى قد بثت الخوف فى أسد الدين شيركوه ، حيث كان يواجه قوات تبلغ ستة آلاف بقيادة الأمير ناصر الدين همام ، ولكن شاور هون أمرهم على شيركوه وقال له : « لايهولنك ماتشاهد من هذه الجموع فأكثرها حاكة وفلاحون يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا ، فما ظنك بهم إذا حمى الوطيس ، وكلبت الحرب ، وأما الأمر فإن كتبهم وعهودهم معى وسترى إذا التقينا ، لكنى أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد (٧٠) .

وتمكن شيركوه بتوجيه من شاور خديعة المصريين حتى لجأوا إلى الراحة ثم فاجئوهم ، وتمكنوا من هزيمتهم ، وخرج قائدهم ناصر الدين همام ، بينما اختفى الأمير حسام فى مدينة بلبيس ، ثم أُسرَ بعد أن دلّ عليه بعض الكنانية .

وقد توجه همام إلى القاهرة ليخبر ضرغاماً بما حل بجيشه ، وعندئذ أخذ ضرغام يجمع صفوفه لكثرة جديدة على الجيش الشامى القادم إلى القاهرة ، وتمكن الجيش الشامى بعد نضال مرير من دخول القاهرة ؛ ولعب شاور دوراً كبيراً فى تمكين الجيش الشامى من ذلك ، حيث كان يركب فى كل يوم فى مصر ويؤمن أهلها ، ويمنع الأتراك من التعرض لهم ، فى حين جانب الصواب ضرغاماً فراح يتوعد لحرق مصر على أهلها من أجل أنهم مكنوا شاوراً من دخول البلد ، ولسوء سيرته فيهم ، حيث استولى على أموال الأوقاف لإمداد جنده بالمال .

وقد لجأ ضرغام إلى الخليفة العاضد طالباً عونهُ ، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك ، وبلغ بضرغام الحال إلى أن وقف تحت القصر الفاطمى طالباً من الخليفة أن يطل عليه من الطاق وهو يقول : يامولانا كلمنى ، يامولانا أرنى وجهك الكريم ، يامولانا بحرمة أجدادك على الله (٧١) .

(٧٠) اتعاظ الخنفاج ٣ ص ٢٦٧

(٧١) اتعاظ الخنفاج ٣ ص ٢٧٠

ويبلغ الحال بضرغام إلى أن صار في ثلاثين فارس من أتباعه فقط ، وهكذا أصبحت الأمور مهيأة أمام شاور الذي بعث إلى الخليفة يستأذنه في دخول القاهرة ، فأذن له ، ودخل شاور القاهرة ، وعاد إلى الوزارة (٧٢) .

أما ضرغام فقد تمكن منه بعض الشاميين ، وبعض غلمان شاور ، وتمكنوا من قتله ، واحتزّت رأسه بالقرب من مشهد السيدة نفيسة في يوم الجمعة ٢٨ من جمادى الآخر سنة ٥٥٩ هـ ، وذلك بعد تسعة أشهر من وزارته (٧٣) ، وجيء برأسه إلى شاور ، فأمر برفعها على قنّاة ، يطاف بها في شوارع القاهرة ، وقد رأى عمارة اليمنى رأس ضرغام ، وهي يطاف بها على الخليج ويصف عمارة ذلك فيقول : « ولما حازوا برأسه على الخليج ، وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالاً :

أرى حنك الوزارة صار سيفاً يجد بحده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا بشير بالمنية والمنصب (٧٤)
قال المقرئى « فكان كما قال عمارة (٧٥) » .

وقد أخرج شاور ابنه الكامل من دار ملهم أخى ضرغام التي كان معتقلاً بها ، وكان بصحبة الكامل في الاعتقال القاضي الفاضل فصارا صديقين ، وقدم الكامل صديقه إلى ابنه شاور ومدحه عنده ، وأثنى عليه ، فسماه شاور : « القاضي الفاضل » وكان يعرف قبل ذلك بالقاضي الأسعد (٧٦) ، وسوف يبرز دور القاضي الفاضل على مسرح الأحداث في عهد صلاح الدين .

وقرىء سجل شاور بوزارته الثانية في ٤ رجب سنة ٥٥٩ هـ ، وكان مما

(٧٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧١ وشذرات الذهب ج ٤ ص ١٨٧ وانظر مصر في العصر الفاطمي ص ٤٥٥ .

(٧٣) الكامل ج ٩ ص ٨٥ .

(٧٤) النكت العصرية ص ٧٧ .

(٧٥) اتعاظ الخفاج ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٧٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٢ .

جاء في سجل وزارته : « إن أمير المؤمنين يمدك في ذلك بدعائه ، ويعدك لتدبير دولته ، وقمع أعدائه ، وراك وإن أبعدتك الضرورات عن بابه ، وأناتك الحادثات عن جنبه ، أنك وزيره المكين ، وخالسته القوى الأمين الذي لا ينزع عن شمس وزارته ، ولا يؤثر غير سلطانه ومملكته (٧٧) .

وكان أسد الدين شيركوه في خلال ذلك نجحياً بناحية المقدس ، وكان يخرج إليه وإلى رجاله في كل يوم سائر أصناف الأطعمة ، وأراد العاصد أن يخلع عليه ، وأعد له ملبوساً وسريراً مرصعاً بالجواهر له قيمة عظيمة كان الخليفة الأمر بالله قد عمله ، ولكن شيركوه أبى ذلك ، فقد كان مايمه هو تنفيذ المهمة التي جاء من أجلها ، وإمضاء الاتفاق الذي تم مع شاور ، فأرسل إلى شاور يستعجله الوفاء بما عاهد عليه ، وقال له : « قد طال مقامنا في الخيم ، وضجر العسكر من الحر والغبار (٧٨) » ، وكان ما فعله شاور أن أرسل إلى شيركوه ثلاثين ألف دينار ، وطلب منه الرحيل ، وصمم شيركوه على تنفيذ ما أمره نور الدين محمود فأرسل إلى شاور يقول : « إن الملك العادل نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه : إذا ملك شاور ، تكون مقيماً عنده ، ويكون لك ثلث مُغَلّ البلاد ، والثلث الآخر لشاور والعسكر ، والثلث الثالث لصاحب القصر ويصرفه في مصالحه (٧٩) » ، وأنكر شاور ذلك ، وتكرّر لوعده لنور الدين ، وأرسل إلى شيركوه يقول : « إنما طلبت نجدة ، وإذا انقضى شغلي عادوا ، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا ، وأنا أرضى نور الدين ، وأصر شيركوه على موقفه ، وقال : « لا يمكنني مخالفة نور الدين ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره (٨٠) » .

وإزاء هذا الموقف الصلب من شيركوه ، وإصرار شاور على المhapلة والعودة في وعوده ؛ كان لا بد من الصدام المسلح بين الطرفين ، فاستعد

(٧٧) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٣ هامش ١ .

(٧٨) اتعاظ الحفاج ٣ ص ٢٧٣

(٧٩) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٣ - ٢٧٤

(٨٠) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٤

شاوور لمحاربة من استنجد به ، في حين تاهب شيركوه لحرب شاوور ، وبعث بابن أخيه يوسف بن أيوب الذي كان مصاحباً له في هذه الحملة بطائفة من الجيش إلى بلبليس ، ليجتمع مايلزم الجيش من الغلال والأتبان .

ومن ناحية أخرى عسكر شاوور أرض الطبالة ، وتم اللقاء بين جيشي شاوور وشيركوه في ٢٣ من شعبان سنة ٥٥٩ هـ في كوم الريش (٨١) ، وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة ، وقد ظل محاصراً لها حتى التاسع من رمضان ، ولم يجد شاوور أمامه غير الاستنجد بعمورى ملك بيت المقدس (٨٢) ، فكتب إليه يستنجده ، ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين في مصر ، ويخبره أنه متى استقروا في البلاد قلعوه منها ، وأطمعه بالأموال ، فجعل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار ، وقد مثل ذلك بالنسبة للفرنج فرصة ذهبية طمعوا من وراثتها إلى ملك مصر (٨٣) .

ولم يجد شيركوه ، والحال كذلك ، غير التوجه إلى بلبليس حيث كان يوسف بن أيوب أعد له من الغلال وغيرها ما يهيء له مجابهة الفرنج في حرب قد تطول ، وتوجه شاوور في عسكر مصر ، والفرنج في عسكرهم إلى لقاء شيركوه ، وحاصروه في بلبليس واستمر الحصار مدة ثلاثة أشهر ، أصر فيها شيركوه على الصمود ، وألا يتزحج من موقعه (٨٤) .

(٨١) بلدة بين أرض البعل ومنية الشريح . كان النيل يمر بغربها بعد مروره بغربي أرض البعل وكانت من أجمل منتزهات القاهرة ، يرغب أعيان الناس في سكنها ، والمنتزه بها ، وفي سنة ٨٠٦ هـ زاد النيل ، وخرّب الدرب الذى كان يصل بينها وبين أرض الطبالة ، فتوالت المحن وخربتها ، وفي ذلك يقول المقرئى : قفراً كأنك لم تك تلهو بها في نعمة وأوانس أتراب .

اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٧٤ هامش ٤

(٨٢) تسميه المصادر العربية مرى ، أمورى ، عمورى وهو أميرك الأول Amalrek ، حكم بيت المقدس بين سنتي ٥٥٧ - ٥٦٩ هـ / ١١٦٢ - ١١٧٤ م بعد وفاة بلدوين الثانى . Balduin II وكان في السابعة والعشرين من اعتلائه العرش .

اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٧٦ - حاشية ٢

(٨٣) Schlumberger, Campagnes du roi Amaury de Jerusalem, P. 58

(٨٤) مصر والشام والصليبيون ص ٩٦

وأدرك نور الدين محمود في الشام مدى حرج قواته في مصر ، وكان عليه أن يضغط على عموري ليجبره على ترك مصر ، فهاجم بعض ممتلكاته (٨٥) ، واستولى على حارم (٨٦) ، ووقع في أسره بوهيمند الثالث BOHEMOND III صاحب أنطاكية وريموند الثالث RAYMOND III صاحب طرابلس (٨٧) ، وصارت أنطاكية بذلك تحت التهديد المباشر لنور الدين ، لو أراد الاستيلاء عليها لتمكن من ذلك ، ولكنه خشي من استنجاد أهلها بصاحب القسطنطينية ، الذي قد يمثل خطراً أشد من خطر بوهيمند (٨٨) ، وتوجه نور الدين إلى بانياس (٨٩) ، واستولى عليها وملاها بالعتاد والرجال (٩٠) وشاطر الفرنج في أعمال طبرية وقرروا له مالاً في كل سنة على الأعمال التي لم يشاطروهم عليها (٩١) ؛ وقت ذلك في عضد عموري فاضطر إلى توقيع صلح بمقتضاه خرج الجيشان النوري والفرنجي من مصر ، وقد تقرر الصلح على أن يدفع شاور لشريكوه ثلاثين ألف دينار أخرى حملت إليه ، وكان شريكوه مضطراً إلى توقيع ذلك الصلح بعد أن

(٨٥) وكانت قد صارت إلى عموري ممتلكات أخيه بلدين الثالث الذي توفى في سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م دون أن يعقب ولداً .

Cam. Mid. History Vol P. 308

(٨٦) حصن حصين ، وكورة جلييلة تجاه أنطاكية . معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٥ وهي على مرحلتين من حلب في جهة الغرب ، وبين حارم وأنطاكية مرحلة .

تقويم البلدان ص ٢٥٩

(٨٧) . قد نجح عموري في جعل نور الدين يفرج عن بوهيمند الثالث ، كما تم الافراج عنه لقراءة بوهيمند من الامبراطور البيزنطي حيث كانت أخته متزوجة من الامبراطور

Grousset, Histoire des Croisades... Vol 2, P. 470

(٨٨) الروستين ج ١ ق ٢ ص ٣٤٢ وانظر حاشية ٢ في نفس الصفحة ، مفرج الكروب ج ١ ص

١٤٥

(٨٩) بانياس اسم لبلدة صغيرة على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب

تقويم البلدان ص ٢٤٨

Grousset, Histoire des Croisades Vol 2 P. 470 (٩٠)

(٩١) الكامل ح ٩ ص ٨٧

قلت الأوقات عنده ، وبعد أن خسر من رجاله جماعة ، ولم تصله نجدة من نور الدين ، وتم خروجه من بلبس في أول ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ .
وكان توقيع ذلك الصلح في صالح الفرنج الذين روعتهم حملات نور الدين على أملاكهم آنئذ (٩٢) .

ومن ناحية أخرى أثبت شاور أنه بحق الوزير الداهية الذي تمكن - وبرغم تعقد الأمور على الصورة التي رأيناها - من استغلال جميع الأطراف لصالحه الخاص . وإن كان لهذه الأحداث من فضل على نور الدين فهي أنها وجهت نظرة إلى خطورة الجبهة المصرية نظراً لطمع الفرنج فيها ودفعته إلى أن يعمل بصورة جديده لمعالجة قضية مصر ، ومن ثم كان عليه أن يتناسى من أجل ذلك كافة المحاذير التي كانت تشنيه عن التدخل الفعلي المباشر في شئونها ، بالإضافة الى ما اكتسبته القوات النورية من ممارسة الحرب على الأرض المصرية ، وما اكتشفه شريكوه إبان وجوده من ضعف مصر عسكرياً وسياسياً ، وما قرى في قلبه من رغبة الانتقام من شاور وحقده عليه لتصرفاته معه (٩٣) ؛ وقد وصف ابن شداد انطباع شريكوه فقال « وشاهد البلاد ، وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال (٩٤) » وقال أبو شامة : « وعاد إلى الشام ، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج ، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام بالشام على مضض ، وقلبه مقلقل ، والقضاء يجره إلى شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك (٩٥) » .

Grousset, Histoire des Croisades, Vbl 2 P. 485 (٩٢)

(٩٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٦٣ .

(٩٤) النوادر السلطانية ص ٦٤ .

Saunders, A history of Medieval Islam, P. 164 وانظر

(٩٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٦٧ ويشير بذلك إلى ماسيكون من دولة لصلاح الدير

حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ :-

ومضى عامان بعد الحملة الأولى لم يقدم نور الدين خلالها على إرسال حملة أخرى إلى مصر وذلك لخشيته من تشتيت جهوده ، وتقسيم قواته ، بينما الموقف في بلاد الشام حرج يستدعى منه اليقظة والحوطة (٩٦) . وفي سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م كانت حملته الثانية على مصر بقيادة أسد الدين شيركوه (٩٧) الذي كان يتوق إلى ملك مصر ، على أن ثمة فارق جوهرى كان بين هذه الحملة وبين الحملة السابقة :

فالحملة السابقة تمت بناء على دعوة من شاور ، أما هذه فكان الدافع إليها الرغبة المحضة في ملك مصر قبل أن يسبق الفرنج إلى ذلك ، وقد ضمت هذه الحملة كسابقتها الشاب يوسف بن أيوب ، وقد سار الجيش النورى على ميمنة الفرنج عن طريق الصحراء الشرقية لنهر الأردن (٩٨) ، حماية لها من جنود القدس وحصونها ، وشيع السلطان العادل نور الدين محمود الحملة بنفسه حتى اقتربت قواته من الحدود المصرية .

ونمى خبر مسير تلك القوات الى عمورى فأرسل الى شاور يخبره بها ، فسارع شاور يطلب منه مساعدته في درء ذلك الخطر ، فبادر عمورى الى نجدته ، وهو يمنى نفسه بامتلاك مصر ، ويخشى أن تسقط في يد نور الدين حيث كان سقوطها يعنى أن مملكته ستصبح نتيجة لذلك محصورة بين نارين مستعرتين (٩٩) ، ولم يغب عن المؤرخين المسلمين سر اسراع عمورى إلى ذلك فقال ابن واصل : « وحملهم على ذلك أمران : أحدهما الطمع في تملك الديار المصرية ، والثانى الخوف من تملك العساكر النورية

(٩٦) Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury P.P 101- 102

(٩٧) Saunders, A history of Medieval Islam, P 164

Grousset, histoire des croisades, vol 2 P.478

(٩٨) مصر والشام والصليبيون ص ٩٧

وانظر Wiet, L'Egypte Arabe P. 295

(٩٩) مصر والشام والصليبيون ص ٩٣ . مصر في العصر الفاطمى ص ٥٥٥

وانظر Schlumberger. Campagnes du Roi Amoury, P 116

لها ، وعلموا أنه إن ملكها نور الدين - رحمه الله - واستضافها إلى البلاد الشامية ، لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام ، وأن يستأصلهم ، وتصير بلاده في وسط بلاده (١٠٠) .

وقد سار عمورى بحذاء الساحل حتى وصل إلى بلبس حيث التقاه شاور بجيشه ، واستعدت تلك القوات المشتركة لمجابهة جيش شيركوه ، ولكن ذلك لم يتح لها حيث تمكن شيركوه من أن يسلك طريقاً آخر أبعده من خطر ذلك اللقاء ، مبتعداً عن الأماكن المأهولة حتى اقترب من الفسطاط ، وعبر النيل إلى جانبه الآخر ، واتجه إلى الصعيد ، وشن الغارات على اطفيح (١٠١) ، وتمكنت الجيوش الفرنجية المصرية المتحالفة من اللحاق به حيث وصلت إلى شرونة من أعمال محافظة المنيا الحالية . وقد دارت رحى المعركة عند قرية البابين من قرى الأشمونين ، ودارت المعركة على الحلفاء وقتل منهم عدد كبير ، وبرز في هذه المعركة دور الشاب يوسف بن أيوب الذى أبلى بلاءً حسناً ، وحمل حملات فرق بها الجموع ، وبدد شملها ، وكاد عمورى نفسه أن يقع في الأسر ، وأسر شيركوه من أصحابه نحواً من سبعين أسيراً (١٠٢) .

ثم إن أسد الدين شيركوه قسم جيشه قسمين : قسم تحت قيادة ابن أخيه يوسف بن أيوب سار إلى الاسكندرية ، في حين توجه شيركوه بالقسم الآخر إلى جنوب الصعيد ففتح البلاد ، وجمع الأموال .

ورأى الخليفان : شاور وعمورى أن القضاء على يوسف قد يكون أيسر من لقاء شيركوه ، وذلك لاعتقادهما بقله خبرة يوسف ، وقد رميا من وراء ذلك تشكيل عامل ضغط على شيركوه مما يضطره إلى المسارعة إلى إنجاد ابن

(١٠٠) مفرج الكروب ج ١ ص ١٤٩ .

(١٠١) وهى بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقية ، معجم البلدان ج ١ ص ٥١٨ .

وانظر قوانين الدواوين ص ١٠٢

(١٠٢) مفرج الكروب ج ١ ص ١٥١ واتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٨٤

أخيه ، وتمكن الحليفان فعلاً من حصار يوسف بن أيوب في الاسكندرية مدة ثلاثة أشهر ، منعا خلاها الميرة عنه ، حتى قلت الأقوات لديه غير أن يوسف تمكن من الصمود ، ويسر له ذلك ترحيب أهل الاسكندرية به وتأييدهم له (١٠٣) وقد اضطر شيركوه فعلاً تحت ضغط حصار الاسكندرية على ابن أخيه إلى العودة من الصعيد محملاً بالكثير من الأموال التي جباها منه ، فنزل على مصر وحاصرها ، مما اضطر إلى رفع الحصار عن الاسكندرية ، والدخول في مفاوضات للصلح استقرت على خروج الجيشين الغريبين عن مصر (١٠٤) ، على أن يتحمل شاور جميع ما غرمه شيركوه في حملته ، وأن يعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار وكان مقتضى الاتفاق ألا يبقى جندي واحد من جنود عمورى في مصر ، ولكن شاوراً تفاهم مع عمورى على أن يكون للفرنج شحنة (١٠٥) فى القاهرة ، وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم حتى يحولوا بين نور الدين وبين إرسال عسكر آخر إليها ، وأن يكون للفرنج مائة ألف دينار في كل سنة من دخل مصر ، على أن الجدير بالذكر أن كل هذا تم بتقرير من شاور دون علم الخليفة العاضد نفسه أو الرجوع إليه في ذلك ، نظراً لضعف الخليفة الذى كان شاور متسلطاً عليه . وهكذا رحل الفرنج عن مصر ، ولكنهم تركوا بها عدة من مشاهير فرسانهم ، وكان هذا الذى تم بناء على رغبة عمورى الذى أراد أن تكون له قدم ثابتة في مصر حتى يتمكن من معرفة تطورات الأمور فيها ، ويكون تمهيداً لعمل حاسم يزمع القيام به عما قريب (١٠٦) .

وهكذا لم تفلح الجولة الثانية بالنسبة لنور الدين محمود ، وإن كان

(١٠٣) مصر والشام والصليبيون ص ٩٩ .

(١٠٤) Kerr, The Crusades, P. 64 .

(١٠٥) الشحنة : الشحنة والشحنكية ، وظيفة يسمّى متوليها صاحب الشحنة وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في بلد من البلاد .

مصطلحات صبح الأعشى ص ١٩٣

(١٠٦) مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٢ وانظر اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٨٧ حاشية ٢ .

شيركوه قائده قدا ازداد تحرقاً إلى امتلاك الديار المصرية حيث عاد « وفي نفسه من مصر مالا ينفصل لأنه خير متحصلها ، وعرف بلادها ، واستخف بأهلها (١٠٧) » .

وقد دعا نجاح شاور هذا إلى استبداد شاور بأمر البلاد « فكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار (١٠٨) واشتد كذلك ظلم إخوته وأولاده وغلمانه ومن لاذ بهم وكثر تضرر الناس بهم (١٠٩) » .

حملة شيركوه الثالثة على مصر سنة ٥٦٤هـ :

استبد الفرنج الذين بقوا في مصر بأمر البلاد بعد ماتيقن لهم ضعفها ، وفي نفس الوقت أراد عمورى القيام بعمل يمنع نور الدين نهائياً من التفكير في أمر مصر ، وذلك بالاستيلاء عليها ، واتخاذها منطلقاً لاستعادة بلاد الشام إلى حكم الفرنج ، معتمداً على موارد مصر الغنية التى تعينه في تحقيق ذلك ، وكان عمورى يصدر في ذلك تحت ضغط من رجاله الذين أقنعوه بضرورة الاستيلاء على مصر ، وكان قد أبدى رغبته في المحافظة على المورد المالى الثابت الذى يصل إليه من مصر ، وكان يفضل القيام بعمل عسكري ضد دمشق نظراً لخطورة نور الدين الذين كان يصبر على مضايقة الفرنج (١١٠) فى حين كان يخشى مهاجمة مصر حيث سيتعرض فيها ليس لمقاومة الحكام فحسب ، بل ولعامه أهل مصر وفلاحها ، ولعل ذلك شيئاً يشرف مصر وتاريخها (١١١) .

وقد راسل عمورى مانويل الامبراطور البيزنطى ليسانده عسكرياً فى حملته على مصر كما طلب مساعده فرسان المعبد ، ولكنهم رفضوا معاونته (١٠٧) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٨٧ .

(١٠٨) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٨٧ والنكت العصرية ص ٨٧ - ٨٨ .

(١٠٩) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٨٧ والنكت العصرية ص ٨٨ .

(١١٠) Lane- Poole, Saladin, P. 103 .

(١١١) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٩٦ .

لخشيتهم من أن يلقي هذا التصرف بمصر في أحضان نور الدين (١١٢).

على أية حال ، تقدم عمورى صوب مصر دون انتظار معونة بيزنطة ، ووصل الداروم (١١٣) ، وأحس شاور بقدم الملك عمورى ، وأفرغه ذلك ، فأرسل إليه رجاله إلى أطراف الحدود الشرقية ، مستفسراً عن سر قدوم عمورى دون الاستنجد به ، ودون أن يكون ثمة خطر يهدد مصر وقال شاور في رسالة إليه : « إن الذى قررته إنها جعلته لك متى احتجت إلى نجدة ، أو إذا قدم على عدو ، فأما مع خلوّ بالى من الأعداء ، فلا حاجة إليك ، ولا لك عندي مقرر (١١٤) » .

وحاول الملك عمورى خداعه بأنه جاء لتأمين البلاد ضد نور الدين ، فعلم شاور أنه قد غدر وخان الأيمان ، ونقض العهود ، وطمع في البلاد (١١٥) ، ولم ينخدع شاور بدعواه ، وتوجه عمورى إلى بلبس ، ووجد معونة من بعض أعيان المصريين الذين كانوا يكرهون شاورا ، وكان بلبس أبناء شاور : طى والطارى والناصر ، وقد عارض طى فى نزول عمورى بلبس ، وقال : أيجب أن بلبس جنة يأكلها ، وقد قال عمورى ردّاً على ذلك فى رسالة إلى شاور : « نعم بلبس جنة ، والقاهرة زبدة (١١٦) » .

Stevenson, The crusaders in the East, p. 193 (١١٢)

(١١٣) الداروم : حصن صغير جنوبى فلسطين ، بينها وبين البحر فرسخ ، حصنه عمورى قريباً من غزة ، بينها وبين مصر ، وأقام بها فرسان الداوية أو المعبد ، وتسمى أيضاً الدارون وهى فى موقع دير البلح الحالية .

انظر Lane-poole, Saladin, P. 106 .

Stevenson, The crusaders in the East, P. 199.

وفى معجم البلدان : الداروم قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر ، الآن بينها وبين البحر مقدار فرسخ .

ج ٢ ص ٤٢٤

(١١٤) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٩٢

(١١٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٣

(١١٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٣

وهكذا أسفر عموري عن وجهه القبيح ، ولما لم يكن في استطاعة مصر مقاومة الخطر الفرنجي كان عليها الاستنجاد بقوة نور الدين محمود ، وجاء الاستنجاد هذه المرة في رسالة من الخليفة العاضد إلى نور الدين دون علم شاور (١١٧) ، وفي طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة مبالغه في طلب النجدة ، وبذل له إن وصل ثلث البلاد ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقياً عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه ، خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين (١١٨) .

وعندما بلغت أنباء ذلك التحرك الفرنجي الخطير نور الدين محمود ، شرع في إعداد جيش كبير على عجل أمر عليه قائده أسد الدين شيركوه ، واستدعاه لذلك على عجل من إقطاعه في حمص ، فجاء أسد الدين شيركوه ليتولى قيادة الجيش النورى المتوجه إلى مصر ، وسار من دمشق في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ في جيش بلغ تعداده ستة آلاف فارس : وخرج في هذه الحملة كذلك يوسف بن أيوب الذى كان كارها أن يسير إلى مصر وكان « كأنها يساق إلى الموت (١١٩) ، وفي ذلك يقول المقريزى : « فأخرجه نور الدين كرهاً ليحق قول الله سبحانه إذ يقول : «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » فإن نور الدين أحب سير صلاح الدين وكان مسيره إليها لخروج الملك عن أولاده ، وكره صلاح الدين مسيره إلى مصر ، فكان في مسيره إليها تملكه إياها وغيرها من الأقاليم (١٢٠) .

وعبر أبو شامة عن بغض صلاح الدين للخروج مع شيركوه بقول صلاح الدين عندما دعى إلى ذلك « فكأنها ضرب قلبى بسكين » وأن نور الدين (١١٧) وقال له : « هذه شعور نساتى من قصرى يستغثن بك لتتقدمن من الفرنج » .

الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩١

(١١٨) مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٨ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩١ .

(١١٩) اتعاظ الخنفاج ٣ ص ٢٩٤

(١٢٠) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٥ .

أجبره على الخروج مع شريكه وأن صلاح الدين قال « وكأنها أساق إلى الموت (١٢١) » ، وبمثل ذلك عبر ابن الأثير (١٢٢) ، ولعل ذلك الاجمـ من المؤرخين على تأبى صلاح الدين هو ابراز أهمية الدور الذى يلعبه القدر والنصيب المكتوب (١٢٣) .

على أية حال ، تمكن عمورى من الانتصار عند بلبس ، وخال أنه فتح مصر وملكها ، وقسم أهل المدينة غنائم على عسكره شكراً لله على ما أولاه من الفتح ، ثم بدأ يوزع أنحاء مصر فى شكل إقطاعات وولايات على رجاله ، ثم تقدم بعد ذلك صوب القاهرة وأصر شاور على المقاومة ، فأمر الناس أن يهجروا مدينة مصر - الفسطاط وماحولها - إلى داخل القاهرة ، فتركوا أموالهم وأثقالهم ، ونجوا بأنفسهم ، وأولادهم وحرهم » وقد ماج الناس ، واضطربوا اضطراباً عظيماً (١٢٤) ، ونهبت مصر وافتقر أهلها وذهب أموالهم ونعمهم (١٢٥) ، وقد اعتبر المقرئى إساءة عمورى فى بلبس منة من الله تعالى حيث قال : « وكان هذا من لطف الله ، فإنه لو قدر أن الفرنج أحسنوا السيرة فى أهل بلبس لكان الناس لا يدافعونهم عن القاهرة ألبته لما فى قلوبهم من كراهة شاور (١٢٦) » .

وقد أشعل شاور النار فى مدينة مصر حتى لا ينتفع بها عمورى ، عندما يصل لمحاصرة القاهرة (١٢٧) ، وقد وجد عمورى لدى نزوله القاهرة مقاومة ضارية حيث قاتل المصريون عنها قتالاً شديداً وبذلوا جهودهم ، واضطر

(١٢١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩٤ .

(١٢٢) الكامل ج ٩ ص ١٠٣ .

(١٢٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٦٩ .

(١٢٤) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٩٦

(١٢٥) مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٧

(١٢٦) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٩٦ .

(١٢٧) مصر والشام والصليبيون ص ٩٩ ، واستمرت النار مشتعلة فيها ٥٤ يوماً . مفرج الكروب

ج ١ ص ١٥٧ ، ابن القرات ج ٤ مجلد ١ ص ٢٤

عموري إلى العودة عن القاهرة ، وإن كان قد فاز من شيركوه بمبلغ مائة ألف دينار (١٢٨).

ووصلت الجيوش النورية إلى مصر ، وما إن وصلت أنباء وصولها إلى مسامع عموري حتى سارع الفرنج إلى مغادرة مصر بخفي حنين خائنين عما أملموه (١٢٩)، دون أن يشتبك في أية معركة « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال (١٤٠) » ، وكان الخليفة العاضد يميل إلى شيركوه ، وكذلك الشعب المصري ، ولم يسر ذلك شاور وبدأ يدبر للقبض على شيركوه (١٣١) وإن كان يبذى له من الود حتى كان « يركب كل يوم إليه ويسير معه ويعدده ويمنيه (١٣٢) » .

وقد ضايق موقف شاور هذا الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاتفق مع بعض رجاله على القبض عليه في غيبة أسد الدين شيركوه الذي كان قد توجه لزيارة قبر الشافعي بالقرافة (١٣٣)، حيث كان شاور قصد مخيم أسد الدين شيركوه للاجتماع به كالعادة ، فلما لم يجده خرج إليه في

(١٢٨) مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٠ وانظر ابن الفرات ج ٤ مجلدا ص ٣٠ .

Schlumberger: C'ampagnes du roi amoury PP. 208- 209

(١٢٩) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٧ .

وانظر التاريخ الباهر ص ١٣٨ .

(١٣٠) مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٠

Kerr, The Crusades, P.164

(١٣١) عزم على أن يدعوهم وجميع أمرائه حتى إذا صاروا إليه ، قبض عليهم ، واستخدم من معهم من الجند يمنع بهم الفرنج ، وقد عارضه ابنه شجاع في ذلك وهدده بإخبار شيركوه ، فقال له شاور : يا بني والله لئن فعلت هذا لتقتلن جميعاً . فقال له : لأن تقتل ونحن مسلمون خير من أن تقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ، فترك شاور ماعزم عليه .

مفرج الكروب ج ١ ص ١٦١ واتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٠٠

وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩٦ ووفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٧

(١٣٢) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٠٠ .

(١٣٣) مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٢ وابن الفرات ج ٤ مجلد ١ ص ٣٢ .

القرافة وصحبه صلاح الدين ، والأمير عز الدين جرديك ، وجمع من العسكر ، وبعد قليل من السير تناوله صلاح الدين وجرديك على غرة فألقياه عن فرسه إلى الأرض ، في حين أحاط باقي الجنود بأتباع شاور فولوا الأدبار فانتهبهم جند شيركوه ، ثم حمل شاور أسيراً إلى مخيم أسد الدين ، ولما بلغ الخبر سمع الخليفة العاضد أرسل أحد الأستاذين بسيف إلى شيركوه ، وقال له : « هذا غلامنا ، ولاخير فيه لك ولانا ، فامض حكم الله فيه (١٣٤) » ، وكان تصرف العاضد هذا « جرياً على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة من قوى على صاحبه (١٣٥) » ، فضربت عنق شاور ، وحمل رأسه إلى القصر الفاطمي (١٣٦) .

وتكاد تجمع المراجع العربية على عدم رضا شيركوه شخصياً عن قتل شاور وأنه عارضه قبل الشروع فيه (١٣٧) ، ودافع عن قتله (١٣٨) ، وساء قتله (١٣٩) ، في حين ذكر صاحب شذرات الذهب أن أسد الدين « تمارض فعاده شاور فقبضوا عليه وقتلوه (١٤٠) » .

هذا ، وقد حمل المقریزی شاوراً مغبة ماحاق بالدولة الفاطمية بعد ذلك حتى آل الأمر إلى زوالها فقال : « وكانت وزارة شاور هذه كثيرة الوقائع والنوازل ، فإنه أطمع الغز والفرنج في البلاد ، وجرهم إليها ، فأحرق مصر ، وأزال نعم أهلها وأذهب أموالهم ، وكان السبب في إزالة الدولة الفاطمية من ديار مصر وتملك الغز لها (١٤١) » وقال في وصف وزارته الثانية (١٣٤) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣٠١ .

(١٣٥) مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٣ والنوادر السلطانية ص ٦٨ .

(١٣٦) مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٣ .

(١٣٧) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٨ .

(١٣٨) ابن الفرات ج ٤ مجلد ١ ص ٣٣ .

(١٣٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٥٥ .

(١٤٠) شذرات الذهب ج ٤ ص ٢١٢ .

(١٤١) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣٠١ .

التي قتل فيها : « فتكشفت في وزاراته الثانية التي قتل فيها صفحاته ، وأحرقت كافة أهل مصر لفتحاته ، وأغرقتهم نفحاته ، فغصّه الدهر وعضّة ، وأوجعه الثكل وأمضه ، وكان عاقبة أمره القتل والعار ، وسوء المنقلب والدمار (١٤٢) » .

وزارة شيركوه :-

دخل شيركوه بعد ذلك إلى القاهرة ، وولاه الخليفة العاضد الوزارة ، وخلع عليه ، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش ، وذلك في يوم الأربعاء ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ (١٤٣) ، وكتب له سجل بخط القاضي الفاضل ، وفي أعلاه بخط الخليفة العاضد : « هذا عهد لاعهد لوزير بمثله ، وتقليد طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلاً بحمله ؛ والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرآشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعتزت بأن اعتزت إلى بنوة النبوة ، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً ، ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » وهو توقيع كبير (١٤٤) ، وهذا آخر منشور كتب عن الفاطميين ثم انقرض أمرهم وانقضت عرى - ولتهم (١٤٥) .

وهكذا حقق أسد الدين شيركوه أمله وأمل نور الدين بامتلاك مصر (١٤٦) ، وكانت تولية العاضد الوزارة لأسد الدين شيركوه يعنى ان

(١٤٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٠٢ .

(١٤٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٠ .

Saunders , « history of medieval Islam P. 164 .

(١٤٤) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٠٢ وقارن ذلك بما أورده أبو شامة في الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٠٢ .

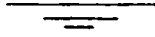
ومفرج الكروب ج ١ ص ١٦٥ ، وانظر المنشور كاملاً في ابن الفرات ج ٤ مجلد ١ من ص ٣٤ إلى ص ٤٤ .

(١٤٥) مفرج الكروب ج ١ ص ١٧١

(١٤٦) الدولة الأيوبية د / زيادة ص ٤٦٠ .

مصر أصبحت جزءاً من دولة نور الدين ، وكان هذا يعنى أن جبهة الإسلام المتحدة امتدت حتى شملت وادى النيل (١٤٧)، وبذلك تحققت الوحدة التى دعا إليها من قبل شرف الدين مودود ومن جاء بعده حتى توجها شيركوه بهذا الفتح العظيم (١٤٨) .

ولكن القدر لم يمهل شيركوه أكثر من شهرين وخمسة أيام فتوفى فجأة فى يوم السبت لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م بعلة الخوانيق (١٤٩)، وقد اعتبر ابن واصل هذا التاريخ بدء قيام الدولة الأيوبية حيث يقول : « وفى هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية ، وأخذت الدولة المصرية فى الوهن والضعف والانحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين (١٥٠) » .



.. Saunders, A history of Medieval Islam, P. 164 (١٤٧)

(١٤٨) نور الدين محمود ص ٣١٤ وأضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ٣٠ .

(١٤٩) النوادر السلطانية ص ٦٩ وانظر مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٨ واتعاظ الحنفاج ٣ ص

٣٠٤ ، وقد مات نور الدين وعمورى بعد أربع سنوات من هذا التاريخ Kerr, The

.. crusades P. 65

(١٥٠) مفرج الكروب ج ١ ص ١٧١ .

الفصل الثاني

الدور الأيوبي حتى وفاة نور الدين
٥٦٤هـ - ٥٦٧هـ / ١١٦٩م - ١١٧٢م

تولى صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة المصرية خلفاً لعمه شيركوه وكان آنذاك في الحادية والثلاثين من عمره (١٥١)، وكان معه من قادة الجيش النورى من هو أكبر سناً منه مثل عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين خسرو بن التليل ، وسيف الدين على بن أحمد المشطوب ، وشهاب الدين وهو خال صلاح الدين وكان كل هؤلاء يطمح إلى منصب الوزارة (١٥٢)

ولعل هذا يدفعنا إلى عدة تساؤلات : هل كان ذلك هو اختيار الخليفة العاضد نفسه أما اختيار المحيطين بالعاضد أشاروا به عليه ، أم هو اختيار نور الدين أملاه على الخليفة العاضد ؟ ، ثم ماهى الأسباب التى دفعت إلى اختيار صلاح الدين دون سواه من القادة ؟

وقد اختلفت أقوال المؤرخين حول هذا الموضوع ، فرأى ابن واصل أن الخليفة العاضد هو الذى اختار صلاح الدين « وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، وعلم أنه إذا ولى وليس له عسكر ، ولارجال ، كان تحت يده وحكمه ، ولايجسر على المخالفه (١٥٣) » ، ويشاركه فى هذا الرأى ابن خلكان الذى رأى أن العاضد اختاره لظنه « أنه إذا ولى صلاح الدين ، وليس له عسكر ولا رجال ، كان فى ولايته مستضعفاً ، ويحكم عليه ، ولايجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر

(١٥١) الدولة الأيوبية ص ٤٦٠

(١٥٢) ابن الفرات المجلد الرابع ج ١ ص ٥٦ والباهر ص ١٤٢ والكامل ج ٩ ص ١٠٢

(١٥٣) مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٩

الشامية من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين ، وعنده من العساكر الشامية من يجميها من الفرنج ونور الدين صاحب الشام (١٥٤) .

ويرى أبو شامة كذلك أن العاضد هو الذي اختار صلاح الدين للوزارة ولكنه يرى في سبب الاختيار رأياً آخر حيث يقول : « وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع ، وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته ، وإقدامه على شاور في موكب ، وأنه قد قتله حين جاءه أمره ولم يترث ولا توقف ، فسارع إلى تقليده الوزارة (١٥٥) » ويرى هذا الرأي ابن الفرات المصرى حيث يقول أن العاضد كان يميل إلى تولية صلاح الدين الوزارة : « لشجاعته وبراعته وكرمه وصباحته (١٥٦) » .

أما الرأي القائل بأن الاختيار كان من جانب الأمراء المحيطين بالخليفة العاضد فقد ارتآه المقرئى الذى بين أن ثمة خلافاً نشأ بين هؤلاء الأمراء فى شخصية من يتولى الوزارة ، وانتصر الرأى الذى اختار صلاح الدين ، فىقول المقرئى أن أهل القصر وحواشى الخليفة من الأستاذين وغيرهم انقسموا فریقین : « فرأى أحد الفريقين والذى كان يتزعمه مؤتمن الخلافة جوهر (١٥٧) ، الذى رأى أن تتول الأمور بعد شيركوه إلى بهاء الدين قراقوش ، وأن يرحل برجاله إلى الشرقية إقطاعاً لهم ، فيمثلون بذلك حاجزاً بينهم وبين الفرنج ، يقاتلون عنهم إذ طمع الفرنج فى العودة إلى مصر حيث يذودون عن حرمهم وإقطاعاتهم ، بينما رأت طائفة أخرى أن

(١٥٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٧ .

(١٥٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٣٩ .

(١٥٦) ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٥٦ .

(١٥٧) وهى خصى من الأستاذين المحنكين بالقصر الفاطمى ، وكان يتولى زمام القصر ، وإليه الاشراف الكامل عليه ، وقد برهن مؤتمن الخلافة هذا بسلوكه فيما بعد على إصراره على تحقيق هدفه فى التخلص من صلاح الدين والجيش النورى بأجمعه »

تكون الوزارة إلى صلاح الدين الذي هو ابن أخى شيركوه « والذي هو مته وإليه (١٥٨) » .

ويرى ابن الأثير هذا الرأي حيث قال : « وكان الذي حمله مع ذلك أن أصحابه قالوا له : ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف والرأى أن يولى ، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا (١٥٩) » .

والحق فيما نرى أن شخصية صلاح الدين وبراعته العسكرية شىء برهنت عليه الأحداث منذ اشتراكه في حملات شيركوه الثلاث على مصر ، ولولا تلك البراعة والشخصية ماجعله شيركوه على نصف جيشه إلى الاسكندرية ، كما امتاز صلاح الدين بالحسم في المواقف الصعبة فهو الذى دبّر لاغتيال شاور وقبض عليه ، مع أن شيركوه نفسه كان لايميل إلى التخلص من شاور بقتله .

ويضاف إلى ذلك أن صلاح الدين قد قبس من إيمان نور الدين وسياسته ، وبعد نظره واتجاهاته في العمل ، وأنه أخذ عن عمه شيركوه الجرأة والاقدام وفن الحرب (١٦٠) وشرب من طموحه ، بالاضافة الى مواهبه الشخصية .

وهذا يدحض الرأي القائل بأن الاختيار وقع على صلاح الدين لحدائه سنة وضعفه ، وقد كان من بين القادة المصريين فيما يبدو من أدرك تلك القوة ورأى فيها خطورة على الكيان الفاطمى ، ونقصه بذلك الرأى الذى تزعمه مؤتمن الخلافة جوهر بعدم اختيار صلاح الدين .

ونحن نرجح - بناء على ماتقدم - الرأى القائل بأن الخليفة العاضد نفسه هو الذى اختار صلاح الدين « لشجاعته وبراعته وكرمه وصباحته » وأن « صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه

(١٥٨) اتعاظ الخفاج ٣ ص ٣٠٨ .

(١٥٩) الكامل ج ٩ ص ١٠٢

(١٦٠) نور الدين ص ٣١٩

وشجاعته ، وإقدامه على شاور في موكب » والذي هو « من شيركوه وإليه » ، ولا ينفى هذا الرأي انقسام المحيطين بالعاضد من حاشيته وأستاذى قصره حول هذا الاختيار .

فالخليفة العاضد - من هذا المنطلق قد اختار صلاح الدين كوريث شرعى لأسد الدين شيركوه ، ولحاجة الخلافة إلى شخصية مخلصه ترسى فيها دعائم الاستقرار بعد طول عهد من الاضطراب ؛ بل يذهب ابن تغرى بردى إلى أن العاضد ألزمه وأخذ كارها ثم قال : « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل (١٦١) » .

على أن بعض المؤرخين قد رأى أن نور الدين كان هو صاحب الاختيار بصفته أمير البلاد والرئيس الأعلى ، وأنه لم يبلغ به الأمر أن يترك للعاضد ورجال قصره أن يختاروا له نائبه على مصر ، وأن العاضد لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه (١٦٢) ، ولو صحَّ ذلك ماحدث الخلاف بين القادة في الجيش النورى ، وعودة بعض القواد عنه إلى نور الدين في الشام ، كما فعل عين الدولة الياروقى الذى كان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً حيث صمم على ألا يكون تابعاً لصلاح الدين وصمم على مفارقتة وقال : « أنا لأأخدم يوسف أبداً » وعاد إلى نور الدين محمود ؛ بلاد الشام (١٦٣) .

وهذا وقد قام الفقيه عيسى الهكارى وبهاء الدين قراقوش بدور كبير في تجميع القلوب حول صلاح الدين في المعسكر النورى ، ويدل نجاحهما في مسعاهما على أن صلاح الدين كان الشخصية الوحيدة التى يمكن أن تحظى بدرجة عالية من الإجماع .

« صلاح الدين والأخطار التى جابهته في مصر »

أولاً : حتى سقوط الدولة الفاطمية :

أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة العاضد الذى خلع عليه ولقبه

(١٦١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧ .

(١٦٢) نور الدين ص ٣٢٢

(١٦٣) التاريخ الباهر ص ١٤٢

بالمملك الناصر (١٦٤) وكان في نفس الوقت قائداً لجيش نور الدين صاحب الشام ، وهو بهذا الوضع وزير لخليفة شيعي قائد لأمر سنى ، فهو موزع الولاء ، ورغم غرابة هذا الوضع فقد اتبع صلاح الدين سياسة سداها الحكمة ولحمتها التؤدة بين الرجلين (١٦٥) . وعلى الساحة المصرية أثبت صلاح الدين قدرته وطول باعه في التقرب إلى المصريين ، واستمالتهم بالأموال ، بل واستماله الخليفة العاضد نفسه ، ورسم لنفسه صورة حسنة في نفوس المصريين ، وقد وصف المقريزى سياسة صلاح الدين تلك وصداهها في النفوس فقال : « استمال صلاح الدين قلوب الناس ، وساس الأمور ، وكاتب الأطراف ، وأقبل على الجد ، وتاب عن الخمر ، وأعرض عن اللهو ، وتقرب إلى الخليفة العاضد بما يرضيه ، فأحبه وأدناه حتى كان يدخله إليه القصر ركباً ، ويقيم عنده بالقصر عدة أيام ، وعظم في الدولة حتى حسده الأمراء ، وياينه جماعة منهم ، وتوجهوا إلى الشام ، وشرع في استماله قلوب الناس إليه فبذل فيهم المال ، وأخرج ماكان في خزائن عمه أسد الدين ، واستدعى من العاضد ، فأمدته بشيء كثير من المال ، فكان أمره في زيادة وقوة ، وأمر العامة في نقص وضعف (١٦٦) ، كما أحسن صلاح الدين إلى العسكر الشامى والمصرى فأحبوه وأطاعوه (١٦٧) .

وهكذا ثبتت قدم الملك الناصر صلاح الدين في مصر ، وصارت الخطبة على المنابر في مصر للخليفة العاضد ، وبعده الملك العادل نور الدين ، وأصبح الأمر والنهى في يد صلاح الدين يتصرف الخليفة عن أمره ؛ وكان نور الدين محمود يخاطبه بالأمير الاسفهلار (١٦٨) ، وإن كان نور الدين

(١٦٤) الكامل ج ٩ ص ١٠٢

(١٦٥) مصر في العصر الفاطمى ص ٤٥٥ .

(١٦٦) اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٣٠٠ وانظر النوادر السلطانية ص ٦٩ والباهر ص ١٤٣ وفي مفرج

الكروب يقول ابن واصل « وضعف أمر العاضد » ج ١ ص ١٧٤ .

(١٦٧) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٥٥ .

(١٦٨) كلمة اسفهلار مركبة من لفظين فارسى وتيركى ، إذ أن « أسفه » بالفارسية بمعنى

« المقدم » ، و « سلا » بالتركية بمعنى العسكر ، فيكون معنى اللقب « مقدم العسكر » أى قائد

الجيش . الألقاب الاسلامية ص ١٥٦ .

يكتب اسمه قبله ، وكان لا يفرده بالمكاتبة ، بل يكتب إليه : « الأمير الاسفهلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا (١٦٩) » .

ولاشك أن ذلك كان حسن سياسة من نور الدين حرصاً منه على صلاح الدين حتى يستل الحقده من صدور الأمراء معه ، وليس صحيحاً لأن وزارة صلاح الدين كان أمراً يسوء نور الدين إلى درجة أنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أن يراه أحد من شدة ما عظم عليه ذلك وأغضبه .

كما ينفي أن يكون الأمر كذلك خشية نور الدين على صلاح الدين حتى من أهله ، وهو فيما يخشى عليه يخشى على مصر كذلك ، وذلك أن صلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب منه أن يسير إليه إخوته ، فأجابه نور الدين : « أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد (١٧٠) ، ولكنه عندما رأى الخطر الفرنجي يحدق بمصر فإنه أرسل إليه العساكر ، وفيهم إخوة صلاح الدين ، وقال لأخيه توران شاه بن أيوب : « إن كنت تسير إلى مصر ، وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك ، وأنت قاعد فلاتسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر ك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر ، وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » فأجابه توران شاه : « أفعل معه الخدمة والطاعة ما يتصل بك خبره إن شاء الله تعالى »

فكلام نور الدين لتوران شاه كلام رجل يعرف أقدار الرجال ، ويقدر دور صلاح الدين في خدمة الاسلام والمسلمين الذى كان أهم أهداف نور الدين .

والحق ، أن ذلك يتعارض تماماً وقول بعض المؤرخين : وكتب إلى

(١٦٩) التاريخ الباهر ص ١٤٢

(١٧٠) التاريخ الباهر ص ١٤٣

الأمراء بمصر بمفارقتة وتركه بمصر وحيداً ليوهن أمره ، وشرع يذمه ، ويذكره بالسوء ، ويعتته في الطلب بحمل الأموال إليه ، وصار كثيراً مايقول : ملك ابن ايوب ويستعظم ذلك احتقاراً له (١٧١) ، وقد أورد أبو شامة هذا الرأي لابن أبي طى ثم علق بقوله : « قلت : والذي أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال ، واستبداده بذلك من غير مشاورته » ثم يضيف : « هذا مع ان ابن أبي طى متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لايليق به ، فإن نور الدين رحمه الله كان أذل الشيعة بحلب ، وأبطل شعارهم ، وقوى أهل السنة ، وكان والد ابن أبي طى من رءوس الشيعة فنناه من حلب » ثم يقول : « وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طى في كتابه (١٧٢) مفرقاً في مواضع ، فلهذا هو في الكتاب الذي له كثير الحمل على نور الدين رحمه الله ، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لايليق به (١٧٣) » .

وقد قال ابن أبي طى كذلك أن نور الدين قال في مرض موته : « ماأخطأت إلا في إنفاذي أسد الدين إلى مصر ، بعد علمي برغبته فيها ، وما يحزنتني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب (١٧٤) » . ولاندرى ماذا كان يريد نور الدين من صلاح الدين أكثر مما ذكره ابن أبي طى أيضاً على لسان صلاح الدين حيث قال : « والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الابر ، وماقدر أحد من أصحابه أن يجد على مايعتده ذنباً ، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدها على فلم يقدر ، ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لايصبر على مثلها ، لعل أتضرر أو أتغير ، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي ، فما أبلغته أربه يوماً قط (١٧٥) » .

(١٧١) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١١ ، وهو رأي ابن الأثير المعروف بميله عن صلاح الدين وأسرته

هامش ٢ ، ٣

اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١٠ ، ٣١١

(١٧٢) يقصد كتاب ابن أبي طى : « السيرة الصلاحية » .

(١٧٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٤١

(١٧٤) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٤١

(١٧٥) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٤٤٢

ويبرهن أبو شامة على كذب ما يدعيه ابن أبي طى فيورد خطاباً بخط نور الدين يشكر فيه صلاح الدين ثم يقول « وذلك ضد ما قاله بن أبي طى (١٧٦) » ، والمخطاب يوجهه نور الدين إلى شرف الدين بن أبي عصرون بتولية قضاء مصر ويقول في ختامه : « وقد كتبت هذا بخطى حتى لا يبقى على حجة . تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام . بموافقة صاحبي واتفق منه صلاح الدين ، وفقه الله ، فأنا منه شاكر كثير كثير ، جزاه الله خيراً وأبقاه ، ففى بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ، ومنفعة لأهل الإسلام ، والله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير» (١٧٧)

وهكذا يتبين أن الأمر بين صلاح الدين ونور الدين لم يكن كما أراد بعض ذوى الأهواء تصويره وإن صدقهم البعض وساروا على دربهم كما يتبين أن نور الدين لم يكن يعارض فى أن يلى صلاح الدين الوزارة فى مصر ، وأن يكون نائبة فيها .

والآن بعد هذا الاسهاب فى هذه القضية التى كثر النقاش حولها نتقل إلى الأخطار التى جابهت صلاح الدين فى مصر إبان تلك الفترة :

الأخطار الداخلية :

أصبح واضحاً للعيان أن صلاح الدين أصبح يتتوى القضاء على الخلافة الفاطمية وأصبح العاضد معه صورة لأمر له ولا نهى (١٧٨) ، فأقطع - صلاح الدين - أصحابه البلاد ، وأسند إليهم المناصب وذلك أنه « رأى النظر فى حق أعوانه وأوليائه أولى ، وسد خللهم وإغنائهم أحرى ، فأقطع الأجناد البلاد ، وأعطى الأمراء والأصحاب من القرى نفائسها ، ومن الأمكنة عرائسها (١٧٩) » .

(١٧٦) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٤٤٢ .

(١٧٧) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(١٧٨) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٠ .

(١٧٩) ابن الفرات المجلد الرابع ج ١ والمواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢

وعندما ازدادت وطأته على أهل القصر الفاطمي ، وبدا واضحاً استبداده بأمور الدولة ، وإضعاف شأن الخلافة ، استاء منه رجال القصر ممثلين في رئيس بلاط قصر الخليفة النوبى جوهر مؤتمن الخلافة (١٨٠) وأخذ يدبر للقضاء على صلاح الدين ، وتسرب أثناء ذلك التدبير إلى صلاح الدين ، فدبر صلاح الدين عليه واستغل خروج مؤتمن الخلافة في جماعة من رجاله إلى منظره له بناها بناحية الخرقانية (١٨١) في بستان فأمر من هجم عليه ، واستباح دمه ، ودم جماعته ، وقد احتزت رأس مؤتمن الخلافة بعد قتله ، وأتى بها إلى صلاح الدين (١٨٢) . وكان ذلك مما أثار غضب السودان جميعاً في مصر ، فثاروا حمية له لأنه كان من جنسهم ، ولأنه كان يتعصب لهم ، كما ثاروا كذلك نتيجة لضعف نفوذهم واستبعادهم في عهد صلاح الدين وكان ذلك في ١٦ من ذى القعدة سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م ، وكانت جميع طوائف السودان تحارب صفواً واحداً : السريمانية والجوشية والفرحية (١٨٣) ، وكان بأسهم شديداً حتى كادت الهزيمة تقع بجند صلاح الدين ، ولكن أخاه توران شاه تمكن من انقاذ الموقف بحملته على السودانيين ، وقتله بعض مقدميهم ، مما فت في قوتهم ، وزادت عندهم حملة جند صلاح الدين عليهم . وكان الخليفة العاضد نفسه يتمنى - آنذاك - أن يقضى السودانيون على هؤلاء المحتلين الجدد ، ويخلصوه من سلطان صلاح الدين الذى تزايد زيادة كبيرة حتى إن أهل القصر الذين كانوا يشاهدون المعركة من منظره الخليفة راخوا بأمر من الخليفة يلقون جند

(١٨٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٧ وكان أحد الأستاذين المحنكين بالقصر .

المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢ .

(١٨١) وهى قرية على شاطئ النيل بقرب قليب . ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٦٩ ويسمىها المقريزى الخاقانية المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٨٨ وأنظر قوانين الدواوين ص ٨٥ .

(١٨٢) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣ .

(١٨٣) وكان الجيش الفاطمي آنذاك يتكون من عنصرين أساسيين هما : المصريون والسودانيون الذين كان معظمهم من البوير الذين كثروا في عهد الخليفة المستنصر بسبب أمه النوبية ، وعرفوا لكثرتهم بعيد الشراء . الناصر صلاح الدين ص ٨٤

صلاح الدين بالنشاب والحجارة ، مما اضطر صلاح الدين إلى إحضار النفاطين وهدد بإحراق منظره القصر الفاطمي ، وأسقط في يد الخليفة الذي خشى على نفسه ، فتظاهر بغير ما يبطن ، فأمر أحد الأستاذين بالخروج من المنظره والصباح بصوت عالٍ إلى توران شاه الذي كان على رأس النفاطين ، وقال له :

« أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ، ويقول ، دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم عن بلادكم (١٨٤) ». وكان لإنصراف تأييد العاضد عن السوادنيين أثره في جند السوادنيين الذين كانوا يحاربون من أجل هيبة الخلافة ففت « في أعضادهم فجنبوا ، وتحاذلوا ، وأدبروا (١٨٥) » ، وجند صلاح الدين يتبعونهم ، وأراد الأرمن الذين كانوا بين القصرين في دارهم التي تحفل بعدد عظيم منهم مؤازرة السوادنيين ، وتمكنوا من إيقاف مسيرة جند صلاح الدين عن متابعة السوادنيين غير أن شمس الدولة تمكن من إحراق دارهم وأهلكهم حرقاً وقتلاً (١٨٦) ، ثم تبع السوادنيين حتى حصرهم عند باب زويلة ، وأعمل فيهم القتل مدة يومين ، كما أحرقت أعظم حاراتهم التي كانت تعرف بالمنصورة ، وطلب السوادنيون الأمان في ٢٨ ذى القعدة فأمنوا ، ثم خرجوا إلى الجزيرة ، فلحق بهم شمس الدولة بجنوده « وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد ، وتلاشى منذئذ أمر العاضد (١٨٧) ولم يعد باقياً للعاضد الا الخطبة له وبعده للملك العادل صاحب الشام (١٨٨) » .

هذا ، وما زال صلاح الدين يتبع أمر السودان حتى قضى على نفوذهم نهائياً في سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م (١٨٩) ويجدر بالذكر هنا أن صلاح الدين

(١٨٤) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣ .

(١٨٥) الكامل ج ٩ في حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(١٨٦) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣ .

(١٨٧) نفس المصدر ج ٢ ص ٣ .

(١٨٨) ابن الفرات المجلد ٤ ج ١ ص ٧١ .

(١٨٩) الدولة الفاطمية في مصر ص ١٧٣ وانظر الفاطميون في مصر ص ٣٠٩

كان يقوم بتلك الأعمال في هذه المرحلة بوصفه نائباً عن نور الدين ، لا باسم الخليفة الفاطمي بوصفه وزيراً له (١٩٠)

الفرنج وصلاح الدين :-

لم تقتصر الأخطار التي واجهت صلاح الدين آنئذ على تلك الأخطار الداخلية بل كان ثمة خطر أكبر يتهدده من ناحية الفرنج الذين ساءهم استيلاء صلاح الدين باسم نور الدين على مصر مما جعلهم في موقف صعب يهدد وجودهم بوقوعهم بين شقي الرحى حيث أصبحت القوات النورية تحيط بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي (١٩١) ، « وأيقنوا أن بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هار ، وأنهم إن لم يتداركوا الأمر وإلا ذهب البلاد من أيديهم (١٩٢) » ، وخافوا من صلاح الدين « أن يملك بلادهم ، ويخرب ديارهم ، ويقلع آثارهم ، لما حدث له من القوة والملك (١٩٣) » ، ومن ناحية أخرى كانت سيطرة نور الدين وقائده صلاح الدين على مينائي الاسكندرية ودمياط في شمال مصر وغيرها من موانئ الدلتا تؤثر على سيادة الصليبيين البحرية ، وتجعل هذه السيادة للمسلمين في الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط (١٩٤) .

وأثار ذلك فزع عمورى ملك بيت المقدس ، واستقر رأيه على الاستنجاد بملوك أوربا ، فأرسل سفارة إلى فردريك بارباروسا امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك انجلترا ، وكذلك وليم الثانى ملك صقلية ، وغيرهم من الأمراء حتى يقوموا بحملة صليبية جديدة ينقذون بها إخوانهم في بلاد الشرق (١٩٥) ؛ ولكنهم لم يلبوا

(١٩٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٩ .

(١٩١) الكامل ج ٩ ص ١٠٥ والتاريخ الباهر ص ١٤٣

(١٩٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٩ ، ١٨٠

(١٩٣) النوادر السلطانية ص ٧٠

(١٩٤) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١٠

(١٩٥) الدولة الفاطمية في مصر ص ١٣٣ ، وكانت السفارة تتكون من القسوس والرهبان الباهر ص ١٤٣

هذه الدعوة لانشغال أغليتهم بمسائل تتعلق بدولهم (١٩٦)، واكتفوا بامدادهم بالأموال والرجال والسلاح (١٩٧).

ولم يكن الانزعاج من نصيب الفرنج فقط فقد انزعج مانويل امبراطور الدولة البيزنطية للأمر ، ولذلك لم يتردد عندما لجأ إليه الفرنج طالبين معونته من مديد المعونة إليهم بأسطول بيزنطى ليجدد بذلك اتفاقيته مع الفرنج حول الاشتراك في مهاجمة مصر واقتسامها (١٩٨)، مؤملاً في تحقيق أطماعه بتوسيع رقعة البلاد الداخلة في دائرة نفوذه (١٩٩). هكذا اجتمع رأى الفرنج والبيزنطيين على مهاجمة مصر ، ورأوا أن يقصدوا إلى دمياط ، وكان قصدهم دمياط بالذات « لتمكن القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم (٢٠٠) » ولتكون في نفس الوقت ظهراً لهم يمكنهم من امتلاك بقية مصر (٢٠١).

ووصلوا إلى دمياط في صفر سنة ٥٦٥ هـ / ، ورأى صلاح الدين ضرورة النهوض لمجابهة الفرنج بدمياط مستشعراً مدى الخطر الذى تمثله حملتهم على البلاد ، لاسيما وأنه لم يكذب فيق بعد من معركة السوادنيين الأولى (٢٠٢)، وأرسل إلى نور الدين مبيناً له عن مخاوفه ، وأوضح له « أنه إن تخلف عن دمياط ملكها الأفرنج ، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفية ومخلفى عسكريه بالسوء ، وخرجوا عن طاعته ، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه (٢٠٣) » . وقد اهتم نور الدين برسالة صلاح الدين أبلغ

(١٩٦) الدولة الفاطمية في مصر ص ١٣٣ وانظر في ذلك أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٨٢ - ٣٩٢

(١٩٧) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٠ والباهر ص ١٤٣ .

(١٩٨) وهى اتفاقية سنة ١١٦٨ م . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١١ .

(١٩٩) الدولة الفاطمية في مصر ص ١٣٣ وانظر نور الدين والصليبيون ص ١٣٤ - ١٣٦ .

(٢٠٠) النوادر السلطانية ص ٧٠ .

(٢٠١) التاريخ الباهر ص ١٤٣ .

(٢٠٢) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٩ .

(٢٠٣) التاريخ الباهر ص ١٤٣ ومفرج الكروب ج ١ ص ١٨٦ .

الاهتمام ، فجهز إليه العسكر أرسالاً « كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضاً (٢٠٤) ، وخرج بنفسه إلى بلاد الفرنج بالساحل واستباحها (٢٠٥) .

أما صلاح الدين فأرسل ابن أخ له هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب على رأس قوة إلى دمياط ، وأتبعه بالأمير شهاب الدين الحارمي ، وقام أهل دمياط بدور بالغ في الدفاع عن مدينتهم ضد الفرنج ، وصبروا على حرهم ، وفي ذلك يقول المقرئ : « والناس فيها صابرون في محاربتهم » وكان أهل دمياط يقدرون موقف صلاح الدين الحرج ونصرهم الله رغم قلة عددهم وعددهم (٢٠٦) ، وقد استغل أهل دمياط ظاهرة جريان النيل من الجنوب الى الشمال في إرسال أوان فخارية تحتوى على مواد مشتعلة ، وذلك على سطح الماء فأنزلت الضرر البالغ بالأسطول البيزنطي (٢٠٧) .

ووقع الخلاف بين الفرنج والبيزنطيين ، واستشعر الفرنج مبلغ الخطر الذى يهددهم من نور الدين الذى أخذ يعيث في بلادهم ، ففضلوا جميعاً العودة من حيث أتوا بعد أن فشلوا في حملتهم فشلاً ذريعاً ، وعقب ابن الأثير على هذا بقوله : « وهذا موضع المثل : ذهبت النعامه تطلب قرنين فعادت بلا أذنين (٢٠٨) » .

وقد ساندته الخليفة العاضد آنذاك بالكثير من الأموال ، وحمد له صلاح الدين هذا الموقف فقال : « مارأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار مصرى سوى الثياب وغيرها (٢٠٩) » .

(٢٠٤) التاريخ الباهر ص ١٤٣ .

(٢٠٥) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١٥ .

(٢٠٦) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٩ وانظر ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٨٣ .

(٢٠٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١٣ .

(٢٠٨) التاريخ الباهر ص ١٤٤ والنوادر السلطانية ص ٧٢ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧ .

(٢٠٩) التاريخ الباهر ص ١٤٤ واتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١٦ .

ولكن الخليفة العاضد لم يكن يخفى عليه ما صار عليه صلاح الدين من قوة وتمكن في مصر ولم يكن يرضيه ذلك فرمى بسهمه الأخير لمحاولة إضعاف قوته عن طريق طلبه من نور الدين أن يسحب الجند الأتراك من القاهرة ، ويطلب منه الاقتصار على الملك الناصر صلاح الدين ومن يلزمه من خواصه ، فلم يجبه نور الدين إلى طلبه وأرسل إليه يعلمه « أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لتعلمه بأن قنطاريات (٢١٠) الفرنج ، ليس لها إلا سهام الأتراك ، فإن الفرنج لا يربعون إلا منهم ، ولولاهم لزداد طمعهم في الديار المصرية ، وتحصلوا منها على الأمانة ، فلعلّ الله يسرّ فتح المسجد الأقصى ، مضافاً إليه نعمه التي لا تحصى (٢١١) » .

وقد زاد عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه بمصر ، وقد وصل إليه أبوه وأقاربه في سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠ مما قوى من موقف صلاح الدين ، وعزم على إحلال الأمراء الشاميين محل الأمراء المصريين في دروهم وأمواهم وإقطاعاتهم ، فكان الأمير الشامي يقف باتباعه على باب الأمير من أمراء مصر ، فإذا خرج قبض عليه واستولى على داره وأخذها لنفسه ، وبذلك « صار الأمراء الشاميون في سائر نعم أمراء مصر ، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعادتهم . قال أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بواباً على الدار التي كان يسكنها ، وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها ، وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعاً له ، ونحو ذلك من الهوان (٢١٢) » .

وقد ساء هذا الذي لحق بالأمراء المصريين الخليفة العاضد ، فأرسل

(٢١٠) القنطاريات : نوع من الأسلحة في خزائن السلاح وتكون مدهونة ومذهبة .

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٧٧

(٢١١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٠ ، والقنطاريات : نوع من الرماح يصنع من خشب يعرف باليونانية بهذا الاسم . مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٣ حاشية ١ وانظر مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٧٧ .

(٢١٢) اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٣٢١ .

يسأل صلاح الدين عن السبب الذي حدا به إلى ذلك ، فأجابه صلاح الدين بأن هؤلاء الأمراء « كانوا عصاة لأمرك ، والمصلحة قتلهم ، وإقامة غيرهم ممن يمثل أمرك » فسكت الخليفة (٢١٣).

وهكذا صار واضحاً للعيان أن الخليفة العاضد لم يعد له من الأمر شيء ، فلا نور الدين بالشام يسمع له ، ولا صلاح الدين نائب نور الدين في مصر يعير احتجاجه أذنى التفات .

محاولة القضاء على المذهب الشيعي في مصر :

كان صلاح الدين سني المذهب (٢١٤) وقائداً لنور الدين محمود ، وهو سني متعصب لسنيته ، في حين كان وزيراً للخليفة العاضد وهو شيعي اسماعيلي ، وهو من هذا المنطلق مزدوج الولاء عملاً ومذهباً (٢١٥) ؛ وقد بدأ صلاح الدين بعد أن تيقن من استقرار سلطته في مصر في العمل على القضاء على المذهب الشيعي لمصر ، وعودة مذهبي السنة : الشافعي ومالك إلى انتشارهما الأول قبل مجيء الفاطميين (٢١٦) ، وكانت الخطوة الأولى تعيين قضاة سنين من المذهب الشافعي ، فعزل في سنة ٥٦٦ هـ قضاة مصر من الشيعة ، وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدباني الشافعي (٢١٧).

(٢١٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٢١ .

(٢١٤) كان صلاح الدين شافعي المذهب هو وجميع أسرته باستثناء الملك المعظم عيسى بن العادل الذي اهتم اهتماماً كبيراً بالمذهب الحنفي ، وتعصب له تعصباً شديداً ، وكان نور الدين محمود حنفي المذهب ، لكنه سوى في اهتماماته بين المذاهب الأربعة جميعاً . مصر والشام والصليبيون ص ١٠٦ حاشية ٢ .

(٢١٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٦ ، وسيرة القاهرة ص ٥٣ .

وانظر Grousset, Histoire des Croisades T. 2, P. 539 .

(٢١٦) الناصر صلاح الدين ص ٨١ .

(٢١٧) هو صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس المادراتي ، وقد استمر في منصبه حتى نهاية عصر صلاح الدين المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٣٣ واتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣١٩ حاشية ٤

ويبدو أن صلاح الدين وشركوه كانا يرعيان المذهب الشافعي حيث كانا معتنقيه وكان شركوه يزور ضريح الإمام الشافعي ، وكان من ذلك يوم مقتل شاور حيث صادف زيارة شركوه لضريح الشافعي ، وكان مذهبا مالك والشافعي موجودين في عهد الفاطميين ، حيث لم يقض الفاطميون على شعائر المذاهب المخالفة (٢١٨) هذا ، وقد شرد صلاح الدين الدعاة الفاطميين ، وألغى مجالس دعوتهم ، وعمل على إزالة أصول المذهب الشيعي ، فأبطل الأذان « بحى على خير العمل محمد وعلى خير البشر » ، وفي ذلك يقول المقرئ « فكانت أول وصمة دخلت على الدولة (٢١٩) » ، ثم أمر أن يذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وتم ذلك في يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة سنة ٥٦٥ هـ .

ثم إن صلاح الدين أمر بأن يذكر الخليفة العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التليبس على الشيعة فكان الخطيب يقول : « اللهم أصلح العاضد لدينك لاغيره (٢٢٠) » ، ثم تطور الأمر فيما بعد إلى إبطال ذكر العاضد من الخطبة حيث كان الخطيب يدعو « للإمام أبي محمد » تلبيساً بأنه العاضد بينما هو يريد أبا محمد الحسن المستضيء بأمر الله الخليفة العباسي (٢٢١) .

ثم أضاف صلاح الدين إلى ذلك تعطيل الجامع الأزهر ، وظل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الخطبة فيه مائة عام من حين استولى السلطان صلاح الدين إلى أن أعيدت الخطبة في أيام السلطان الظاهر بيبرس (٢٢٢) .

ثم أتبع صلاح الدين ذلك بخطوة تهدف إلى تجميع من يرغب في

(٢١٨) الناصر صلاح الدين ص ٨١ .

(٢١٩) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣١٧ .

(٢٢٠) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣١٨ .

(٢٢١) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٢٢ وهو الخليفة الثالث والثلاثون من أسرة العباسيين ، حكم بين سنتي ٥٦٦ هـ (في أواخرها) وسنة ٥٧٥ هـ (١١٧١ - ١١٨٠ م) . نفس المصدر ج ٣ ص ٣٢٢ حاشية (٤) .

النشاط العلمي وتشبع رغبتهم فأنشأ المدارس المختلفة على غرار مدارس حلب ودمشق لتعينه على التخلص من كل آثار الشيعة ولتحل محل الأزهر الذي لم يشترك في نشر التراث السنى إلا بعد فترة (٢٢٣)، وكانت هذه المدارس للمذاهب الفقهية الأربعة ، ومن أهمها مدرسة الشافعية بجوار جامع عمرو بن العاص والتي عرفت باسم المدرسة الشريفة (٢٢٤) وهى أول مدرسة عمرت بمصر لإلقاء العلم (٢٢٥) ، ومدرسة للمالكية بجوار الجامع أيضاً وعرفت باسم المدرسة القمحية ، لأن القمح فى أيام صلاح الدين كان يوزع على فقهاؤها من ضيعة بالفيوم عرفت بالحنوبوشية أوقفها صلاح الدين عليها ، وكان موقعها قبل ذلك قيسارية (سوق) عرفت بقيسارية الغزل بجوار الجامع العتيق بمصر ، ووقف عليها صلاح الدين أيضاً قيسارية الوراقين وعلوها بمصر، وكانت أجل مدرسة للمالكية (٢٢٦) .

وتنسب إلى صلاح الدين أيضاً المدرسة السيوفية التى حل محلها الآن مسجد المطهر بالصاغة بشارع المعز لدين الله ، وخصصت لفقهاء الحنفية (٢٢٧)، كما سمح للحنابلة أيضاً بممارسة نشاطهم (٢٢٨) .

كما أن تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين اشترى منازل الغز وبنائها مدرسة للشافعية (٢٢٩) وقد اندثرت مدارس القاهرة التى انشئت فى العصر الأيوبي (٢٣٠) .

(٢٢٣) الحياة الثقافية بين القاهرة وبغداد إبراهيم مذكورج ١ ص ٦١ من أبحاث الندوة .

(٢٢٤) المواعظ والاعتبارج ٢ ص ٣٦٣ ، وعرفت هذه المدرسة أولاً بالمدرسة الناصرية ثم عرفت بابن زين النجار أحد أعيان الشافعية الذى درس بهذه المدرسة مدة طويلة .

وأنظر الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧١

(٢٢٥) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١٩ .

(٢٢٦) وفى سنة ٨٢٥ م أخرج السلطان الأشرف برسباى ناحيتى الأعلام والحنوبوشية من وقفها وجعلها إقطاعين لمملوكين له المواعظ والاعتبارج ١ ص ٣٦٤ .

(٢٢٧) العمارة الإسلامية فى مصر ص ٢٤ . أبحاث الندوة مجلد ١ ص ٢٥٤

(٢٢٨) أبحاث الندوة مجلد ١ ص ٢٥٤ .

(٢٢٩) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٠ .

(٢٣٠) خصائص عمارة القاهرة التى أنشئت فى العصر الأيوبي أحمد فكرى أبحاث الندوة الدولية

وبذلك يمكن القول أن صلاح الدين اتبع سياسة يمكن أن يطلق عليها سياسة الإزاحة ، أى إزاحة مذهب لإحلال مذهب آخر مكانه (٢٣١).

ولاشك أن صلاح الدين فى إنشائه لتلك المدارس ، كان يجذوذو مولاه نور الدين محمود الذى أكثر من بناء المدارس بالشام ، حيث كان نشر الثقافة وسيلة من وسائل نور الدين لتجميع الرأى العام حوله (٢٣٢).

هذا ، وقد ألغى صلاح الدين المكوس (٢٣٣) والضرائب غير المشروعة التى كانت تجبى أيام الفاطميين متأثراً فى هذه الخطوة للتخفيف عن كاهل الناس بما فعله نور الدين فى الشام كذلك (٢٣٤) .

وكانت النتيجة أن استعاد المذهب السننى قوته فى حين أخذ المذهب الاسماعيلى فى الاختفاء تدريجياً حتى لم يبق له أنصار فى مصر (٢٣٥).

كان نور الدين محمود حريصاً على إسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر لاسيما وقد تحقق من ضعفها ، وأنه لم يبق من أمراء السودان والعساكر المصرية أحد ، وأنه لم يبق لهم منعة ، وأن شوكة صلاح الدين قد قويت وزال من يخالفه (٢٣٦)، ولكن صلاح الدين كان يرى أن ثمة محاذير تحيط به ، وأن إسقاط خلافة وإعلان خلافة أمر يحتاج إلى وقت ، ولكن أمام إلحاح نور الدين شاور صلاح الدين الأمراء فى ذلك الأمر فانقسموا فى (٢٣١) القاهرة ص ١١٥ .

(٢٣٢) الناصر صلاح الدين ص ٨١ ، ومصر والشام والصليبيون ص ١٠٧ ، وكان نور الدين نفسه قد حذا حذو ملكشاه السلجوقى الذى كان وزيره نظام الملك قد بنى المدرسة النظامية فى بغداد . سيرة القاهرة ص ١٦٧ .

(٢٣٣) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢١٩ والمواعظ والاعتبارج ٢ ص ٢٣٣ والمكوس مفردهما « مكس » ضريبة تفرض على الانتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة فى الموانى .

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٢٥

(٢٣٤) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٧ .

(٢٣٥) مصر الفاطمية / د سرور ص ١٣٥ .

(٢٣٦) ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ١٦٢ .

الرأى بين مؤيد ومعارض ، وانبرى للأمر أمير أعجمى كان قد أتى ديار مصر حديثاً يعرف بالأمير العالم (٢٣٧) ، فقال : أنا أبتدىء بها ، وفي أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ صعد الأمير العالم المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة الامام المستضىء بنور الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين بقطع الخطبة للخليفة العاضد في مصر والقاهرة وإقامة الخطبة للخليفة المستضىء بنور الله « فلم يتحرك مخالف لذلك ولا مفكر له ، وانتظم الأمر (٢٣٨) » ، وقد عبر ابن الأثير وغيره عن هذا بقولهم : « فلم ينتطح فيها عنزان (٢٣٩) » .

وهكذا أجمعت المصادر التاريخية على الاشارة إلى أن الناس في مصر استقبلوا هذا التغيير دون اكثرات أو اهتمام بزوال الخلافة الفاطمية (٢٤٠) .
ولعل في ذلك ترويحاً لقول السيوطى بأن « أهل مصر كانوا عبيداً لمن غلب (٢٤١) »

وهو قول سنناقشه بعد قليل لنبيين صدى سقوط دولة الفاطميين لدى أهل مصر .

وقد اخفى أصحاب العاضد ذلك عنه ، حيث كان العاضد مريضاً ،

(٢٣٧) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١ ، ويجعله المقرئى رجلاً من أهل المغرب يقال له اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع أبو يحيى الغافقى الأندلسى ، انعاظ الحنفاج ٣ ص ٣٢٣ .
ويقول عنه رنسيان : انه متصوف أتى من الموصل زائراً تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٣٦ .
وقيل رجل من بعلبك اسم محمد بن الحسن بن أبى المضاء البعلبكى . النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٥ .

(٢٣٨) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١ والكواكب الدرية ورقة ٥٣ .

(٢٣٩) الكامل ج ٩ ص ١١١ والمختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٠ وتمة المختصر ج ٢ ص ٧٩ .

(٢٤٠) الحروب الصليبية / باركر ص ١١٠ .

(٢٤١) يرجع المقرئى هذا القول إلى ابن العربية الذى قال عن المصريين « عبيد لمن غلب أكبر الناس صغاراً وأجهلهم كباراً » المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٥٠ .

وقالوا « إن سلم فهو يعلم فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله (٢٤٢) ».

وذكر ابن أبي طى أن الخليفة العاضد علم بالأمر قبل موته ، وأنه أهتم لذلك ، وقام ليدخل إلى داره ، فتعثروا وسقط ، فأقام مريضاً مدة خمسة أيام ومات ، وقيل إنه امتص فص خاتمه ، وكان تحته سم فمات (٢٤٣) ، وحكى القاضى الفاضل أنه قتل نفسه لما سمع بقطع خطبته (٢٤٤) ، وقيل إن طبيبه المعروف بابن السديد امتنع من مداواته ، وقد نعى المقرئ موقوف هذا الطبيب من العاضد فقال أنه « خذله مساعدةً عليه للزمان ، وميلاً مع الأيام (٢٤٥) » ؛ كما قيل كذلك أن توران شاه أخوا صلاح الدين هو الذى قتله بنفسه (٢٤٦) ، أو أن العاضد حصل له غيظ من شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخى صلاح الدين فسم نفسه ومات (٢٤٧) «

وكانت وفاة الخليفة العاضد فى ١٠ من المحرم سنة ٥٦٧هـ (٢٤٨) ، وعلم صلاح الدين بموت العاضد فقال : « لو علمنا أنه يموت فى هذه الجمعة ماغصصناه برفع اسمه من الخطبة » فقال له القاضى الفاضل : « لو علم أنكم ماترفعون اسمه من الخطبة لم يمت » إشارة إلى أن العاضد قتل نفسه (٢٤٩) .

وهكذا سقطت دولة الفاطميين لتحل محلها الخلافة العباسية التى ظلت قائمة رغم ضعفها وانحلالها لرغبة المسلمين فى الاحتفاظ بها لاعتقادهم أنه

(٢٤٢) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١ والتاريخ الباهر ص ١٥٦ وقره جلى ص ٢٣٩ .

(٢٤٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٩ والكواكب الدرية ورقة ٥٣ .

(٢٤٤) الكواكب الدرية ورقة ٥٣ .

(٢٤٥) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٢٥ والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ .

(٢٤٦) الناصر صلاح الدين ص ٨٦ .

(٢٤٧) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٢ .

(٢٤٨) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩ وأنظر .

نظام لا بد منه لصالح العالم الإسلامي ، واستقامة شئونه (٢٥٠).

هذا . وقد أرسل الخليفة المستضيء بهذه المناسبة الخلع إلى نور الدين إكراماً له ، وكذلك أرسل خلعاً إلى صلاح الدين إلا أنها أقل من خلع نور الدين ، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر (٢٥١).

وهكذا رجعت الدعوة العباسية بعد أن كانت قد قطعت بالديار المصرية مائتين وعشر سنين (٢٥٢).

صدى سقوط الخلافة الفاطمية في مصر :-

صممت أغلب المصادر عن الإفصاح عن حقيقة الشعب المصري من إنهاء الخلافة الفاطمية ، ونحن نقرر بدءاً أن موقف المصريين لم تدل عليه ثورة عارمة فورية وهذا ما عبّر عنه بقولهم : « ولم ينتطح فيه عزان » فهل كان من المنتظر أن يهب المصلون على أثر إعلان الخطبة للعباسيين في ثورة عارمة فورية بين أرجاء المسجد؟! إذا كان هذا هو المراد ، فهو خطأ في استعجال النتائج ، وما هكذا تنفجر الثورة أمام حاكم له السلطة وله الجيش وله القوة المسلحة ، ولكن المتدبر لما أعقب ذلك من ثورات مصرية يعلم أنه قد انتطح فيها أكثر من عزين .

وقد فطن بعض المؤرخين إلى غرابة تصديق أن يمر الأمر هكذا ، ولكنه أقر في النهاية بأن التغيير قد تم فيقول : « ومهما كان من غرابة هذا الأمر ، وصعوبة تصديقه ، فواقع الأمر أن التغيير الفوري هذا قد تم ، ولم ينتطح فيه عزان (٢٥٣) » .

كما استدل ستانلي لين بول على أن التعصب الشيعي كان لا يزال قوياً

(٢٤٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٩ والكواكب الدرية ورقة ٥٣ .

(٢٥٠) Saunders, A history of medieval Islam, p. 164 .

(٢٥١) التاريخ الباهر ص ١٥٧ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ ودول الاسلام ج ٢ ص ٨٠ .

(٢٥٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤١ ودول الاسلام ج ٢ ص ٨٠ .

(٢٥٣) فيليب حتى سوريا ولبنان ص ٢٣٦ .

في القاهرة بعد اثنتي عشرة سنة كاملة على سقوط دولة الفاطميين ، وذلك من خلال وصف الرحالة ابن جبير لمشهد الإمام الحسين بن علي ، ومايفعله الناس في هذا الضريح ، وذلك حيث قال ابن جبير : « وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التي عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين ياكين ، متوسلين إلى الله سبحانه ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين مايزيب الأكباد ، ويصدع الجهاد ، والأمر فيه أعظم ، ومرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم (٢٥٤) » .

والذي نخلص إليه أن سقوط دولة الفاطميين التي كان لها في نفوس المصريين مكانة كبيرة حيث كانت تعنى بالنسبة لهم مصر المستقلة القوية التي كانت تناوىء - في عهد قوتها - خلافة العباسيين والتي كانت تعتمد على المصريين في دواوينها ، بالإضافة إلى أن أيامها في مصر كانت أعياداً متصلة ، لم يعرف لها مثيل من قبل للمسلمين وللمسيحيين على حد سواء ، وكانت تعرف لدى المؤرخين بدولة المصريين (٢٥٥) .

ولم يكن قضاء صلاح الدين على الخلافة الفاطمية يعنى سوى أن مصر قد صارت دولة تابعة لخلافة العباسيين ، وقد عبر ابن جبير عن هذا المعنى حيث قال أنه « بإنهاء خلافة الفاطميين تملك الغز ديار مصر » .

والحق أن شعب مصر عبر عن وفائه لتلك الدولة ، وعبر عن شعوره بالأسى لزوالها ، وكان من مظاهر ذلك جزعهم لوفاة الخليفة العاضد الذي فاق الحدود فقد كان لموته بمصر « يوم عظيم إلى الغاية » وقد وجد عليه المصريون وجداً عظيماً حتى إن نفوسهم « كادت تزهب حزناً (٢٥٦) » .

وفي حب المصريين للفاطميين ورغبتهم في أن تعود أيامها قال ابن

(٢٥٤) سيرة القاهرة ص ١٦٠ ، ١٦٢ ورحلة ابن جبير ص ٤٨ .

(٢٥٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٧ والنوادر السلطانية ص ٧٩ وانظر ظهور دولة الفاطميين وسقوطها ص ٤٩٢ .

(٢٥٦) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ .

خلكان » وكان أهل مصر يؤثرون عودهم (٢٥٧) ، كما يحدثنا ابن شداد « عما كان في قلوب القوم من مهاواة المصريين (٢٥٨) » .

وقد أدرك صلاح الدين نفسه ذلك ، وعبر في إحدى رسائله إلى نور الدين عن أن المصريين يناصرونه العدا ، وأنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام (٢٥٩) .

ولاشك أن إساءة صلاح الدين السيرة في أهل الخليفة العاضد كانت من دوافع المصريين إلى هذا الاستياء ، فقد احتاط قراقوش على أهل العاضد وأولاده ، وأخرجهم من القصر ، ثم فرّق بين الرجال والنساء لثلا يتناسلوا ، وليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم (٢٦٠) ، وقد باع الجوارى والعبيد ، وباع محتويات القصر ، واستمر ذلك البيع مدة عشرة أعوام ، وملك صلاح الدين القصور التي أخرج منها أهلها لأمراته ، « فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب بن شادى في قصر اللؤلؤة على الخليج ، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب إلى الدولة الفاطمية ، فكان الرجل إذا استحسناً داراً أخرج منها سكانها (٢٦١) ، وأخلت أمكنة من القصر الغربى سكن فيها الأمير موسك والأمير أبو الهيجاء السمنى وغيرهم من الغز ، وملئت المناظر المصونة والمتزهات التي لم يخطر ابتذالها في الخاطر (٢٦٢) » ، ويعقب المقرئى على ذلك بقوله : « فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ووارث الأرض ومورثها (٢٦٣) » .

(٢٥٧) وفيات الأعيان ط السعاد ١٩٤٨ ج ٦ ص ١٥٦

(٢٥٨) النوادر السلطانية ص ٧٩ .

(٢٥٩) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢٦٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ والمواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦ .

(٢٦١) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦ .

(٢٦٢) نفس المصدر ج ١ ص ٤٩٦ وانظر كذلك الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧١

(٢٦٣) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦

هذا وقد عمل صلاح الدين على القضاء على معالم الدولة الفاطمية ، فنزع المناطق الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة ، والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين والتي كان وزنها خمسة آلاف درهم فضة نقرة (٢٦٤) .

وقد أحس المصريون بأن أموال مصر وخيراتها تخرج للترك الغرباء في مصر والشام ، وأحسوا باختفاء العملة الذهبية والفضية من التداول أيام صلاح الدين ، وظهرت بدلها عملة رديئة هي الفلوس التي كانت من النحاس المخلوط بالفضة ، وعبر المقيزي وعما أصاب المصريين من ذلك فقال : « وعت بلوى الضائقة بمصر لأن الذهب والفضة خرجاً منها ومارجعا ، وعندما فلم يوجد ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك ، وصاروا إذا قيل دينار أحمر ، فكأنها ذكرت حرمة الغيور له ، وان حصل في يده ، فكأنها جاءت بشارة الجنة له (٢٦٥) .

كذلك استبعد صلاح الدين رجال مصر من وزارته وجيشه ، وأنزل رجاله في بيوتهم ، وهم كذلك بإخراج القبط من الدواوين لولا خوفه من أن يتوقف دولاب العمل (٢٦٦) .

وإذا كان بعض من وفد على الدولة الفاطمية قد وفي لها ، فكيف بأهل البلاد الذين يودعون دولة عاشوا في أعطافها ماينيف على قرنين من الزمان؟! . لقد وفي عمارة اليمنى الشاعر الوافد على دولة الفاطميين لهؤلاء الفاطميين الذين أكرموا وفادته ورثى دولتهم بقصيدة رائعة حاز بها إعجاب المقيزي الذي قال « والله در الفقيه عمارة » وقال ابن سعد عن هذه القصيدة : « ولم يسمع فيما يكتب في دولة بعد انقراضها أحسن منها (٢٦٧) » .

(٢٦٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢٦٥) السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٧ .

(٢٦٦) نفس المصدر ج ١ ق ١ ص ٦٩ وظهور دولة الفاطميين وسقوطها ص ٤٩٣ .

(٢٦٧) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦

وهى القصيدة التى يقول فيها :-

رمىت يادهر كفَّ المجد بالشللٌ وجيده بعد الحسن بالعطل
وفيهما :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتها فى أكرم الدول
وينعى على صلاح الدين مافعله بالفاطميين ، ويرى أن الفرنج لو
تمكنوا منها مافعلوا أقبح مما فعل فيقول :-

ماذا عسى كانت الأفرنج فاعلة فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الأمر شيء غير قسمة ما ملكتمو بين حكم السبى والنفل
ثم يتحسر على القصر الخالى من أصحابه فيقول :-

مررت بالقصر والأركان خالية من الوقود وكانت قبلة القبل
فملتُ عنها بوجهى خوف منتقدٍ من الأعداى ووجه الود لم يمل
ثم يعدد أيام أعيادهم ومكارمهم ، ثم يظهر كراهيته علناً لمن سلبهم
ملكهم فيقول :

والله لافاز يوم الحشر مبغضكم ولانجا من عذاب الله غير ولى
ولاسقى الماء من حر ومن ظمأ من خان عهد الامام العاضد بن على
ثم هو يقسم على حبهم حتى آخر عمره فيقول :-

والله ما زلت عن حبى لهم أبداً ما أخر الله لى فى مدة الأجل (٢٦٨)
وقال عمارة فى قصيدة أخرى ينعى العاضد ، ويعرض بصلاح الدين :

أسفى على زمن الإمام العاضد أسف العقيم على فراق الواحد
لهفى على حجرات قصرك إذ خلت يا ابن النبى من ازدحام الواحد
وعلى انفرادك من عساكرك الذى كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم فكبا وقصر عن صلاح الفاسد (٢٦٩)

ولم يقف الأمر على عمارة ، فربما عبر بالكتابة على الجدران ينعى دولة

(٢٦٨) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦ .

(٢٦٩) وهو يشير إلى فشل ثورة مؤتمن الخلافة فى القضاء على صلاح الدين ، وفى قوله « صلاح

الفاسد » تورية واضحة .

الفاطميين ، فمن ذلك ما وجد مكتوباً على بعض جدران القصر :-
يا هذه الدنيا عجبت لمولع بك كيف أضحي في هواك يقاد
ماصح منك لآل أحمد موعد فكيف منك لغيرهم ميعاد
أما نعيمك فهو ظل زائل وصلاح ما تأتبه فهو فساد (٢٧٠)

ولعلنا نخلص من ذلك إلى أن رنة الفرخ التي سادت أرجاء دولة
العباسيين بصيرورة مصر إحدى ولاياتها ، قابلها رنة الحزن في قلوب
المصريين الذين فقدوا استقلالهم بزوال دولة الفواطم .

وإذا كان الحال كذلك فلا غرو أن تقوم بعض الحركات في مصر
تستهدف إعادة الدولة الفاطمية ، وتخليص البلاد من استبداد صلاح
الدين ، ومن تبعيتها لدولة العباسيين ، وعلى ذلك فإن ثورات المصريين
ضد صلاح الدين نبعت من باعث وطني ضد الاحتلال التركي (٢٧١) .

حركة عمارة اليمنى :-

كانت أكبر المحاولات لإعادة الخلافة الفاطمية هي تلك الحركة التي شارك
فيها عدد كبير من المصريين فيهم القاضي والداعي والكاتب والأمير وأستاذ
القصر والعوام من الشعب (٢٧٢) ، فقد اشترك فيها المفضل بن كامل
القاضي ، وابن عبد القوى الداعي ، والعموريس ، وكان يتولى ديوان
النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشربما كاتم السر ، وعبد الصمد القشة أحد
امراء المصريين ونجاح الحمامي ورجل منجم نصراني ، وكان ممن تزعم
هذه الحركة عمارة اليمنى الذي ظل على وفائه للفاطميين حتى حبل المشنقة
ولم يكن هناك ود بين عمارة وبين الحكم الجديد فقد « كان عمارة مستشعراً
من الغز وهم أيضاً منه لأنه كان من أتباع الدولة المصرية (٢٧٣) » ، وقد

(٢٧٠) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٣٤ وفي البيت الأخير كذلك تورية واضحة وتعريض بصلاح
الدين .

(٢٧١) الناصر صلاح الدين ص ٩٢ .

(٢٧٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ .

(٢٧٣) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٥٦٧ .

اشترك في الحركة كذلك السودانيون ، وبعض التركمان ، وأسرة شاور ،
وبنورزيك ، وكل من كان ساخطاً على قيام النظام الجديد (٢٧٤) ، وكان ذلك
في سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م (٢٧٥) . وكانوا قد اتفقوا على تولية الخلافة إلى
ابن العاضد الأكبر ، ولقبوه « الحامد لله » ، غير أنهم كانوا قد أدخلوا
معهم رجلاً من الأجناد ليس من أهل مصر ، فحضر عند صلاح الدين
وأخبره بأمرهم (٢٧٦) .

وكانت الظروف آنذاك تساند الثائرين حيث ساءت الأحوال في بلاد
اليمن في أعقاب استيلاء عبد النبي على زبيد ، وقطع الخطبة العباسية بها
والخطبة لنفسه ، مما دفع توران شاه رجل صلاح الدين القوي الذي كان
قد عاد من بلاد النوبة بعد غزوه لها حيث لم يطب له المقام إلى ابداء الرغبة
في فتح اليمن فوافق صلاح الدين وزين له عمارة اليمنى ذلك الأمر حيث
رأى الخير في غيبة توران شاه عن مصر أثناء تفجر الثورة (٢٧٧) .

ويقول المؤرخون أن زعماء الحركة اتصلوا بعموري ملك بيت المقدس
ليؤازرهم في إنجاح حركتهم ، ففي حين يهاجم الفرنج في وقت حدوده ،
يقوم هؤلاء بحركتهم في الداخل ، ويعيدون دولة الفاطميين .

وهذا الادعاء يعوزه الدليل ، ويضعفه محاولة تكرار تلك الوصمة في كل
محاولة مصرية رغبة في تشويه الأهداف (٢٧٨) ، ولم يكن الفرنج في كل حركة
قاموا بها ضد مصر في حاجة إلى تأمر أو استدعاء ، فهم كانوا يستشعرون
على الدوام الخطر النورى على مصر ، ويحاولون القضاء عليه ، وقد سبق
أن جاء عموري إلى مصر دون يستدعيه شاور طامعاً في احتلالها (٢٧٩) ،

(٢٧٤) مصر العربية الإسلامية ص ٢٣٨

(٢٧٥) الناصر صلاح الدين ص ٩٢ .

(٢٧٦) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٣٥

(٢٧٧) وقد وقعت ثورة عمارة بعد مسير شمس الدولة إلى البلاد اليمنية الأخبار السنية ص ١٦٢

(٢٧٨) الناصر صلاح الدين ص ٩٢

فهؤلاء كان يدفعهم الطمع في اخلاق صلاح الدين والأمل في الحصول على المغانم (٢٨٠).

وكذلك أضاف المؤرخون (٢٨١) أن ثمة اتصالاً جرى بين الثائرين في مصر وبين رشيد الدين بن سنان سليمان في مصياف (٢٨٢) مقر الحشيشية حيث أرسلوا إليه : « أن الدعوة جامعة ، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصره » واستدعوا منه من يقتل صلاح الدين غيلة أو يبيت له مكيدة وحيلة (٢٨٣).

وعلى أية حال ، لم ينجح الثائرون للفاطميين في حركتهم ، واكتشف أمرهم نتيجة للخيانة ، ونتيجة ليقظة صلاح الدين لما يتهدده من أخطار من ناحية المصريين . واستفتى صلاح الدين الفقهاء في أمرهم فأفتوا بقتلهم فأمر بقتلهم (٢٨٤) ، وشنق أقطاب الثائرين جميعاً في يوم السبت ١٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ بين القصرين : فشنق عمارة وصلب فيما بين بابي الذهب وباب البحر ، وابن كامل في رأس الخروقيين ، التي تعرف اليوم بسوق أمير الجيوش ، والعموديس على درب السلة ، وعبد الصمد ، وابن سلامة وابن المظبيّ الأمير ومصطنع الدولة والحاج عبد القوى بالقاهرة ، وشنق ابن كامل القاضي بالقاهرة يوم الأربعاء ١٩ رمضان ، وشنق أيضاً ابن شبرما وأصحابه ، وجماعة من الأجناد والعبيد والحاشية ، وبعض أمراء صلاح الدين ، واستولى صلاح الدين على جميع ما لهم من مال وعقار ، ولم

(٢٨٠) الناصر صلاح الدين ص ٩٣ وانظر كذلك .

Kirk, A Short history of the middle East, P. 47

(٢٨١) « وأكثرهم من أنصار السنة أصحاب صلاح الدين » الناصر صلاح الدين ص ٩٤ .

(٢٨٢) حصن حصين مشهور للاسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس ، ويقال له مصياف . .

معجم البلدان ج ٥ ص ١٤٤

(٢٨٣) الروستين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٥ والحروب الصليبية / باركر ص ٩٢ .

(٢٨٤) الكواكب الدرية ورقة ٦٢ .

يمكن ورثتهم من شيء ألبتة (٢٨٥)، ويقال إنه لم يتعرض بسوء لجنده وقواده الذين خرجوا عليه ، وإنما تجاهل فعلتهم عساهم يرتدون عن غيهم (٢٨٦) .

ومما يدل على أن الحركة لم تكن محدودة أن صلاح الدين « تتبع كل من له هوى في الدولة الفاطمية ، فقتل منهم كثير ، وأسر كثير (٢٨٧) » ، ثم ما أصدره صلاح الدين من أمر بترحيل كافة الأجناد ، وحاشية القصر والسودانيين إلى أقصى بلاد الصعيد (٢٨٨) ، وقبض على كثير من السودانيين فكفوا بالنار في وجوههم وصدورهم (٢٨٩) .

وقد واكب هذه الحركة الثورية حركة أخرى في مدينة الاسكندرية حيث قام بذلك رجل يسمى قديد من دعاة الفاطميين ، فقبض عليه صلاح الدين كذلك (٢٩٠) ، وقد وصف صلاح الدين مدى الخطر الذي مثله ذلك الرجل في خطابه إلى نور الدين حيث قال له : « ومما يطرق به المولى أن ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، اطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره ، محتقراً شخصه ، عظيماً كفره ، يسمى قديداً القفاص ، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فنتته ، وأن أرباب المعاش فيها يحملون إليه جزءاً من كسبهم ، والنساء يبعثن إليه شطراً من أموالهن ، ووجدت في منزله بالاسكندرية عند القبض عليه والهجوم إليه ، كتب مجردة ، فيها خلع

(٢٨٥) مفرج الكرب ج ١ ص ٢٥٠ ودول الإسلام ج ٢ ص ٨٤ والسلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ .

(٢٨٦) Lane- Poole, Saldin, P. 101 .

(٢٨٧) السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ والحروب الصليبية / باركر ص ٢١٢ وانظر

Wiet, L'Egypte arabe, P. 300 .

(٢٨٨) مصر في العصور الوسطى / د . على إبراهيم ص ١٧٨ وانظر

Lane- Poole, Saladin, P. 101

(٢٨٩) السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ .

(٢٩٠) نفس المصدر ج ١ ق ١ ص ٧٥

العذار ، وصريح الكفر الذى ما عنه اندفاع واعتذار ، ورقاع يخاطب فيها بما تقشعر منه الجلود ، وكان يدعى النسب إلى أهل القصر ، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً ، وبالجمله فقد كفى الإسلام أمره ، وحق به مكره ، وصرعه كفره (٢٩١) ، ولسنا ندرى كيف يكون أمره محتقراً من « فشت في الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته .

هذا ما كان من شأن أخطر الثورات المصرية لاعادة الحكم الفاطمى وماواكبها ، تلك الحركة التى قال صاحب الكواكب الدرية عن مدبرها « وكاد أمرهم أن يتم (٢٩٢) » .

أما الفرنج الذين هاجموا الاسكندرية ، والذين كانت أنظارهم دائماً تتجه إلى مصر طمعاً فيها ، والذين كانوا يعلمون مدى تخرج موقفها بعد سقوط دولة الفاطميين فقد وصلت قوات وليم النورمانى فى ٧ صفر سنة ٥٧٠هـ (٢٩٣) ، فى ستائة قطعة مابين شانى وطراة ويطسة (٢٩٤) ، وغير ذلك وكانت قواتهم تبلغ ثلاثين ألفاً ، وقد تمكنت هذه القوات من حصار

(٢٩١) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٦ .

(٢٩٢) الكواكب الدرية ورقة ٦٢ .

(٢٩٣) النوادر السلطانية ص ٨٠ ، وجعل أبر شامة نزولهم فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٥٧٠هـ وانضمامهم فى أول المحرم . الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٨ .

(٢٩٤) الشانى أو الشينى تجدف بثلاثة وأربعين ومائة مجدافاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وتحتوى على أهراء القمح وصهاريج لحزن الماء العذب .

تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ص ٧٤ .

وتاريخ التمدن الاسلامى ج ٢ ص ٢٠٠ وقوانين الدواوين ص ٣٤٠

Muslim sea Power, P. 134

والطريدة : مركب برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرساً .

قوانين الدواوين ص ٣٣٩

والبطسة : من السفن الحربية العظيمة التى تستعمل على عدة طبقات وعلى قلوب كثيرة تقدر

بأكثر من أربعين قلعا وتستخدم فى حمل الأواد والذخيرة والرجال .

تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ص ٧٤ - ٧٥

وأنظر Muslim sea Power, P. 137

تغر الاسكندرية ، ومحاربتة مدة ثلاثة أيام ، ولكن مقاومة المصريين الباسلة التي أسفرت عن إحراق بعض سفنهم واضطرت هذه القوات إلى العودة خائبة خاسرة بعد أن أسرع صلاح الدين لنجدة الاسكندرية (٢٩٥) .

أما الملك عمورى صاحب بيت المقدس فإنه كان قد توفى في بيت المقدس دون أن يرسل قوات تعاون القوات الصقلية (٢٩٦) .

ولعل وصول هذه القوات متأخراً عن زمن قيام ثورة عمارة وشركائه دليل على أنه لم يكن ثمة تخطيط بين القائمين على الثورة وملوك الفرنجة ، وإنما كان الدافع إلى تحرك الفرنج أنهم علموا بتغييرات الأحوال في الديار المصرية وتقلبات الدول بها ، فداخلهم الطمع في البلاد كما قال ابن شداد (٢٩٧)

على أن القاضى الفاضل فيما يرويه عنه أبى شامة يجعل إقدام صاحب صقلية على القدوم إلى مصر الرغبة في الثار ، وذلك حيث يقول : « ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية ، وكان حين علم بأن صاحب الشام ، وصاحب قسطنطينية ، قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا ، وهزما وكسرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تكثر عدته ، وتتنخب عدته ، إلى أن وصل منها في السنة الخالية أمر رائع ، وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله (٢٩٨) » .

(٢٩٥) الكواكب الدرية ورقه رقمه ٦٣

(٢٩٦) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٣٣٢ .

ومصر في العصور الوسطى ص ١٧٧

(٢٩٧) النوادر السلطانية ص ٧٩

(٢٩٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٢١

ثورة الكنز في صعيد مصر :-

لم تقف الحركات ضد صلاح الدين على ما حدث في مصر والقاهرة والإسكندرية ، بل امتد ذلك حتى أقاصى الصعيد حيث قام به كنز الدولة وإلى أسوان ثائراً ، وسيطر على جنوب الصعيد (٢٩٩) ، واجتمع إليه من المصريين والسودانيين والعرب وغيرهم كثيرون (٣٠٠) عن إخلاص للدولة الفاطمية فقد . « كان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده (٣٠١) » ، وقد امتدت السنة تلك الثورة حتى شملت إقليم قوص (٣٠٢) بأكمله ، فجرد له صلاح الدين قطعة كبيرة من العسكر بقيادة أخيه العادل سيف الدين أبي بكر ، ومعه من الأمراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وعز الدين موسك ، وعدة من الأمراء وأصحاب الاقطاعات هناك ، وصحبه في تلك الحملة مهذب بن ممتى صاحب كتاب قوانين الدواوين (٣٠٣) ، وقد وصف ابن شداد جيش العادل هذا ودافعهم إلى القتال بأنهم : من الذين ذاقوا حلاوة البلاد المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم (٣٠٤) ، ففر الكنز إلى مدينة طود (٣٠٥) حيث واكبت ثورته فيها ثورة عباس بن شادى أحد المخلصين للفاطميين كذلك ليتقوى به ، فهاجم الجيش العادلى مدينة طود ، وتمكن من هزيمة الحليفين ،

(٢٩٩) مصر العربية الاسلامية ص ٢٣٩ .

(٣٠٠) الكامل ج ٥ ص ١٣٠ .

(٣٠١) النوادر السلطانية ص ٧٩ ووفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٦ .

(٣٠٢) وكانت قوص قاعدة لإقليم يعرف بالقوصية منذ عهد الفاطميين إلى آخر أيام المالك .

وهى قصبة صعيد مصر . مراصد الاطلاع ج ٢ ص ١١٣٣ .

النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٢

(٣٠٣) التاريخ الحربى لصلاح الدين ص ٤٧ .

(٣٠٤) النوادر السلطانية ص ٧٩ .

(٣٠٥) طود : وصفها ياقوت بأنها « بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ، ودون أسوان لها مناظر

ويساتين » . معجم البلدان ج ٤ ص ٤٦ ، ٤٧ .

وقتل عباس بن شادى ، فى حين تمكن كنز الدولة من الفرار ، ولكن بعض جند العادل حَقَّقوا به وقتلوه (٣٠٦) .

وقد بلغ أتباع الكنز وعباس بن شادى مائة ألف من أهل الصعيد الأقوياء ، والجنود الكثيرين من المصريين والسودانيين ، الذين كان صلاح الدين نفاهم إلى الصعيد ، وقد بلغ من النكاية بهم أنه قُتل منهم ثمانون ألفاً ، ونهبت بلاد الصعيد ، وأخذ الأسرى الكثيرون من أهلها ، حيث صلب منهم نحو ثلاثة آلاف على الأشجار بعمائمهم وطياسهم على حد قول المقرئى (٣٠٧) .

وهكذا ، وما تقدم ، نرى أن سقوط الدولة الفاطمية لم يمر فى هدوء بالنظر إلى تلك الحركات الثورية القوية التى أعقبتها ، والتى كاد ينجح بعضها كالحركة التى تزعمها عمارة اليمنى ، ولاشك أن تلك الثورات كانت تعبيراً عملياً عما اختلج فى قلب المصريين من حزن وأسى عميقين لذهاب دولتهم دولة المصريين ؛ ولكن صلاح الدين ورجاله « من الذين ذاقوا حلاوة البلاد المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم » بما تهبأ لهم من إمكانيات عسكرية تمكنوا من إخماد هذه الثورات قبيل انفجارها أوبعده .

على أن الانتصارات الصلاحية التى أحرزها صلاح الدين على الجبهة الفرنجية فيما بعد أظهرت الناس على بطل إسلامى مرتقب لتحرير بلاد المسلمين فالتفوا حوله وأيدوه حتى إنه عندما خرجت فى سنة ٥٨٤هـ طائفة بمصر ممن ظلوا على إخلاصهم للفاطميين ونادوا فى الليل « يا آل على يا آل على » لم يجبههم أحد من العامة أو التفت إليهم ، وتم أخذهم بسهولة (٣٠٨) ، وكيف لمثل هذه الحركة أن تنجح بعد انتصار حطين العظيم الذى حققه صلاح الدين على الفرنج فى سنة ٥٨٣هـ !؟

(٣٠٦) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٠٢

(٣٠٧) التاريخ الحربى لصلاح الدين ٨٩ وظهر خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٤٩٨ ، ٤٩٩

(٣٠٨) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣١

ورغم ذلك فإنه بعد وفاة داود بن العاضد في سنة ٦٠٤ هـ في محبسه. وكان يزعم أن العاضد عهد إليه ، وأنه الإمام من بعده - فإن أصحابه استأذنوا الملك الكامل أن ينوحوا عليه ، وأن يندبوه ، فأذن لهم « فبرزت النساء حاسرات ، والرجال في ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا في نديه ، والنياحة عليه ، واجتمع معهم من في الاستتار من دعواتهم (٣٠٩) » ، ورغم أن الكامل قد أذن لهم ، فإنه صبر عليهم ، حتى تكاملت أعدادهم ، ثم أرسل إليهم جنوده ، فنهبهم وقبضوا على المعروفين منهم ، ولم يكونوا قلة فقد « ملأ بهم السجون (٣١٠) » ، وقد استولى الكامل على أموالهم ، ومع ذلك فرّ بعضهم ولكن مندثد « زال أمر الاسماعيلية من ديار مصر ، ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم (٣١١) »

والسؤال الآن : هل يمكن بعد ذلك أن يقال أن المصريين لم يأسوا على زوال دولة الفاطميين « دولة المصريين » ولم يبالوا بسقوطها؟! ولعل جوستاف فون جروبنوم يجيب على ذلك السؤال حيث قال : « وبرغم أن الكثير مما أرساه الفاطميون في مصر قد ألغى أو عدل على نحو مما طابعه تماماً في خلال بضع سنوات بعد تركهم لكراسى الحكم ، إلا أن قصة الفاطميين قد بقيت في ذاكرة المصريين باعتبارها طوراً مجيداً ، بل ومحيراً في تاريخهم الطويل (٣١٢) » .

ونختم حديثنا في هذا الموضوع بقول المقرئى عن دولة الفاطميين وأتباعها حيث يقول : « وكانت أساسات دولتهم راسخة في التخوم ، وسيادة شرفهم قد أنافت على النجوم ، وأتباعهم وأولياؤهم لا يحصى لهم عدد ، وأنصارهم وأعوانهم قد ملثوا كل قطر وبلد (٣١٣) »

(٣٠٩) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٦٩ .

(٣١٠) نفس المصدر ج ١ ق ١ ص ١٦٥ .

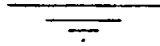
(٣١١) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٦٩ .

(٣١٢) أبحاث الندوة الدولية ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣١٣) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٤٦ .

ونلمح إلى قوله في تحيز من كتب ضدهم من البغداديين والشاميين دون المصريين ، حيث يقول : « فحكّم العقل ، واهزم جيوش الهوى ، وأعط كل ذي حق حقه ، ترشد إن شاء الله تعالى (٣١٤) » .

ولاشك أن الثورات التي حدثت في عهد صلاح الدين قد دفعته إلى أن يسرع في التفكير في بناء قلعة تكون حماية له من خطر الفاطميين في الداخل ، وكذلك من أى خطر خارجي ، ولعله كان يقتدى في ذلك بما شهد منذ حدائته في بلاد الشام ، حيث كان الصليبيون يحيطون مدنها بسور خارجي في داخله قلعة تقيهم شر الثورات الداخلية ، أو الغزو الخارجي (٣١٥) .



« العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين »

يذكر المؤرخون أن العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين لم تكن على ما ينبغي وعبروا عن هذا بقول مبهم هو « الوحشة في الباطن » ، والحق أن الخلاف بين الرجلين لم يتعد أن يكون خلافاً في الرأي حول بعض الأمور ، والخلاف في الرأي - لا يفسد للود قضية كما يقال :

على أننا ينبغي أن نتذكر أن نور الدين - فيما يرويه هؤلاء المؤرخون - هو الذي أرغم صلاح الدين على الذهاب - إلى مصر على غير رغبة من صلاح الدين ، وصلاح الدين - فيما يروي هؤلاء المؤرخون أيضاً - هو الذي قال : « والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها » وهو الذي قال بعد أن أجبره نور الدين على المسير إلى مصر : فكأنها أساق إلى الموت » وقال « فسرت وكأنها طعنوا قلبي بسكين » ، وفيه قال ابن الأثير « عجبت لقوم يساقون إلى الجنة رغم أنوفهم » ورغم ذلك فقد سار إلى مصر بأمر من نور الدين الذي قال له : « لا بد من مسيرك إلى مصر »

فصلاح الدين جاء إلى مصر باختيار نور الدين وهو رجله أولاً وقبل كل شيء ، وكان صلاح الدين يعرف لنور الدين قدره ويعرف محله منه فكان « لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين (٣١٦) »

ولكن هذه العلاقة لم تكن لتمنع الخلاف بين رجلين وهب كل منهما درجة عالية من الكفاية والمقدرة .

١ - ولعل أول ما وقع من خلاف في الرأي بينهما هو ما حدث في شأن قطع الخلافة الفاطمية ، حيث كان صلاح الدين في مصر يرى أن الوقت لم يحن بعد للإقدام على هذه الخطوة ، ويخشى من قيام الفتنة ، في حين

كان نور الدين يرى ضرورة حسم هذا الأمر وكان في رأيه هذا يصدر عن بعد نظره السياسي ، وتعامله منذ فترة طويلة مع الوزراء المصريين ، وكان يدرك ضعف الخلافة الفاطمية التي أصبحت بلا شخصية قيادية قادرة ، بعد وفاة شاور الوزير الداهية ، كما أن الخليفة العباسي المستنجد بالله من ناحية أخرى كان قد أرسل إليه يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر (٣١٧).

٢ - وقد أكد نور الدين حرصه على صلاح الدين عندما أرسل إليه إخوته وأباه (٣١٨) بناء على طلبه بعد أن كان قال له : « أخاف أن يخالف أحد منهم عليك ففسد البلاد » ، كما قال لشمس الدولة توران شاه الأخ الأكبر لصلاح الدين - الذي اشتهر بقوة شكيمته وطموحه - « إن كنت تسير إلى مصر ، وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر حينئذ ، وأعاقبك بها تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر ، وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » فأجابه توران شاه بالسمع والطاعة .

٣ - قام نور الدين بأعمال عسكرية في بلاد الفرنج ليؤمن وصول نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، ومن صحبه من العسكر إلى صلاح الدين (٣١٩) .

٤ - كان فتح مصر من وجهة نظر نور الدين خطوة هامة يقصد من ورائها توجيه الضربة القاضية للفرنج للقضاء على مملكة بيت المقدس قضاء مبرما (٣٢٠) ، لاسيما وأن مملكتهم كان قد أصابها الوهن آنذاك ، وملوك

(٣١٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٠

(٣١٨) وقد وصل أيوب في ٢٤ رجب سنة ٥٦٥ هـ ، وخرج العاضد للقائه .

وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٥٧

(٣١٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٥

(٣٢٠) نور الدين محمود ص ٣٤٠

أوروبا في شغل عن الشام وأهله ، والبيزنطيون الذين أصاب امبراطورهم مانويل الوهن كانوا عاجزين عن التدخل (٣٢١) ، وقد عبر نور الدين عن هذا المعنى حين أرسل إليه صلاح الدين بهدية من مصر حيث قال : « ما كان بنا حاجة إلى هذا المال ، وهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب ، وما لهذا المحمول في مقابلة ماجدنا به مقدار . . لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى وفور العدد من الجند ، وقد عم البلاء بالفرنج ، فينبغي أن تقع المساعدة والمعونة بالأمداد (٣٢٢) ولم يكن هدف نور الدين غائباً عن صلاح الدين نفسه ، فقد كان مما جاء في رسالته مع هديته إلى نور الدين « علم المملوك » يعنى نفسه « بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقصّ أجنحتهم ، ويفلّ أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم (٣٢٣) » .

والسؤال الذى يرد الآن لماذا لم يتعاون صلاح الدين مع نور الدين في محاربة الفرنج كما كان يريد نور الدين ؟ لقد كانت وجهة نظر صلاح الدين أن الخطر بمصر مائل في كل وقت ، وهو يخشى في كل آن وكل مكان قيام ثورة تقتلع جذوره من مصر فهو لم يكن مطمئناً اطمئناناً كاملاً إلى وضعه الداخلى في مصر، ومن ناحية أخرى كان لا يأمن الخطر الخارجى المتمثل في مؤامرات الفرنج عليه ، وعلى هذا الأساس كان صلاح الدين يرغب في الاطمئنان على أنه يقف على أرض ثابتة ، قبل أن يتجه بجهد مركز ضد الفرنج أعداء مصر والشام على السواء (٣٢٤) .

كما أن حصار الكرك (٣٢٥) بقصد الاستيلاء عليها - كما أراد نور الدين -

(٣٢١) نور الدين محمود ص ٣٤٠ .

(٣٢٢) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٦ .

(٣٢٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣٢٤) مصر والشام والصليبيون ص ١١٥ .

(٣٢٥) الكرك : بفتح أوله وثانيه ، اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس ، وهى على سن جبل عال بها أودية إلا من جهة

كان أمراً شاقاً طويل المدى يستدعى تفرغاً عسكرياً لهذا الحصار ويستدعى أن يكون صلاح الدين مطمئناً تمام الاطمئنان على أوضاع مصر الداخلية ، وكلا الأمرين لم يكن ميسوراً لصلاح الدين (٣٢٦) .

وقد كانت الكرك من القوة بحيث لم يستطع نور الدين - الذى كانت أموره مستقرة بالشام تماماً - من فتحها ، كما أن صلاح الدين لم يفتحها إلا فى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨ بعد وفاة نور الدين بخمس عشرة سنة ، بعد تحرير فلسطين واسقاط بيت المقدس (٣٢٧) .

وكل مايمكن أخذه على صلاح الدين هو توقيت انسحابه لدى علمه باقتراب نور الدين ، وإن كانت هناك رواية أخرى تنفى عدم وصول صلاح الدين أساساً لمساندة نور الدين فى حصار حصن الكرك والشويك (٣٢٨) ، وأنه أرسل إلى نور الدين يعتذر إليه باختلال الأحوال فى مصر « وأنه يخاف عليها من البعد عنها (٣٢٩) » .

وصور بعض المؤرخين رغبة نور الدين فى لقاء صلاح الدين بمصر على أنه بقصد أخذ مصر منه (٣٣٠) ، والأغلب أن نور الدين فكر فى ذلك

الريض .

وانظر . Ency de L'isl, Aart al- Kerak, T 2, P. 905- 906.

. Einyelopedia Britanica vol 13 P. 231

(٣٢٦) مصر والشام والصليبيون ص ١١٥ .

(٣٢٧) نفس المصدر ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٣٢٨) الشويك : حصن شديد الحصانة بناه بلدوين الأول Baldwin I صاحب بيت المقدس

سنة ٥٠٩ هـ جنوب البحر الميت ، فى منطقة عالية ليسهل منه مراقبة القوافل السالكة فى الطريق بين الشام ومصر ومهاجمتها ، وهو قريب من حصن الكرك الفرنجى .

. Stevenson, The crusaders in the East, P, 65

. وانظر معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧١ وتقويم البلدان ص ٢٤٦ .

(٣٢٩) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢١ والتاريخ الباهر ص ١٥٨

(٣٣٠) التاريخ الباهر ص ١٥٨ والتاريخ الحربى لصلاح الدين ص ٣٤ .

وانظر Bernard Louis, The arabs in History, P. 152

لصرف اهتمام صلاح الدين الشديد بأموره الداخلية ، لا لكي يعاقبه (٣٣١) .

وليس ثمة ما يمنع من أن بعض رجال صلاح الدين فهم خطأ أن انتواء نور الدين لقصد مصر كان لعزل صلاح الدين ، ومن ثمّ فهموا خطأ كذلك أن في قدرتهم إقناع صلاح الدين بمخالفة مولاه ، أو لعلهم رموا من وراء ذلك أن تعلقو مكانتهم في ظل دولة صلاح الدين إذا ما استقل عن نور الدين ، وهم لاشك كانوا مخطئين على أى حال في توهم نجاح هذا الشقاق بالنظر إلى مقدرة نور الدين وشرعيته وإمكانية صلاح الدين الوقوف في وجهه ، وهذا ما بين زيفه نجم الدين أيوب لصلاح الدين حين قال له : « والله لو رأيت أنا ، وهذا خالك ، نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ، ونقبّل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا هكذا ، كيف يكون غيرنا ؟ فكل من تراه من الأمراء والعساكر . لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول ، وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، وإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى المجيء ، يأمر بك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد » وقال للجماعة : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد (٣٣٢) ، ولم يكتف والد صلاح الدين بهذا الكلام الذى قاله أمام الجماعة بل أفرد ابنه بمثل هذا الكلام ثانية فقال له : « ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر ، وكانوا أسلموك إليه (٣٣٣) » .

وكان صلاح الدين نفسه يرى أن الطاعة لنور الدين واجبة ولا يجيب إلى محاولة شق عصا تلك الطاعة رغم طول الالحاح - فيما يبدو - من رجاله

(٣٣١) نور الدين محمود ص ٣٤٣ .

(٣٣٢) التاريخ الباهر ص ١٥٨ ، ١٥٩ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥١٩ .

(٣٣٣) التاريخ الباهر ص ١٥٩ .

الذين كانوا يلحون عليه في ذلك وهو يخالفهم في الرأي حتى ورد الخبر بوفاة نور الدين ، فقد قال صلاح الدين لمؤرخه بهاء الدين بن شداد بعد وفاة نور الدين بزمان : « كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ، ونشق عصاه ، ونلقى عسكره بمصاف نرده إذا تحقق قصده ، وكنت وحدي أخالفهم ، وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاة (٣٣٤) » .

٦ - ويتصل بهذا الأمر أمر آخر ، وهو أن صلاح الدين أمر أخاه توران شاه بفتح اليمن لتكون ملجأ له إذا اتجه نور الدين إلى مصر وعزله (٣٣٥) ، ويكذب هذا أن ما فكر فيه صلاح الدين من فتح تم بناءً على إذن من نور الدين نفسه (٣٣٦) ، والحق أن اليمن كانت تدين بالولاء للفاطميين سياسياً ومذهبياً حتى في أحوال الضعف الفاطمي في مصر ، وهي بذلك تمثل خطراً على صلاح الدين في مصر حيث لا يستبعد أن تشارك في إعادة سلطان الفاطميين إلى مصر ، ولهذا كان فتحها ضرورة مذهبية لتأمين الاستقرار السني بمصر حيث بالاستيلاء عليها يتم استئصال جذور المذهب الشيعي من اليمن أكبر مساعد للفاطميين (٣٣٧) .

ومن كل ماتقدم وغيره نتبين أن العلاقة بين الرجلين كانت علاقة ينتظمها الحب والاحترام ، ومعرفة كل منهما لقدر صاحبه ، وإن شابها بعض الخلاف في وجهات النظر دون الغايات في أكثر من مسألة ، وأن بلاط كلا الرجلين لم يخل من رجال يحاولون بث الشكوك بينهما ، ولكن الرجلين كانا على مستوى الأحداث .

(٣٣٤) النوادر السلطانية ص ٧٨ وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨١ .

(٣٣٥) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥٤ .

(٣٣٦) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٨ والكامل ج ٩ ص ١٢٢ .

(٣٣٧) مصر والشام والصليبيون ص ١١٨ .

« الفصل الثالث »

الدور الأيوبي حتى وفاة الصالح إسماعيل

(٥٦٧هـ - ٥٧٧هـ (١١٧٢ - ١١٨٢ م)

توفي الملك العادل نور الدين محمود بدمشق يوم الأربعاء ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ - ١١٧٤ م ، بعد أن قام بدور كبير في الجهاد ، وكان ملكه قد اتسع اتساعاً عظيماً ، فقد أطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام والديار المصرية ، وأمر بمسير جند من مصر إلى اليمن ، فساروا - ومقدمهم شمس الدولة ابن أيوب أخو صلاح الدين - فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة (٣٣٨) ، وهو في نظر أبي المحاسن صاحب الفضل الأول في فتح مصر ، ولولاه ما كان صلاح الدين شيئاً مذكوراً فيقول : « ومصر أيضاً من جملة فتوحاته ، وأيضاً ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه في الأجر والثواب ، ولولاه إيش كان صلاح الدين ! حتى ملك مصر من أيدي تلك الرافضة من بني عبيد خلفاء مصر وقوة ثوابهم (٣٣٩) » .

وكان على صلاح الدين من بعده أن يسير على دربه وقد سار ، وحقق الكثير « ولو علم نور الدين ماذا ذخّر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليّة على يدي صلاح الدين من بعده لقرّت عينه ، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها (٣٤٠) » .

(٣٣٨) التاريخ الباهر ص ١٦٢ ، وكان نور الدين كما قيل :

جمع الخشاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب
المختصر في أخبار نبشر ج ٣ ص ٥٥

(٣٣٩) نجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧١ .

(٣٤٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٥ .

على أن طريق صلاح الدين بعد وفاة نور الدين لم يكن طريقاً مفروشاً بالورود ، فقد وقع على كاهله أن يواجه ثلاثة قوى خطيرة هي قوى الزنكين ، والباطنية والصليبيين ، تلك القوى التي تحالفت ضده لتحول بينه وبين تحقيق مايريده من الوحدة الاسلامية بين العراق والشام ومصر ، مما يهدد الحلفاء الثلاثة جميعاً (٣٤١) .

صلاح الدين والزنكيون :-

وبإدء بدء نقرر أن سياسة صلاح الدين تجاه الزنكين كانت تقوم على مزيج من السياسة والحرب ليكسب الجولة ضد ورثة نور الدين (٣٤٢) .

وقد خطب صلاح الدين للملك الصالح اسماعيل الصبي بمصر ، وضرب السكة باسمه فيها (٣٤٣) : وكان الصالح اسماعيل تحت وصاية شمس الدين بن المقدم (٣٤٤) ، وقد ارسل صلاح الدين إلى الصالح اسماعيل متظاهراً بالود والاخلاص له - رسائل التعزية التي تبين فداحة الخطب به ويرى أن تستمر سياسة نور الدين التي اتخذها حيال الفرنج فقال : « الأهم شغل الكفار عن هذه الديار ، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار (٣٤٥) » ، كما حذّر في رسالة أخرى من وقوع الخلاف نتيجة لوفاة نور الدين فقال : « فالله الله أن تختلف القلوب

(٣٤١) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ ، ٧٥١ .

(٣٤٢) Saunders, A history of Medieval Islam, P. 165

(٣٤٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٥ .و Brakelman, history of Islamic Peopl, p. 226

وانظر Eny. de L'Isi, Cart al- Malik al- Sâlih, T4 PP, 114- 115

(٣٤٤) وهو محمد بن عبد الملك بن المقدم ، كان من أكابر أمراء السلطانين نور الدين ثم صلاح الدين ، حضر جميع فتوحات صلاح الدين وكان وصياً على الملك الصالح اسماعيل بعد موت والده نور الدين ، مات يوم النحر بعرفة سنة ٥٨٣ هـ بسبب ضربة سهم من أحد عماليك طاشتكين أحد أمراء الخليفة العباسي على أثر خلاف قام بينه وبين طاشتكين .

النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٠٥

(٣٤٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٦ .

والأيدي ، فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ، ثم يقول : « فكونوا يداً واحدة ، وأعضاءاً متساعداً ، وقلوباً يجمعها ود ، وسيوفها يضمها غمد ، ولا تختلفوا فتتكلموا ، ولا تنازعوا فتفشلوا (٣٤٦) » ، ثم يبين موقفه وموقعه في خطاب ثالث فيقول : « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراق لأوامرها ، والتعرض لمراسمها ، والرفع لكلمتها ، والإيالة لعسكرها ، والتحقق بخدمتها في بواطن الأحوال وظواهرها ، والترقب لأن يؤمر فيمتمثل ، ويكلف فيحتمل ، وأن يرمى به في نحر عدوه فيتسدّد بجهدته (٣٤٧) .

وكان صلاح الدين كان ينظر بعين الغيب إلى ماسوف يحدث بعد وفاة نور الدين وولاية الصبي الصغير الصالح إسماعيل :
لقد اجتمع ورثة نور الدين على تثبيت دولته ، وعلى تفتيت وحدتها بعد أن أمضى حياته مجاهداً في سبيل بنائها ، فقد ورثه ابنه الصالح إسماعيل الصبي الصغير في ملك حلب ودمشق ، تحت وصاية الأمير شمس الدين بن محمد عبد الملك المعروف بابن المقدم ، الذي كان رجلاً قليل الكفاية والعقل (٣٤٨) ، وقد ضرب السكة وأقام الخطبة لنفسه ، في حين زعم سيف الدين علي بن الداية نائب نور الدين محمود في حلب أنه أكبر أمراء نور الدين وأولى بالوصاية على ابنه ، وأرسل يطلب الغلام من دمشق .

وقد ظهر صوت يتسم بالحكمة في خلال ذلك متمثلاً في كمال الدين محمد الشهر وزورى الذى نصح بمشاوره صلاح الدين فيما يجرى باعتباره الأقوى سلطاناً استفادة برأيه وتوقياً لخطورته فقال له : « لقد علمتم أن صلاح الدين من ممالك نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعه ، ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعة الملك الصالح ، ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأنه له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى

(٣٤٦) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٥٨٧ .

(٣٤٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٨ .

(٣٤٨) نور الدين محمود ص ٣٥٨

هو خدمة الملك الصالح (٣٤٩)، ولكن قوله لم يجد قبولاً حيث خشي الأمراء أن يدخل صلاح الدين فيخرجهم .

وهكذا لم يتفق الأمراء على موقف موحد من التعاون فيما بينهم ، كما لم يتفقوا حتى على موقف موحد يعاون فيه بعضهم بعضاً ضد عدوهم المشترك صلاح الدين (٣٥٠) .

أما سيف الدين غازي الثاني ابن أخي نور الدين صاحب الموصل الذي سرتة وفاة نور الدين ، فظاهر الفسق ، وأمر بإعادة المكوس ، وتظاهر بالمنكرات (٣٥١) ، وأسرع إلى الاستيلاء على نصيبين (٣٥٢) ، وبلد الخابور وحران (٣٥٣) ، وكذلك الرها والرقه وسروج (٣٥٤) ، « واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر (٣٥٥) »

كذلك ظهرت على المسرح السياسي آنذاك شخصية أخرى هي شخصية سعد الدين كمشتكين دزدار قلعة الموصل الذي ترك جيش سيف الدين غازي ووصل إلى حلب ، واستقر الأمر بينه وبين ابن الداية ، على

(٣٤٩) التاريخ الباهر ص ١٦٢ ومفرج الكروب ج ٢ ص ٣ .

(٣٥٠) مصر والشام والصليبيون ص ١٢١ .

(٣٥١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٩ .

(٣٥٢) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام ، بينها وبين سنجان تسعة مخارج وبينها وبين الموصل ستة أيام . معجم البلدان ج ٥ ص ٢٨٨ .

(٣٥٣) حران : مدينة قديمة ، قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان

وتقويم البلدان ص ٣٩٤

مراصد الاطلاع ج ١ ص ٣٨٩

(٣٥٤) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر ، بينها وبين البيرة مرحلة في الجبال .

مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٧١٠ .

وتقويم البلدان ص ٢٧٦

(٣٥٥) التاريخ الباهر ص ١٧٥ .

وانظر Brokelman, History of Islamic people, P. 226 .

أن يذهب سعد الدين إلى دمشق ، لاستدعاء الملك الصالح اسماعيل . وأقنع القائمين بأمر دمشق بما في سفر الصالح إسماعيل إلى حلب من المصالح ، وحمايتها من السقوط في يد صاحب الموصل سيف الدين غازي الثاني ، وقد علت يد كمشتكين في حلب بعد وصول الملك الصالح اسماعيل معه ، وتمكن من القبض على ابن الداية وإخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب ، وقد قتل ابن الخشاب وأودع الباقون جميعاً في جب تحت الأرض (٣٥٦) .

وأدرك ابن المقدم أن ذهاب الصالح اسماعيل إلى حلب كان مؤامرة موجّهة ضده فكتب سيف الدين غازي ليسلم إليه دمشق ، غير أن سوء الظن الذي كان يغلب على الأمراء آنذاك ، جعل غازي يخشى أن يكون ما أقدم عليه ابن المقدم مكيدة عليه ليعبر الفرات إلى دمشق فيمنع عنها ، وعندئذ يقصده ابن عمه من وراء ظهره ، فلا يمكنه الثبات فيهلك (٣٥٧) . وراسل غازي الملك الصالح وأقره على ما بيده ، ومكث الملك الصالح بحلب محجوراً عليه تحت يد سعد الدين كمشتكين (٣٥٨) .

وأمام هذه التطورات عدّل أمراء دمشق موقفهم من صلاح الدين ، ودعوه إلى الحضور إلى دمشق لتسلمها ، فبادر صلاح الدين إلى ذلك على الفور وسار إلى بلاد الشام (٣٥٩) .

وقد كان الفرنج من ناحية أخرى أرادوا استغلال تلك الفرصة التي أعقبت وفاة نور الدين ، وما صاحبها من اختلاف في الكلمة ، فخرج عموري ملك بيت المقدس لاسترداد بانياس (٣٦٠) ، وصمدت المدينة الباسلة

(٣٥٦) التاريخ الباهر ص ١٧٦ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٨ والنوادر السلطانية ص ٨١ .

(٣٥٧) التاريخ الباهر ص ١٧٦

(٣٥٨) نفس المصدر ص ١٧٦

(٣٥٩) نفس المصدر ص ١٧٦

(٣٦٠) Stevenson, The crusaders in The East, p. 213

وبانياس . اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها وأنها ، وهي على مرحلة ونصف من =

للحصار مدة أسبوعين في الوقت الذي خرج فيه ابن المقدم على رأس جيشه من الدماشقة دفاعاً عن المدينة (٣٦١)، وكان ما فعله ابن المقدم أن هدد الفرنج بصلاح الدين « وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم ، وأنه قد عزم على جهادهم (٣٦٢) »، ثم عرض عليهم ترك بانياس في مقابل أموال يحصلون عليها ، وأن يطلق لهم أسراهم ، وتمت على هذا الأساس المصالحة بينها (٣٦٣).

وعندما بلغت تلك الأنباء صلاح الدين أنكر عليهم ذلك التصرف ، واستصغر أمرهم ، وعلم ضعفهم ، وحوّل ذلك إلى خطابات تمتلئ بالتوبيخ واللوم إلى جماعة من الأعيان ، وكان من تلك الخطابات خطاب من إنشاء القاضي الفاضل إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عسرون (٣٦٤)، يبين فيه أنه قد اهتم لقصد الفرنج لبانياس وأنه خرج لتأديبهم « ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة ، وإطلاق الأسارى » ثم قال له : « وسيدنا الشيخ أول من جرّد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد ، وقام في سبيل الله قيام من يقط عادية من تعدّى وتمرد (٣٦٥) ».

= دمشق من جهة الغرب ببيلة إلى الجنوب والصبية اسم لقلعتها وهي من الحصون المنيعة ، وبانياس في لحف جبل الثلج وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالغمامة لا يعدم منه صيفا ولاشتاء .
تقويم البلدان ص ٢٤٨

(٣٦١) Michaud, histoire des croisades, vol 2 P, 248 .

(٣٦٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٩ .

(٣٦٣) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٥٨٩ ومفرج الكروب ج ٢ ص ٧ .

(٣٦٤) هو أبو سعد عبد الله بن أبي انسرى محمد بن هبة الله بن مطهر بن على بن أبي عسرون ابن أبي السرى التميمى الحديثى ثم الموصلى ، الفقيه الشافعى الملقب شرف الدين ، كان من أعيان الفقهاء ، وفضلاء عصره ، ومن سار وانتشر ذكره ، وتعين بالشام ، وتقدم عند نور الدين صاحب الشام ، وبنى له المدارس بحلب وحماه وحمص وبعليك وغيرها ، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحران وغيرها من ديار بكر . ثم عاد إلى دمشق في سنة ٥٧٠هـ ، وتولى القضاء بها في سنة ٥٧٣ هـ . ثم عمى في آخر عمره قبل موته بعشر سنين . وفيات الأعيان ج ٣ ص ٥٤ .

(٣٦٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٩ .

وهكذا بدأ صلاح الدين يعد العدة للتدخل الفعلي لوضع حد لتلك المهزلة التي أصبحت تعاني منها أملاك نور الدين في بلاد الشام نتيجة لضعف القائمين بأمرها ، واختلاف كلمتهم ، وخططاً لذلك الأمر تخطيطاً سياسياً بارعاً ، فأرسل كتاباً - إلى الأوصياء بإشارة القاضي الفاضل وكلماته (٣٦٦) جاء فيه : « إن الملك العادل « نور الدين » لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أويثق إليه مثل ثقته بى لسلم إليه مصر ، التى هى أعظم ممالكة ، وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده ، والقيام بخدمته سوى ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي ، وابن مولاي دونى ، فسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه ، وإهمال أمر الملك الصالح ، ومصالحه ، حتى أخذت بلاده (٣٦٧) » .

وكذلك أرسل صلاح الدين إلى الخلافة فى بغداد يصور لها الموقف فقال : « وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيفون بها الأطراف الاسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمرء الدولة النورية قد سجن كبارهم ، وعوقبوا وصدروا ، والمهاليك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور ، وجعلوا للقيام لا للعود فى المجلس المحصور ، قد مدوا الأيدي والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا ، ويجعلهم لظهره سندا ، وعلمنا أن البيت المقدس لم يتيسر إن لم تتيسر الأسباب لفتحها ، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم لقلعه ، وإلا نبتت عروقه . . . وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة

(٣٦٦) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٣

(٣٦٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٩٠ .

جامعة ، واليد قادرة ، والبلاذ قريبة ، والغزوة ممكنة » ثم يقول : « والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاذ ، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ماتطيقه العهاد ، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا ، وسيوف عساكرنا (٣٦٨) » .

وهكذا ظهر صلاح الدين بمظهر المدافع عن حوزة الاسلام وعن مولاہ ابن مولاہ لدى الأمراء والأوصياء والعلماء والفقهاء والخلافة ، وأمام الرأي العام (٣٦٩) .

وعلى الجملة ، كان المسرح السياسي آنذاك قد تهيأ لاستقبال صلاح الدين ، ولذلك فإنه عندما استدعاه ابن المقدم وأمراء دمشق - كما أشرنا - إلى التقدم إلى دمشق وتسلمها بعد أن أدركوا حرج موقف دمشق وأنها باتت في خطر ، وخشوا أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح ، وأن يعاملهم سعد الدين بما عامل به بنى الداية لاسيما وأن سيف الدين غازي الثاني لم يجيهم إلى طلبهم باستلام دمشق منهم (٣٧٠) - « طار صلاح الدين إليهم (٣٧١) » .

توجه صلاح الدين إلى دمشق :-

كان صلاح الدين قد تخلص من متاعبه الداخلية ، وقرّر قواعد دولته الحربية في البر والبحر ، وذلك قبل نهاية سنة ٥٦٩ هـ (٣٧٢) ، وأصبح في استطاعته بسط سلطانه على بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ليخلق دولة سورية مصرية إسلامية موحدة ، وذلك حتى يواجه المسلمون قوى الفرنج

(٣٦٨) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(٣٦٩) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٤ و Lane-Poole, Saladin, P. 137 .

(٣٧٠) الكامل ج ٩ ص ١٣١ وانظر التاريخ الباهر ص ١٧٦ .

(٣٧١) حقائق الأخبار ج ٢ ص ١٥٢ .

Bernard Louis, The arabs in history, P. 152 (٣٧٢)

صفاً واحداً متراصاً (٣٧٣)، وقد صرح صلاح الدين بذلك لدى خروجه إلى بلاد الشام حيث قال : إنا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم (٣٧٤) .

وقد دخل صلاح الدين دمشق ، فاستقبل فيها استقبالاً حسناً ، وقضى الليلة التي وصل فيها في دار أبيه المعروفة بالعقيقي ، وفي الصباح سلم من دمشق من الأمراء المدينة إليه كما تسلم قلعها (٣٧٥) ، واستقر صلاح الدين بدمشق دون أن تشق عليه عصا (٣٧٦) ؛ وقد قابل صلاح الدين أهل دمشق بنثر الدراهم والدنانير عليهم ، وأظهر صلاح الدين ولاءه للملك الصالح إسماعيل فلم يقع خطبته وقال : « إني إنما جئت لأخدم مولاي وابن مولاي ، وأسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه (٣٧٧) » كما أنه جاء ليحفظ « ماله من المصالح وتدبير ملكه ، فهو أحق بصيانة حقه (٣٧٨) » .

ومنذ أول يوم وطئت فيه قدما صلاح الدين دمشق كان قد حدد الهدف من وراء ذلك في أمرين هما : استرداد أملاك الملك الصالح التي استولى عليها سيف الدين غازي الثاني أتابك الموصل في الجزيرة ، وجهاد الفرنج لتحرير الأرض وقد بادر صلاح الدين بتنفيذ سياسته حتى يعيد الجبهة الإسلامية المتحدة إلى سابق عهدها ، بحيث تمتد من شمال العراق إلى الشام فمصر (٣٧٩) .

وكان صلاح الدين يعتمد إلى حد بعيد على الرأي العام في تأييده ، وتأييد تحركاته ، وفي سبيل الفوز بذلك التأييد « نشر علم العدل

(٣٧٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٢ .

(٣٧٤) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨ .

(٣٧٥) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥٦ .

(٣٧٦) النوادر السلطانية ص ٨٢ .

(٣٧٧) التاريخ الباهر ص ١٧٧ .

(٣٧٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٢ .

(٣٧٩) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٣ .

والاحسان ، وعفى آثار الظلم والعدوان ، وأبطل ماكان الولاة استجدوه من القبائح والمنكرات ، والمؤن والضرائب والمحرمات (٣٨٠) .

على أن استيلاء صلاح الدين على دمشق قد ساء من بحلب : الملك الناصر وسعد الدين كمشتكين وغيرهما ، فأرسلوا إلى صلاح الدين قطب الدين ينال بن حسان يحمل رسالة تمتلىء بالتهديد والتخويف قالوا له فيها : « هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا ، والرماح التي حوت بها قصور المصريين على أكتافنا ، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك ، وعمّا تصدّيت له تصدك ، وأنت فقد تعدّيت طورك ، وتجاوزت حدّك ، وأنت أحد غلمان نور الدين ، ومن يجب عليه حفظه في ولده (٣٨١) » ، وقد قابل صلاح الدين ابن حسان هذا بعد وصوله بثلاثة أيام ، وضرب صفحاً عما يحمله من تهديد ، وأجابه بقوله : « يا هذا ، اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين (٣٨٢) » ، وتناول ابن حسان عليه ، وردد وجهة نظر أمراء حلب حيث قال : « إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك ، ونحن لانطاوعك على ذلك ، ودون ماترومه خرط القتاد ، وفَتّ الأكباد ، وإيتام الأولاد (٣٨٣) » .

وهكذا تبدت نيات القائمين على الأمور في حلب ، وأدرك صلاح الدين ألا مناص من خوض القتال :

وقد بدأ صلاح الدين بقصد الشام الأسفل ، وتوجه إلى حمص فأخذها في ١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ / ١٠ ديسمبر ١١٧٤م ، ولم يشتغل بقلعتها (٣٨٤) التي امتنعت عليه ، وتركها إلى حين ، ثم توجه بعد ذلك إلى

(٣٨٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ .

(٣٨١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٧ .

(٣٨٢) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٠٧ .

(٣٨٣) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٠٧ .

(٣٨٤) النوادر السلطانية ص ٨٢ والكامل ج ٩ ص ١٣١ .

مدينة حماه فملكها في جمادى الآخرة (٣٨٥)، ومنها أرسل صاحبها جرديك رسولاً بينه وبين من بحلب ، فقبض عليه أصحابها ووضعوه في الجب مع بنى الداية (٣٨٦).

توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى حلب ، وحصرها في ٣ جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فرحل عنها إلى حماه ، ثم إلى حمص التي كان الفرنج حاصروها بناء على استعانة أصحاب حلب بهم ، فرحلوا عنها ، وتمكن صلاح الدين من احتلال قلعة حمص التي كانت قد استعصت عليه وذلك في ٢١ شعبان ، ثم استولى على بعلبك بعد تأمين واليها وأهله ، وبذلك « صار أكثر الشام بيده (٣٨٧) ».

وقد استشعر الزنكيون خطر صلاح الدين عليهم ، وكان لا بد أن يتحدوا في مواجهة ذلك الخطر ، فراسلوا سيف الدين غازي الثاني يستنجدونه على صلاح الدين ، وأراد سيف الدين غازي أن يجمع لذلك جنوده ، وجنود أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار ، ولكن عماد الدين رفض التعاون مع أخيه ، حيث كان صلاح الدين أطمعه في الملك لأنه هو الأخ الأكبر (٣٨٨). فأرسل سيف الدين غازي جيشاً لمؤازرة الحلبيين ، في حين سار في جيش آخر لحرب أخيه ، وتمكن صلاح الدين من هزيمة الجيش الحلبي والجيش الموصل الذي جاء لنجده . وجرت مفاوضات بين صلاح الدين وسيف الدين غازي ولكنها وصلت إلى طريق مسدود ، وأرسل سيف الدين غازي جيشاً قوياً مع أخيه عز الدين زلفندار لمؤازرة الجيش الحلبي في حربه مع صلاح الدين وزحف جيش الحلفاء على حماه ، ورأى صلاح الدين أن يقنع في هذه المرحلة بامتلاك دمشق ، منتظماً

(٣٨٥) الكامل ج ٩ ص ١٣٢

(٣٨٦) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٨ .

(٣٨٧) الكامل ج ٩ ص ١٣٢

(٣٨٨) نفس المصدر ج ٩ ص ١٣٣

فيها إلى الملك الصالح إسماعيل (٣٨٩)، فراسل سيف الدين غازي يعرض له التنازل عن حمص وحماه ، ورأى سيف الدين غازي في عرض صلاح الدين فرصة لفرض شروطه وقال له : « لا بد من تسليم جميع ماأخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر (٣٩٠) » ، « وكان القضاء يجري إلى أمور وهم لايشعرون (٣٩١) » ، ودارت رحى معركة طاحنة عند قرون حماه (٣٩٢) في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ، ولم يستطع جيش الحلفاء الوقوف في وجه صلاح الدين وانهزم لایلوی أخ « على أخيه » (٣٩٣) ، وكان من أسباب الهزيمة جهل عز الدين أخى سيف الدين بفنون القتال (٣٩٤) ، وكسب صلاح الدين في هذه المعركة غنائم كثيرة فإذا أضفنا إلى ذلك في هذه المرحلة كسب صلاح الدين للرأى العام الشامى الذى بدأ يرى فيه رجلا يعمل لصالح المسلمين ، وجمع كلمتهم ، وذلك حين أرسل مبعوثه جرديك إلى الحلبيين فاعتقلوه ، وألقوه في الحب ، وكذلك حين عرض التنازل لهم عما وراء دمشق ، وكان الرأى العام يرقب تلك التطورات بيقظة تامة ، مؤيدا صلاح الدين في كل خطواته (٣٩٥) .

هذا ، وقد تبع صلاح الدين المنهزمين الى أبواب حلب ، وحاصرهم بها ، وبدأ يعيد حساباته ، ووجد أن الموقف في صالحه : أمام الرأى العام

(٣٨٩) مفرج الكروب ج ٢ ص ٩٢ والكامل ج ٩ ص ١٣٣ .

(٣٩٠) النوادر السلطانية ص ٨٣ والكامل ج ٩ ص ١٣٣ .

(٣٩١) النوادر السلطانية ص ٨٣ .

(٣٩٢) قرون حماه : مدينة كبيرة بسوريا على جانب نهر العاصى بها قلعة حصينة .

النوادر السلطانية ص ٨٣ حاشية ١

(٣٩٣) النوادر السلطانية ص ٨٣ والكامل ج ٩ ص ١٣٣ .

(٣٩٤) ويروى ابنا الأثير أنه لم يثبت غير عز الدين هذا بعد انهزام أصحابه ، فقال صلاح الدين : « إما أن هذا أشجع الناس ، أو أنه لايعرف الحرب ، وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا ، فأزالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة » .

الكامل ج ٩ ص ١٣٣

(٣٩٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٣٧

الشامى ، وأمام الخلافة نفسها ، التى كان يطالها بخطواته أولاً بأول ، فأقدم على خطوة حاسمة حيث قطع خطبة الملك الصالح ، وأزال اسمه عن السكة فى بلاده (٣٩٦) ، واسقط فى أيدي الحلبين المحاصرين ، فراسلوه فى طلب الصلح على أن يكون له مايبده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ، فوافق صلاح الدين على ذلك الصلح ، الذى تضمن كذلك أن تساعد حلب صلاح الدين فى وقت الخطر ضد الفرنجة العدو المشترك ، ألا يغير صلاح الدين الدعاء للملك الصالح على جميع منابر البلاد التى تحت يده ، وأن تكون السكة باسمه (٣٩٧) .

ورحل صلاح الدين عن حلب فى العشر الأول من شوال سنة ٥٧٠ هـ ووصل إلى حماه ، وفيها وصلت إليه خلع الخليفة العباسى المستضىء بالله برسله «ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود ، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام» (٣٩٨) ، وذلك فى ذى القعدة سنة ٥٧٥ هـ (٣٩٩) .

وهكذا يكشف انتصار صلاح الدين فى قرون حماه النقاب عن حقيقة

(٣٩٦) الكامل ج ٩ ص ١٣٣ .

(٣٩٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٣٩ .

(٣٩٨) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٣٩ وتاريخ الحروب الصليبية / رنسيان ج ٣ ص ٦٥٨ وانظر .

. Grousset, Histoire des croisades. T. 2, PP. 760- 761.

. Lone- Poole, Saladin, P. 181

وفى هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبى :

وياأيا الملك العزيز فضله
كفى أمير المؤمنين شرفاً
طارحك الود على شحط النوى
أولاك من لباسه زخرفة
ناسبت الروض سنا وهجة
لقد غدوت بالعلا مليا
أنك أصبحت له وليا
فكنت ذاك الصادق الوفيا
لم يولها قبلك آدميا
حتى حكته رونقاً وزيا

الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٤٠

(٣٩٩) روضة الأبرار قرة جلى ص ٢٤١ .

موقفه (٤٠٠) . على أن الموصل التي انهزم جيشها مع المهزمين والتي كانت بعيدة عن سهام صلاح الدين أبت الاعتراف بالصلح الذي وقعه الحلبيون الذين كانوا في أخرج مواقفهم ، وجمع سيف الدين غازى الثانى جيشاً ضخماً من بلاد الجزيرة وديار بكر ، وانضم إليهم كمشتكين بقواته الحلبية ، ناقضا بذلك المعاهدة التي لم يكن مدادها قد جف بعد (٤٠١) : وقد تكون لهم جيش من أكثر من عشرين ألف فارس ، وقد استغرقت تلك التعبئة منهم وقتاً طويلاً ، أتاح لصلاح الدين الفرصة حتى وصلته نجدة مصرية من أخيه العادل وقد وصف ابن شداد حالة الاستعداد على الجانبين فقال : « والسultan قد أنفذ في طلب العساكر من مصر ، وهو يترقب وصولها ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم ، وهم لا يشعرون أن في التأخير تدبيراً حتى وصل عسكر مصر » (٤٠٢) .

ثم كان اللقاء بين صلاح الدين ، وأعدائه المتحالفين في ١٠ شوال سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م ، ودارت رحى معركة طاحنة بين الفريقين كانت أقوى من اللقاء الأول ، وتمت الهزيمة على جيش المتحالفين (٤٠٣) ، وأصيب بخسائر فادحة ، وقد فر سيف الدين غازى الثانى من ميدان المعركة ، مخلصاً وراءه حتى متعلقاته الخاصة التي اتخذها صلاح الدين وسيلة للتشجيع عليه ، فأرى الناس بيت شرابه ، وسراجه الخاص ، وما كان به من آلات الصيد والطرب والخمور ، والجوارى والمحظيات، والمغنين والمغنيات ، وقد أرسل صلاح الدين إلى سيف الدين غازى بأقفاص طيوره المغردة ، وأرسل إليه يقول : « عد إلى اللعب بهذه

(٤٠٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٦ .

(٤٠١) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٧ .

(٤٠٢) النوادر السلطانية ص ٨٥ ورواية صاحب الروضتين : « وهم لا يشعرون أن في التأخير تدميراً » .

الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٥٠

(٤٠٣) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٧٨ .

الطيور ، فإنها ألذمن مقاساة الحرب » (٤٠٤) .
ومرة أخرى لم يقتصر النصر على ميدان الحرب بل تعداه إلى الرأى العام
الشامى الذى هاله ما رأى من انحراف القادة المناوئين لصالح الدين ،
وماهم غارقون فيه من الضلالات ، وتزايد التفاف الناس حوله ، وأيده
العلماء فى جهوده (٤٠٥) .

ثم إن صلاح الدين سار إلى بزاعة (٤٠٦) ، فاستولى عليها ، كما استولى
على مدينة منبج (٤٠٧) وقلعتها بعد طول مقاومة من صاحبها قطب الدين
ينال بن حسان وقد أسر صلاح الدين ينال بن حسان ثم أطلقه (٤٠٨) ،
ثم استولى على قلعة عزاز (٤٠٩) فى ٤ ذى القعدة ، وكانت من أمنع القلاع
وأحصنها (٤١٠) ، وكانت عزاز تمثل خطورة على صلاح الدين حيث كانت
قاعدة لتجمع الجيوش المتحالفة من عسكر حلب وفرنج أنطاكية (٤١١)

(٤٠٤) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٥١ ، ٦٥٢ .

(٤٠٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٨ .

(٤٠٦) بلدة من أعمال حلب فى وادى بطنان بين منبج وحلب ، بينها وبين كل واحدة منها مرحلة .

معجم البلدان ص ٤٠٩

وهى طيبة الثرى واسعة الذرى ، تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ، وفى أعلاها قلعة كبيرة
حصينة .

رحلة ابن جبير / تحقيق نصار ص ٢٣٧

وانظر الدر المنتخب ص ٤٧ .

(٤٠٧) منبج إحدى بلاد الشام ، وهى فى برية ، وهى خصبة كثيرة الفنى ، ويحف بها سور عتيق

ممد للغاية والانتها ، ولها قلعة حصينة فى جوفها تنقطع عنها وتنحاز منها رحلة ابن جبير / تحقيق

نصار ص ٢٣٧ و تقويم البلدان ص ٢٧٠ .

(٤٠٨) النوادر السلطانية ص ٨٧ والكامل ج ٩ ص ١٣٧ ، وكان ينال بن حسان هذا شديد

البغض لصلاح الدين . المختصر ج ٣ ص ٥٨ .

(٤٠٩) بلدية فيها قلعة وهارستاق شمالي حلب ، بينها يوم ، وكانت قديماً تعرف بتل عزار .

الدر المنتخب ص ١٦٨ ومراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٣٧ .

(٤١٠) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٨ وقره جلى ص ٢٤١

(٤١١) Lane- Poole, Saladin, P. 211

وبذلك قطع الجوار بين الفرنج والحلبين . ثم تقدم صلاح الدين إلى حلب لفتحها ، وطرده الأمراء المتآمرين منها ، وإطلاق قادة نور الدين الذين كانوا قد أودعوا المعتقلات ، وتم له حصار حلب في منتصف ذي الحجة (٤١٢) ، وقارب صلاح الدين الاستيلاء عليها ، وأدرك الحلبيون أن المدينة على وشك السقوط ، فلجأوا إلى حيلة علّما تنجيهم ، ولعلمهم أرادوا أن يكسبوا جولة واحدة أمام الرأي العام فأخرجوا رسولا منهم إلى صلاح الدين ابنة لنور الدين محمود صغيرة تسمى الخاتون (٤١٣) تطلب منه الكف عن محاربة حلب ، وأن يبها قلعة عزاز « وكانوا قد علموها ذلك » ، فسلمها إليهم (٤١٤) ، ونجح صلاح الدين أمام الرأي العام مرة أخرى حينما رعى ماكان لنور الدين في عنقه .

وتم الصلح مع الملك الصالح على أن له (أى صلاح الدين) من حماه ومافتحه إلى مصر ، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية (٤١٥) ، وكان الصلح عاما لهم وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتب في نسخة اليمين أنه : « إذا غدر منهم واحد وخالف ، ولم يف بيا عليه وحالف ، كان الباؤون عليه يدا واحدة وعزيمة متعاقدة ، حتى يفىء إلى الوفاء والوفاق ، ويرجع إلى مرافقة الرفاق » (٤١٦) .

ولنترك الآن هذه الجبهة التي أثبت فيها صلاح الدين كفاءته وتفوقه على الزنكيين سياسياً ودعائياً وحربياً ، حتى وقف على أبواب حلب ، لنرى ماذا كان موقف الباطنية والفرنج منه ، وموقفه منهم في هذه المرحلة .

(٤١٢) المختصر أخبار البشر ج ٣ ص ٥٨ مكتبة

(٤١٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩

(٤١٤) الكامل ج ٩ ص ١٣٧ والمختصر ج ٣ ص ٥٨ .

(٤١٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ .

(٤١٦) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ ورنسيان ج ٣ ص ٦٦٠

صلاح الدين والباطنية (٤١٧):-

وأول راج عن نشاطهم أن عمارة اليمنى ورفاقه ، اتصلوا بهم عقب اعلان سقوط الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وكتبوا سناناً (٤١٨) صاحب الحشيشية (٤١٩) ليدبر كميناً لاغتيال صلاح الدين على يد بعض الفدائية (٤٢٠) سواء في الشام أو في مصر ووعدوه بالمنح والعطايا

(٤١٧) وهم من غلاة الشيعة ، وأخطر طوائفهم طائفة الحشيشية ، وفي ذلك الوقت كانوا يسيطرون على عدة قلاع حصينة ، فيها كل وسائل الراحة والرفاهية ، وقد صار بناؤها على رؤس الجبال بحيث ازدادت قوتها الدفاعية قوة على قوة ، وكان زعيمهم يسكن قصر الكهف ، وكانوا يسمونه الشيخ .

قلعة الموت ص ١٦١ ولويس التاسع في الشرق الأوسط ص ٢٠٩

ويقسم ابن ميسر الاسماعيلية إلى أقسام : الذين بالشام منهم يقال لهم « الحشيشية » ومن كان بالموت يقال لهم : الباطنية والملاحدة ، ومن كان بخراسان يقال لهم : « التعليمية » ، وكلهم إسماعيلية . أخبار مصر ج ٢ ص ٦٨

(٤١٨) ويصفه المقرئى أنه « صاحب قلاع الاسماعيلية ، ومقدم الطائفة الباطنية ، وإليه تنسب الطائفة السنانية » السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٢ .

ووصفه ابن جبير الذى جاز بقلاع الحشيشية بأنه : شيطان من الانس يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل خيالات ، وموه عليهم باستعمالها ، وسحرهم بمحالتها ، فاتخذوه إلهاً يعبدونه ، ويذبلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامتنال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردى من شاهقة جبل فيتردى ، ويستعجل في مرضاته الرضى .

رحلة ابن جبير / تحقيق نصار ص ١٤٣

(٤١٩) وذلك لدأبهم على تدخين الحشيش أو مضعه .

خلاصة تاريخ العرب / سيديو ص ١٣٨ ،

وانظر Kerr, The crusades, Bernard Louis, The arabs in history P. 149

(٤٢٠) وقد وصف الرحالة ماركبولو الذى مر بالموت نفسها في سنة ١٢٧١ م كيف كان زعيم الاسماعيلية يعد أتباعه ليطلب منهم بعد ذلك ما شلوه حيث يجتهدهم بإداة الحشيش ثم يحملهم إلى حديقة في جماعات صغيرة ، فإذا ما أفاقوا اعتقدوا أنهم في جنة الفردوس ، فإذا ما أفاقوا اعتقدوا في قدرته ، وتفتانوا في خدمته وطاعته .

Le Livre de Markabole PP.97- 100

وانظر قصة الحضارة و ل . ديورانت المجلد الرابع ص ٣١٧

الجزيلة (٤٢١)، وقد كان القتل بالنسبة للحشيشية امتداداً لتحركهم السياسي حيث يتولون اغتيال من يقع عليهم اختيارهم الغادر (٤٢٢)، وكان عداؤهم للمسلمين أكثر من عداوتهم للفرنج ، على أساس أنهم يجاربون أهل السنة نيابة عنهم (٤٢٣).

ومن الثابت أن الباطنية فزعوا لسقوط الخلافة الفاطمية ، وانتصار المذهب السني في مصر ، وأحسوا بالخطر الذي هددهم بالشام (٤٢٤)، ولذلك أرادوا إجراء تحالف بينهم بين الفرنج بعد أن اعتقدوا أنهم أقل خطراً عليهم وعلى كيانتهم من نور الدين محمود (٤٢٥). وأرسل راشد الدين سنان برسله من أجل ذلك ، ويقال إنه عرض فيه على عمورى رغبته في التحول إلى المسيحية ، وإن كان تصديق ذلك بعيد (٤٢٦) وفي سنة ١١٧٥ / ٥٧٠م تآمر أصحاب حلب مع الباطنية على صلاح الدين (٤٢٧) بعد أن استولى صلاح الدين على حمص وحماه ، ووقف على مشارف مدينة حلب ، فراسلوا سناناً زعيم الحشيشية ، وعيّنوا للباطنية

. The Legacy of persia, P, 85 (٤٢١)

. (٤٢٢) الدولة البورية ص ١٠٠ ، ١٠١ وانظر .

. Bernard Louis, The arabs in history P. 149

. Michaud, histoire des croisades P 310

. Michaud, histoire des croisades, P. 329 (٤٢٣)

(٤٢٤) تاريخ الحروب الصليبية / نسيان ج ٣ ص ٦٤١ وتراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص

٥٩

(٤٢٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٣٢ .

(٤٢٦) نسيان ج ٣ ص ٦٤١ والحركة الصليبية ج ٢ ص ٤٣٧ .

(٤٢٧) وقد يبدو غريباً أن الوحيد الذى أبقى عليه الحشيشية هوريتشارد قلب الأسد ، وذلك لأنهم رغبوا عن تذليل العقبة أمام منافسهم صلاح الدين .

. Bernard Lois The arabs in history, P. 149

بل يقال انها قتلت كورنارد دى مونتفرات بتحريض ريتشارد قلب الأسد في سنة ٥٨٨ .

قصة الحضارة ج ٢ المجلد الرابع ص ٣١٧

ضياًعاً ، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً (٤٢٨) . فأرسل سنان جماعة من الفداوية المشهورين بفتكهم ، وشاء حظهم العاثر أن يوجد في عسكر صلاح الدين الأمير ناصح الدين خمارتكين صاحب قلعة بوقبيس (٤٢٩) الذي تعرف عليه « لأنه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم (٤٣٠) » ، فعرض لهم فقتلوه ، وأثخنوا بالجراح من حاول الدفاع عنه ، ثم جرى أحدهم إلى حيث صلاح الدين مزماً قتله ، شاهراً سكينه ، ولكن أحد رجال صلاح الدين ، وهو طغريل أمير جاندار احتفظ بشيائه ، ورباطة جأشه ، والرجل يتقدم إلى صلاح الدين ، فأطاح بسيفه رقبته ، وهكذا أنقذ صلاح الدين من خطر ذلك الباطني ، أما بقية زملائه من الباطنية فقد نشروا الذعر في عسكر صلاح الدين ، وقتلوا بعضاً منهم ، حتى تم قتلهم في النهاية (٤٣١) .

ولم يقف نشاط الباطنية ضد صلاح الدين عند محاولة قتله على حلب سنة ٥٧٠ هـ فتكررت المحاولة في سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م في الحادي عشر من ذي القعدة ، وكان ذلك بناءً على تأمر أصحاب حلب معهم مرة ثانية حيث كتبوا إلى سنان يرغبونه بالأموال ، ويبدلون له الوعود حتى يرسل من يفتك بصلاح الدين (٤٣٢) أثناء حصاره لقلعة عزاز ، وقد استجاب سنان لهذا الطلب ، وسلك هذه المرة مسلماً أكثر حيلة مما سلكه في محاولته الأولى (٤٣٣) فأرسل بعض الفداوية في زى الجنود المصرية ، وهكذا تيسر

(٤٢٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦١٣ وانظر

Brokelman, history of Islamic Peoples, P. 226

(٤٢٩) حصن يقابل قلعة شيزر .

(٤٣٠) الكامل ج ٩ ص ١٣٢ .

(٤٣١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦١٤ ورنسيان ج ٣ ص ٣٥٧ والتاريخ الحربى لصلاح الدين

ص ٦١ - ٦٣ .

وتراجم اسلامية ص ٥٩

(٤٣٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٥٩ .

(٤٣٣) التاريخ الحربى لصلاح الدين ص ٧٤ ، ٧٥

لهم الاندساس في صفوف المقاتلين ، وإمعاناً في تحايلهم حتى لا يكشف أمرهم ، حاربوا مع جند صلاح الدين وأحسنوا البلاء في ضرب أعدائه ، وصاروا يترقبون الفرصة للفتك به (٤٣٤) . ولاحت لهم تلك الفرصة عندما توجه صلاح الدين إلى خيمة الأمير جاولي الأسدي « لمشاهدة الآلات ، وترتيب المهمات ، وحض الرجال ، والحث على القتال (٤٣٥) » وبينما صلاح الدين في وسط رجاله وجنوده ، قفز أحدهم عليه ، وضربه في رأسه بسكينه ، ولكن السكين لم تؤثر في رأسه بفضل الزرد الذي كان صلاح الدين يحيط به فقلنسوته - حيث كان صلاح الدين يفعل ذلك خوفاً من الباطنية بعد نوبة حلب (٤٣٦) ، فقد منعت صفائح الحديد المدفونة في لمتة من تمكينه ، ومع ذلك فإن السكين خدشت خده ، وتمكن صلاح الدين منه وجذبه إليه وبرك فوقه حتى أتاها سيف الدين ياركوج فقط رأسى الحشيشي ، وكانت المؤامرة هذه المرة متكاملة بحيث إذا فشل حشيشي تلاه آخر ، ولذلك فإن حشيشياً آخر توجه نحو صلاح الدين فاعترضه الأمير داود بن منكلان من التقدم نحو صلاح الدين ، وتمكن الحشيشي من إصابته إصابة في جنبه مات منها بعد أيام ، وعندما فشل ذلك الثاني تقدم ثالث فقبض عليه الأمير علي بن أبي الفوارس ، وشل حركته من خلف ، ونادى علي من تولى قتله وقال : « اقتلوه ، واقتلونى معه » فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه ، فطعن بطن الباطني بسيفه « ومازال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً » ، ونجا ابن أبي الفوارس (٤٣٧) ، أما رابعهم فقد يئس بعد محاولة من سبقوه ، وفضل الفرار ، وخرج ناشراً سكينه في وجه كل من يقترب منه حتى تمكن منه بعض أصحاب الأمير شهاب الدين محمود خال صلاح الدين وقطعوه بسيوفهم (٤٣٨) .

(٤٣٤) الروضتين ج ١ ق ٢ ٦٦٠ وتراجم اسلامية ص ٥٩ .

(٤٣٥) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٥٨ .

(٤٣٦) قلعة الموت ص ١٦٥ .

(٤٣٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠ .

(٤٣٨) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠ .

هكذا نجا صلاح الدين بأعجوبة من تلك المؤامرة الأربعة (٤٣٩)، وهو لا يكاد يصدق ، وكان لهذا الحادث الثاني من الباطنية ضد صلاح الدين أثره عليه ، وعلى جنده ، فبدأ السلطان يحنط لنفسه ، ويحصن خيمته ، ونصب له في وسط سرادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام ، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه (٤٤٠)، بل يبدو أن ثمة بلبلة سرت في صفوف الجند بشأن حياته ، مما دفعه إلى أن يركب ليشاهدوه ، فسكن العسكر ، وعاد إلى خيمته (٤٤١)، وانهار بذلك مشروع سنان وحلفائه مرة أخرى (٤٤٢).

وتعدت الاضاعات حدود الشام - إلى مصر مما دفع صلاح الدين إلى الكتابة إلى أخيه العادل نائبه في مصر يطمئنه على سلامته ، ويأمره بمعاملة مروجى تلك الاضاعات بالحزم والشدة ، حتى لا تتاح الفرصة للاسماعيلية في مصر للقيام بثورة (٤٤٣)، وجاء في كتابه إلى العادل : « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم ينله من الحشيشى الملعون - إلا خدش ، قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها ، واندملت لساعتها ، والركوب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه ، وليس في الأمر بحمد الله ما يضييق صدرأ ، ولا ما يشغل سرأ (٤٤٤) » .

وكان الاعتداء على صلاح الدين نذيراً له بما يمكن أن يجيق به وبدولته من غدر الباطنية ومؤامراتهم (٤٤٥)، فعول على مهاجمة قلاعهم وسحق

(٤٣٩) التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين ص ٧٥ .

(٤٤٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠ .

(٤٤١) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠ .

(٤٤٢) تراجم اسلامية ص ٦٠ .

(٤٤٣) التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين ص ٧٦ .

(٤٤٤) نفس المصدر ص ٧٦ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠ .

(٤٤٥) تراجم اسلامية ص ٦٠ .

نفوذهم ، فسار إليهم في العام التالي ٥٧٢ هـ ، وحاصر مصياف أمتع قلاعهم والتي فيها مركز زعامتهم ، ونصب على الحصن مجانيقه ، وتمكن من قتل عدد كبير منهم ، وأسر عدداً آخر ، كما ساق أبقارهم ، وخرّب ديارهم مما ألجأهم إلى تشفيح خال صلاح الدين شهاب الدين محمود ابن تكش صاحب حماه فيهم لديه ، بحكم الجيرة بينهم وبين شهاب الدين فشفع فيهم ، وقبل صلاح الدين شفاعته بعد أن قام بتأديبهم ، وكان السلطان قد رأى أن الفرنج قد يستغلون ابتعاده عن الشام الأعلى فيهاجموه أو يظفروا منه بطائل (٤٤٦).

وقيل إن شفاعته خال صلاح الدين في الباطنية كانت نتيجة تهديد من سنان الذي أرسل إليه « إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم ، وسأل الصفح عنهم (٤٤٧) ».

كما يروى رنسيان أن سناناً لم يكن موجوداً لدى مهاجمه صلاح الدين لحصن مصياف ولكنه عجل بالعودة ، ويذكر أنه كان بوسع عساكر رجال صلاح الدين أسره لولا أن قوة خفية تنطوى على شيء من السحر منعتهم من ذلك ، وأن الأحلام المزعجة كانت تتاب صلاح الدين كما أنه عثر في فراشه عندها هب فجأة على كعك ساخن ، من نوع لا يجبزه إلا الحشيشية ، كما يوجد خنجراً مسموماً ، وقصاصة ورق بها أشعار تنطوى على التهديد والوعيد ، وأن صلاح الدين اعتقد أن سناناً نفسه هو الذي كان بخيمته ، وأن صلاح الدين انهارت أعصابه ، وأرسل إلى سنان يطلب منه أن يغفر له ذنوبه مع الوعد بالألا يتعرض للحشيشية بأذى مقابل بذل الأمان له ، فعفا عنه شيخ الجبل (٤٤٨).

ومثل ذلك لا يمكن تصديقه ، ولا يتفق مع شخصية صلاح الدين ،

(٤٤٦) الروستين ج ١ ق ٢ ص ٦٧٠ و Brokelman, history of Islamic People P.

227

(٤٤٧) الكامل ج ٩ ص ١٣٩ .

(٤٤٨) رنسيان ج ٢ ص ٦٦١

ولو تيسرت مثل تلك الفرصة لشيخ الجبل أو أحد أتباعه ماتردد لحظة في الفتك بصلاح الدين بدلاً من أن يخلف له كعكاً وأشعاراً تنطوى على التهديد .

والحق أن صلاح الدين اكتفى بما حققه في قلاع الاسماعيلية ، ورأى أن القضاء التام على مثل هؤلاء القوم قد يتطلب وقتاً أطول هو بلاشك في صالح الفرنج الذين سيستغلون انشغال صلاح الدين بقتال الحشيشية وبعده عن الشام الأعلى ، فيصلون فيه ويجولون ، وقد كانت الأخبار وصلتة فعلاً أثناء حصار صلاح الدين لحصن مصياف بحدوث ذلك فعلاً حيث أغار الفرنج على جبهة الدفاع الواقعة بين دمشق وبعلبك وتصدى لهم الأمير محمد بن المقدم والى بعلبك وأسر منهم مائتى أسير أحضرهم إلى صلاح الدين ، وهو على حصار مصياف (٤٤٩) .

وقد كان للسلطان الظاهر بيبرس فيما بعد الفضل في القضاء على نفوذ تلك الطائفة حيث سير إليهم حملة مصرية في سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م حاصرت قلاعهم ، واقتحمت قلعة مصياف أمنع حصونهم ومقر زعامتهم ، وخربت قلاعهم ، ومزقت قواهم كل ممزق ، وبذلك انهار نفوذهم في الشام ، كما انهار في فارس قبل ذلك بقليل .

واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطيرة بعد ذلك إلى شرادم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤمرات (٤٥٠) ، وقد تخلى الحشيشيون في عهد بيبرس عن قلاعهم ليقطعهم بيبرس بعض الأراضى المصرية ليستوطنوها ، ثم إنه تيسر له بعد ذلك استخدامهم في قضاء أغراضه (٤٥١)

(٤٤٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ والكامل ج ٩ ص ١٤٠ .

وانظر التاريخ الحربى في عهد صلاح الدين ص ٨٣

(٤٥٠) تراجم إسلامية ص ٦٠ وقلعة ألوت ص ١٦٦ وانظر تفصيلات أكثر في : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده / د سرور ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٤٥١) الظاهر بيبرس ص ٩٩

صلاح الدين والفرنج :-

كانت مصر قد تعرضت عقب وفاة نور الدين مباشرة ، وقبيل تحرك صلاح الدين إلى الشام وذلك في سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م - لهجوم فرنجي شنه وليم الثاني صاحب صقلية على الاسكندرية ، ولكن هذا الهجوم باء بالفشل ، وكان من أسباب فشله صمود أهل المدينة .

وفي بلاد الشام حاول عمورى ملك بيت المقدس استغلال فرصة الانقسام التى حدثت في المملكة النورية بعد وفاة نور الدين محمود ، وذلك ليسترد مدينة بانياس ، ودخل معه ابن المقدم في مفاوضات للصلح ، وهدده بالاستنجد بصلاح الدين وسيف الدين غازى الثانى مما يعرض الفرنج للهجوم من كل ناحية ، واضطر عمورى إلى الموافقة على الصلح ، ورفع الحصار عن بانياس ، وعاد إلى مملكته ، ورأينا أن هذه الموقف لم يعجب صلاح الدين ، وأنه استاء من القائمين بالأمر بعد تور الدين ، وأرسل إلى العلماء والقضاة بل وإلى الخليفة العباسى يبين لهم ما آل إليه الأمر في بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وقد وضح من مكاتبات صلاح الدين رغبته في توحيد الجبهة الاسلامية حتى تقوم بواجبها المرتقب في جهاد الفرنج .

وقد أصاب الذعر الفرنج نتيجة لتطورات الموقف بالنسبة لصلاح الدين ، ولتقدمه نحو الشام ، وخطورة ذلك على وجودهم ، وقد أعلن صلاح الدين صراحة أنه ماحضر الشام إلا لحمايته من الخطر الفرنجى ، وحتى يسترد أملاك الملك الصالح في الجزيرة من أتاك الموصل الذى استولى عليها .

وبعد استيلاء صلاح الدين على دمشق ، وتعيين أخيه سيف الاسلام طغتكين حاكما عليها باسم الملك الصالح اسماعيل ، تقدم صلاح الدين لمعاقبة كمشتكين الذى استبد بأمور حلب (٤٥٢)، واستولى صلاح الدين

على حمص ، وتقدم صوب حلب التي استنجدت بالفرنج ، كما استعانت بالحشيشية ، وقد رأينا ما كان من الحشيشية ، وما تم عليهم أما الفرنج ، فإن ريموند الثالث أمير طرابلس (٤٥٣) والوصى أيضا على عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة عموري (٤٥٤) ، كان مدركاً تماماً لخطورة صلاح الدين ، وخطورة الوحدة المصرية الشامية عليه (٤٥٥) ، وقد أتاح له الحلبيون الفرصة للتدخل كحليف لهم في هذا الصراع (٤٥٦) ، لا حبا في حلب وحماية أصحابها ، وإنما ليسد الطريق في وجه صلاح الدين (٤٥٧) .

وقد حاول ريموند الثالث أن يلجأ أولاً إلى تهديد صلاح الدين حتى يفك الحصار عن حلب ، معتقداً أن صلاح الدين في موقف لا يسمح له بمحاربة عدوين في وقت واحد ، وقال في رسالة إليه : « أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة » فأجابه صلاح الدين : « لست ممن يهرب بتألب الفرنج وهأنذا سائر إليهم » (٤٥٨) ، ولم يكتف صلاح الدين بإبداء

(٤٥٣) وكان ريموند هذا قد أسره نور الدين محمود على حارم سنة ٥٥٩ هـ ، وظل اثنتي عشرة سنة حيث أطلقه سعد الدين كمشتكين بعد أن اقتدى بهائة وخمسين ألف دينار وفكاه ألف أسير .

Stevenson, The crusaders in the East, P. 189 .

ووصفه ابن الأثير بأنه « كان عظيماً فيهم » في الفرنج ، من أعيان شياطينهم ،

الكامل ج ٩ ص ١٣٢

(٤٥٤) وقد توفي عموري في سنة ١١٧٤ م ، وصار ريموند الثالث وصياً على بلدوين الثالث BALDUIN III الذي كان طفلاً في الثانية عشرة من عمره والذي عرف ببلدوين الأبرص ، وظل ريموند الثالث وصياً على العرش مدة ثلاثة أعوام .

رنسيان ج ٢ ص ٦٥١ ، ٦٥٥

Stevenson, The crusaders in the East, PP 213- 214 .

Grousset, histoire des croisesdes. T2 P 539 (٤٥٥)

(٤٥٦) ولعل دور حلب في هذه المرحلة واستنجاها بالفرنج ضد المسلمين يعيد إلى الأذهان الدور الذي لعبته دمشق ، وأتابكها معين الدين أنر ضد عماد الدين زنكي ثم نور الدين محمود من التحالف مع الفرنج ضدما .

انظر في ذلك : الدولة البورية ودورها في عصر الحروب الصليبية

(٤٥٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٤ .

(٤٥٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦١١

استعداده لمجابهة الفرنج ، بل أمر بعض جيشه بالتوجه إلى أنطاكية ، والإغارة عليها كردُّ عملي على تحديات ريموند الثالث ، وتمكن من إحراز غنائم حسنة من الفرنج ، وأراد ريموند الثالث من جهته أن يرد على صلاح الدين بمثله ، فتوجه بقواته إلى حمص التي كان صلاح الدين استولى عليها منذ أمد قريب ، وسانده الحامية المرابطة بقلعة حمص التي لم تكن سقطت بعد في يد صلاح الدين ، وكان ريموند يهدف من وراء ذلك إلى قطع خط الرجعة على صلاح الدين إن لم يؤد هذا إلى عودته عن حلب حتى يدافع عن حمص (٤٥٩). ولم يجد صلاح الدين بُدًّا أمام ذلك الخطر من رفع الحصار عن حلب مرجئاً أمرها إلى كُرة أخرى ، وعاد إلى حمص لردِّ عادية ريموند الثالث ، ولم ينتظر ريموند الثالث لقاء صلاح الدين (٤٦٠) ، وانصرف إلى حصن الأكراد (٤٦١) مكتفياً بأنه أظهر للحلبيين قدرته على فك الحصار عنهم ، وأعرب كمشتكين عن شكره وامتنانه لحلفائه الفرنج ، فأطلق سراح رينالدشاتيون (٤٦٢) وجوسلين كورتيناى ، وسائر الأسرى المسيحيين ، بعد أن ضعفت أجسادهم في سجون حلب المظلمة (٤٦٣).

وقد أرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل في مصر يخبره بتأمر الحلبيين مع الفرنج ، وما حققه من نصر على الفرنج ، وإن لم يتم بينه وبينهم لقاء مباشر فقال : وقد أعلمنا المجلس أن العدو خذله الله ، كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم ، واستطالوا على الاسلام بعدوانهم ، وأنه خرج إلى

(٤٥٩) مصر والشام والصلبيون ص ١٢٦ .

(٤٦٠) رنسيان ج ٢ ص ٦٥٧ .

(٤٦١) طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٢٥٢ وحصن الأكراد قلعة حصينة مقابل حمص من غربها على الجبل المتصل بجبل لبنان ولها ريبض وهي على مرحلة من حمص وكذلك عن طرابلس وهي بين حمص وطرابلس . تقويم البلدان ص ٢٥٨ .

والمشترك وضعاً ص ١٣٦

(٤٦٢) تسميه المراجع العربية «أرناط» .

(٤٦٣) رنسيان ج ٢ ص ٦٥٧ .

بلد حمص ، فوردنا حماه ، وأخذنا في ترتيب الأطلاب (٤٦٤) لطلبه ولقاه فسار إلى حصن الأكراد متعلقاً بحبله ، مفتضحاً بحبله ، وهذا فتح تفتح له القلوب ، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب ، فإن العدو قد سقطت حشمته ، وانحطت فيه همته ، وولى ظهراً كان صدره يصونه ، ونكس صليباً كانت ترفعه شياطينه (٤٦٥) .

وأكد صلاح الدين نصره بأن استولى على قلعة حمص التي كانت استعصت عليه ، والتي ساندت الفرنج ، فاستولى عليها في ٢١ شعبان سنة ٥٧٠هـ / (٤٦٦) / ١١٧٤م ، ثم أتبعها بالاستيلاء على بعلبك بعد حصار حلب الثاني في سنة ٥٨١هـ / ١١٧٦م الذي انتهى بالمصالحة وانثنى صلاح الدين للانتقام من الباطنية حيث حاصر حصن مصياف أكبر حصونهم في سنة ٥٧٢هـ ، وفي تلك الأثناء هاجم الفرنج بقيادة ريموند الثالث البقاع (٤٦٧) ، ولكن والى بعلبك تصدى لهم « فقتل منهم ، وأسر أكثر من مائتي أسير ، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصن مصياف ، فجدد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث (٤٦٨) » .

وكانت مهاجمة الفرنج السبب الرئيسي في وقوع المصالحة بين صلاح الدين وراشد الدين بن سنان ؛ ومن ناحية أخرى جمع الفرنج قواهم لتعويض هزيمة ريموند الثالث على بعلبك ، وذلك بقيادة بلدوين الرابع - رغم صغره ومرضه ، وصحبه همفري سيد تبنين (٤٦٩) ، وعندما علم توران

(٤٦٤) جمع طلب بضم أوله ، وهي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعائه . ويقول ابن إياس أن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي . التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٦ .

(٤٦٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦١٤ .

(٤٦٦) الكامل ج ٩ ص ١٣٢ .

(٤٦٧) البقاع : أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق ، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة نيرة .

معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٠

(٤٦٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ والكامل ج ٩ ص ١٤٠ وانظر طرابلس الشام ص ٢٥٤ .

(٤٦٩) بلدة في جبال بني عامر المطللة على بلد بانياس بين دمشق وصور . معجم البلدان ج ٢ ص

شاه أخو صلاح الدين في دمشق بذلك خرج إليهم ، والتقى بهم بين بعلبك ودمشق في مكان يعرف بعين الجر ، ويبدو أنه لم يستطع تحقيق النصر عليهم ، بل وقع بعض أصحابه أسرى في أيديهم ، ومن هؤلاء الأسمى سيف الدين أبو بكر بن السلار « من أعيان الجند الدمشقيين (٤٧٠) » ، على أن الفرنج ما إن علموا بقدوم صلاح الدين من الشمال حتى انسحبوا من جديد ، ولم يقتف صلاح الدين أثرهم إذ كان حريصاً على أن يعود إلى مصر ، وترك أخاه توران شاه على قيادة جيش قوى في بلاد الشام .

وقد عاد صلاح الدين إلى مصر في ربيع الأول سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م (٤٧١) ، قال العماد : « ولما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه ، وأمن على مناهج أمره ومسالكه أزمع إلى مصر الإياب (٤٧٢) » .

على أن صلاح الدين قبل عودته إلى القاهرة في هذه السنة قام بخطوة سياسية هامة وهي زواجه من عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر وأرملة نور الدين محمود ، وكان يرمى من وراء هذا الزواج السياسي إلى أن يظهر بصورة وريث نور الدين من ناحية ، وليقوى الرابطة بينه وبين نور الدين من ناحية أخرى مما يساعده على تحقيق مشروعاته السياسية في المستقبل (٤٧٣) ،^١ وان ادعى أنه تزوجها « حفظاً لحرمتها ، وصيانتها وعصمتها (٤٧٤) » .

(٤٧٠) الكامل ج ٩ ص ١٤٠ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٧٠ ورنسيان ج ٣ ص ٦٥٢ ، وفي السلوك ج ١ ق ١ ص ٨٥ يذكر المقرئى خلافاً لذلك - أن توران شاه « أوقع بهم ، ثم سار إلى حله وبها صلاح الدين » .

(٤٧١) النواذر السلطانية ص ٨٦ والسلوك ج ١ ق ٢ ص ٨٥ .

(٤٧٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٧٩ .

(٤٧٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ ، ومن مثل هذا الزواج السياسي ما فعله من قبل عماد الدين زنكى ونور الدين محمود . انظر في ذلك : الدولة البورية في عصر الحروب الصليبية .

(٤٧٤) الكامل ج ٩ ص ١٤٠ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٨٠ .

« الفصل الرابع » تدعيم الدولة الأيوبية في مصر والشام

قام صلاح الدين منذ عودته إلى القاهرة في سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٧م بكثير من التحصينات القوية ، والأعمال الكبيرة للدفاع عن مصر بوجه عام والقاهرة بوجه خاص (٤٧٥) . ولم يبخل في سبيل إنجازها بالمال فأنفق عليها أموالاً طائلة (٤٧٦) .

ففي القاهرة قام بإنشاء سلسلة من التحصينات (٤٧٧) منها إعادة السور المحيط بها ، والذي كان سبباً في انقراض الخلافة الفاطمية من أعضائها عدة مرات (٤٧٨) ، ويبدو أنه كان عبارة عن سورين : سور للقاهرة ، وسور لمصر (الفسطاط وماحولها) ، وقد تهدم أكثره في أيام الفاطميين ، وأصبح يمكن عبوره من أى مكان (٤٧٩) ، فقال صلاح الدين : « إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطيء إلى الشاطيء (٤٨٠) » . وجعل صلاح الدين الاشراف على بناء ذلك السور إلى بهاء الدين قراقوش ، وكان طول السور ٢٩٣٠٢ ذراعاً (٤٨١) ، كما أحاط السور بخندق في بعض أجزائه ، قال المقرئى : « وهذا السور هو الذى ذكره القاضى الفاضل فى كتابه إلى

(٤٧٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٦ .

(٤٧٦) الناصر صلاح الدين ص ١٢٩ .

(٤٧٧) Ency. de L'Isi, (art Le Caire) T. 1. P. 844 .

(٤٧٨) الناصر صلاح الدين ص ١٢٩ وقرة جلبي ص ٢٤١ .

(٤٧٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧ .

(٤٨٠) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧ .

(٤٨١) المخطط التوفيقية ج ١ ص ٧١ .

صلاح الدين حيث قال : « والله يحى المولى حتى يستدير بالبلد نطاقه ، ويمتد عليها رواقه ، فما عقيلة ماكان معصمها ليترك بغير سوار ، ولا خصرها ليحتلى بغير منطقة نضار (٤٨٢) » ، ثم بين فوائد هذا السور فقال في خطابه : « والآن استقرت خواطر الناس ، وأمنوا به من يد تتخطف ، ومن يد مجرم يقدم ولايتوقف (٤٨٣) » قال المقرئى : « وشاهدت آثار الخندق باقية ومن ورائه سور بأبراج ، له عرض كبير مبنى بالحجارة إلا أن الخندق انطم ، وتهدمت الأسوار التى كانت من ورائه (٤٨٤) » كذلك أوكل صلاح الدين إل قراقوش مهة الإشراف على تحصينات أخرى فى القاهرة وغيرها .

وأوكل صلاح الدين إلى قراقوش كذلك بناء قلعة الجبل ، وكان ذلك فى وقت بناء سور القاهرة (٤٨٥) ، وكان موقعها على قطعة من الجبل ، « وهى تتصل بجبل المقطم ، وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة ، فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ، ومدينة مصر والقرافة الكبرى ، وبركة الحبش فى الجهة القبلىة ، والنيل الأعظم فى غربىها ، وجبل المقطم من روائها فى الجهة الشرقىة (٤٨٦) » ، فبنى القلعة ، وأعطاهما حقها من إحكام العمل (٤٨٧) ، وحفر فيها بئراً عميقة يضمن لمن فيها الحصول على

(٤٨٢) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٣٨٠ .

(٤٨٣) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٣٨٠ .

(٤٨٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨١ .

(٤٨٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٤٨٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠١ .

(٤٨٧) الروضتين ج ١ ص ٢٠٣ و يوجد على الباب المدرج فى الضلع الغربى من القلعة ما نقرؤه .

إلى يومنا هذا : « بسم الله الرحمن الرحيم : أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المحروسة القاهرة التى جمعت نفعاً وتحصيناً وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصيناً ، مولانا الملك الناصر صلاح الدين والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهد الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الملك

الماء وكانت من عجائب الأبنية (٤٨٨).

وتعتبر القلعة أثراً خالداً من آثار العمارة في العصر الأيوبي ، لأنها من جهة احتفظت بمعظم عناصرها المعمارية ، ولأنها من جهة أخرى حظيت باهتمام ولاية مصر في العصور المتعاقبة ، وإلى وقتنا هذا (٤٨٩).

وقد استخدم قراقوش في بناء القلعة وبناء سور القاهرة الأحجار الضخمة ، وفي سبيل ذلك هدم ماكان هناك من المساجد ، وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصغار التي كانت بالجيزة تجاه مصر ، وكانت كبيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من الحجارة ، وبنى به السور والقلعة ، واستخدم في بنائها الأسرى من الفرنج ، وكان يبلغ عددهم خمسين ألف أسير (٤٩٠). كما بنى قناطر الجيزة (٤٩١) التي تتكون مما يزيد عن أربعين قنطرة على هيئة أقواس ، واستخدم في بنائها أيضاً ماهدمه من أحجار الأهرامات الصغيرة كما بنى بإزائها رصيفاً يمتد كجبل على الأرض مسيرة ستة أميال ، يقصد به أن تسلك عليه عساكره في أى وقت (٤٩٢)؛ وقد عدها ابن جبير من مفاخر صلاح الدين وأثاره الباقية المنفعة للمسلمين (٤٩٣).



كما اهتم صلاح الدين بثغر دمياط ، والثغور البحرية الأخرى على ساحل البحر المتوسط ، وتبدت عنايته بثغر دمياط الذى كان فى أيام قوة الخلافة الفاطمية دار صناعة للسفن الحربية ، تخرج منها الأساطيل لجهاد أعداء البلاد ، فيكون لها بيلاد العدو صينت و رهبة (٤٩٤).

وقد أمر صلاح الدين بتقوية السلاسل الحديدية التى تربط بين برجين من الحجر ، وذلك ليمنع سفن الأعداء من دخول الميناء ، كما أمر بترتيب المقاتلين فيها ، وأن تشد مراكب إلى السلسلة التى بين البرجين ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من البرجين ، كما أمر بإصلاح سور المدينة وترميمه ، وإصلاح مابه من الثلثات التى سببتها الغارات الفرنجية عليه ، وأنفق فى سبيل ذلك مليوناً من الدنانير ، وبلغ طول السور ٤٦٣٠ ذراعاً (٤٩٥).

ومن مدن الساحل التى اهتم بها مدينة تنيس (٤٩٦) ، فاهتم بعمارة قلعتها (٤٩٧) وسورها الذى يرجع بناؤه إلى أيام العباسيين وكلفه ذلك ثلاثة آلاف دينار (٤٩٨) ، وقد أمر صلاح الدين بنقل أهلها إلى دمياط فى سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ، وجعلها للمقاتلة فقط ، وذلك عندما كثرت عليها الغارات الفرنجية .

وقد زار صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م مدينة الاسكندرية ليشاهد العمل فى السور الدائر ، وصام رمضان هذا العام بها واجتمع بالشيخ الحافظ أبى الطاهر أحمد بن السلفى (٤٩٩) .

(٤٩٤) الناصر صلاح الدين ص ١٣١ .

نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٢

(٤٩٥) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢١٥ .

(٤٩٦) تنيس جزيرة ومدينة جميلة وهى بعيدة عن الساحل بحيث لا يرى من أسطحها ،

سفر نامه ص ٧٦ ، ومعجم البلدان ج ٢ ص ٥٢ .

(٤٩٧) السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٦ .

(٤٩٨) نفس المصدر ج ١ ق ١ ص ٩٧ .

(٤٩٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ والسلوك ج ١ ق ١ ص ٨٦ .

ولم يترك صلاح الدين مدينة الإسكندرية حتى كان قد أمر بإتمام الثغور وتعميرها وذكر ابن أبي طى سبب أمر السلطان بذلك ، وما جرى العمل به فقال : « فرأى الأسطول وقد أخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول (٥٠٠) ، وجمع له من الأخشاب والصناعات أشياء كبيرة ، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً ، وديواناً مفرداً ، وكتب إلى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول ، وأن لا يمنع من أخذ رجاله ، وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر ، ويغرى إلى جزائر البحر (٥٠١) ، وجعل صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، وولى هذا بدوره صفى الدين عبد الله بن علي بن شكر نائباً عنه في مباشرة أمور الديوان (٥٠٢) ، وخصّص صلاح الدين لهذا الديوان الأموال الفائقة ، فعين له : « الفيوم بأعمالها ، والحبس الجيوشي في البرين الشرقي والغربي وهو من البر الشرقي بهتين والأميرية والمنية ومن البر الغربي ناحية سفط ونهيا ووسيم ، والبساتين خارج القاهرة ، وعين له أيضاً الخراج وهو أشجار لا تحصى كثيرة في البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية ، والأخميمية والقوصية . . وعين له أيضاً النظرون وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار ، ثم أفرد لديوان الأسطول مع ما ذكر الزكاة التي كانت تجبى بمصر ، وبلغت في سنة زيادة عن خمسين ألف دينار ، وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشناى وطنبدي (٥٠٣) ، كما زاد صلاح الدين رواتب المشتغلين في الأسطول ، وقضى عشرة أعوام في إعداد وترتيب حتى أصبح

(٥٠٠) وكان شاور قد أمر لدى تحريق مصر بحرق مراكب الأسطول ، فحرفت ونهبت .

المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٤ .

(٥٠١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ .

(٥٠٢) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٤ والنظم الاسلامية / على إبراهيم ص ٢٥٢ .

(٥٠٣) نفس المرجع ج ٢ ص ١٩٤ .

في مقدرته القيام بعمليات حربيته ناجحة في مياه البحر المتوسط ضد العدو الفرنجي ، وذلك قبل وقعة حطين (٥٠٤) .

وهكذا كانت عناية صلاح الدين بالأسطول عناية زائدة ، لم يقم بها أحد من جاء بعده إلا الظاهر بيبرس (٥٠٥) .

ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين قد وجه عنايته نحو البحر الأحمر ، فاحتل قلعة أيلة - التي تقع على مدخل البحر الأحمر - من أيدي الفرنج ، واهتم ببناء برج السويس الذي يسع فيه عشرين فارساً ، ووضع فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد (٥٠٦) ، كما استولى توران شاه على اليمن ، ثم بسط نفوذه على الحجاز ، وصار يدعى له على منابر مكة ، وكان الهدف من وراء ذلك بالنسبة للبلاد المطلة على البحر الأحمر في الجنوب والشمال هو السيطرة على مداخل هذا البحر ، وحمايته من الخطر الفرنجي المتواجد في سيناء وجنوب فلسطين (٥٠٧) .

وهكذا عمل صلاح الدين على تقوية مصر وتحصينها وتأمينها ، ووجه اهتماماً بالغاً إلى البحرية لخطورتها في مجابهة الفرنج ، وفي وقف خطرهم على حد سواء .

وكان عليه أن يوجه نظره إلى بلاد الشام لوضع الأمور فيها على الوجه الذي يحقق وحدتها مع مصر تحت راية أيوبية ، انطلاقاً إلى مواجهة اسلامية موحدة ضد قوى الفرنج لتحرير الأرض .

ومن ثم كان عليه في هذه المرحلة أن يواجه قوة الزنكيين في حلب والموصل ، ثم الفرنج والصليبيين .

(٥٠٤) تاريخ البحرية الاسلامية ج ١ ص ٢٧٧ ، ٢٧٩ .

(٥٠٥) الحطط التوفيقية ج ١ ص ٧١ .

(٥٠٦) السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٥ .

(٥٠٧) تاريخ البحرية الاسلامية ج ١ ص ٢٦١ .

المواجهة مع بنى زنكى :-

وكانت خطة صلاح الدين آنثذ تقوم على أساسين : الأول : قطع صلة حلب بالموصل ، والثانى : الاستيلاء على الموصل أو على الأقل إضعافها (٥٠٨).

وقد خدمت الظروف صلاح الدين حيث توفى الملك الصالح اسماعيل فى شهر رجب سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م عن عمر يناهز التاسعة عشرة (٥٠٩) ، وأوصى قبل موته أن يثول ملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، واستقر رأى الجماعة على ذلك ، غير أن عماد الدين زنكى الثانى صاحب سنجار اعترض طريقه ، وتم الاتفاق على تسليم سنجار إلى عز الدين مسعود ، ون يملك عماد الدين زنكى الثانى حلب ، وبذلك صار عماد الدين زنكى الثانى صاحب حلب (٥١٠).

وشجع هذا الانقسام فى صفوف الزنكيين صلاح الدين على مهاجمتهم ، كما دفعه إلى مهاجمتهم أيضاً ما نمى إلى علمه من « أن المواصلة كاتبوا الفرنج وغيرهم فى قصد الثغور الاسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم (٥١١) » .

وكان أن تقدم صلاح الدين صوب حلب ليحاصرها ونازلها ثلاثة أيام ، ولكنه أدرك أن الخطر الحقيقى يكمن فى الجزيرة العراقية حيث يتمتع صاحب الموصل فيها بالكلمة العليا (٥١٢) ، فعبر الفرات إلى الديار الجزيرة ، لاسيما وأن أصواتاً مشجعة دعتة إلى ذلك ، فقد حثه مظفر

(٥٠٨) مصر والشام والصليبيون ص ١٣٣ .

(٥٠٩) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٦٣ .

Brokelman, history of Islamic people, P 228

وقبل إنه مات مسموماً . نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٧٢ ورنسيان ج ٣ ص ٧٠٠ .

Brokelman, history of Islamic people, P.228 (٥١٠)

(٥١١) مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٥ .

(٥١٢) مصر والشام والصليبيون ص ١٣٤ والحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٧٦ .

الدين كوكبورى وإلى حران لعز الدين مسعود يعلمه « أنه معه محب لدولته ، ووعده بالنصرة له إذا عبر الفرت ، ويطمعه في البلاد ، ومحته على الوصول (٥١٣) ، ولدى عبوره الفرات كان من أنصاره صاحب قلعة البيرة (٥١٤) ، وفي تلك الأثناء كان عز الدين مسعود قد توجه إلى نصيبين ، متوجهاً للقاء صلاح الدين على حلب ، ففاجأه عبور صلاح الدين في طريقه إلى بلاده ؛ وتمكن صلاح الدين من الاستيلاء على نصيبين (٥١٥) بمؤازرة بعض أصحاب الأطراف مثل محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا والأمير فخر الدين مسعود الزعفراني صاحب الرها الذي دخل في طاعته بعد حصاره لمدينته .

وبعد أن استولى صلاح الدين على نصيبين استقر رأيه على مهاجمة الموصل ، وكان من أكبر مشجعيه على ذلك مظفر الدين كوكبورى حيث قال له : « لا ينبغي أن يبدأ بغير الموصل ، فإنها في أيدينا لا مانع لها ، فإن عز الدين ومجاهد الدين (٥١٦) (قايباز) متى سمعا بمسيرنا إليها ، تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية (٥١٧) » ، ولكن الجيش الصلاحي ومن رافقه عندما ذهب لحصار الموصل فوجيء بيا أعدده صاحب الموصل لمثل هذا

(٥١٣) الكامل ج ٩ ص ١٥٦ ومظفر الدين كوكبورى ص ٨٣ ويورد العماد الأصفهاني بأسلوبه اللغوي بالمحسنات تمرير مظهر الدين كوكبورى لصلاح الدين حيث يقول مظفر : « ما زلت مشوقاً إليك في « حران » حران ، وإلى الرى من ورد خدمتك ظمان ، وهى لك مبدولة ، وبأوليائك من أهل الدين والدنيا مأهولة ، « والرها » لا يعسر أمرها ، « والرقة » لرقك وبعض حقلك ، و « الحجابور » في انتظار خبرك ، و « دارا » ونصيبين « نصيبك » ، وملك « الموصل » موصلك إلى الملك ، وما هذا أوان الونا » مظفر الدين كوكبورى ص ٨٤ .

(٥١٤) وهى قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى .

(٥١٥) وكان قد استولى على الرها وحران والرقة وسروج الكامل ج ٩ ص ١٥٧ والحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٧٦ .

(٥١٦) نائب عز الدين .

(٥١٧) الكامل ج ٩ ص ١٥٧ ، وكان قد اختلف هل يبدأ بعد نصيبين بقصد الموصل أو سنجان أو جزيرة ابن عمر .

اللقاء حيث كان « عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة مابين فارس وراجل ، وأظهر من السلاح وآلات الحصار ، ما حارت له الأبصار ، وبذلا الأموال الكثيرة ، وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيراً ، واصطلى الأمور بنفسه فأحسن تدبيرها » ، ولم يقف الأمر على الموصل وحدها فقد شحنوا مابقى بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار والموصل ، وإربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والأموال » وعندما أراد صلاح الدين وبعض أعيان رجاله التحقق من مدى تحصينات الموصل بأنفسهم قبل الهجوم عليها فإنه شدّه وأصحابه حيث أنه « رأى بلداً عظيماً كبيراً ، ورأى السور والفصيل قد ملئاً من الرجال ، وليس فيها شرافة ، إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين (٥١٨) » .

ومع ذلك فإنه هاجم الموصل وفشل في الاستيلاء عليها ، وأدرك أنه ليس في استطاعته ذلك (٥١٩) ، وكان عليه مراجعة الموقف وفكر في طلب تأييد الخلافة العباسية له ظنا منه أن الخلافة قد تقف إلى جانبه وتمنحه سلطة على غيره من أمراء إقليم الجزيرة (٥٢٠) ، ولكن الخلافة لم تؤيده ، واكتفت بالتدخل فقط لاصلاح الأمر بينه ، وبين صاحب الموصل ، واكتفى بتفويض صدر الدين شيخ الشيوخ بالقيام بالوساطة بين الزنكيين وصلاح الدين (٥٢١) .

وأراد صلاح الدين أن يخرج بمغرم ما من هذه المعركة الخاسرة ، وذلك بأن يتنازل عن البلاد التي استولى عليها في مقابل أن يتخلى عز الدين عن مساعدة حلب ونجدتها ، ولكن عز الدين أخلف ظن صلاح الدين وقال

(٥١٨) الكامل ج ٩ ص ١٥٧ .

(٥١٩) نفس المصدر ج ٩ ص ١٥٧ ومفرج الكروب ج ٢ ص ١١٩

(٥٢٠) Grousset, histoire des croisades, T 2 P, 714

(٥٢١) الكامل ج ٩ ص ١٥٨ ، وشيخ الشيوخ هو بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر

له عن صاحب حلب : « هو أخى وله العهود والمواثيق ، ولا يسعنى أن أنكثها (٥٢٢) » .

وهكذا لم تسفر الأمور عن صلح ، وأدرك صلاح الدين الألفائدة من البقاء طويلاً أما الموصل ، لاسيما وقد تجهز شاه أرمن السلجوقى وأمير ماردین لارسال قوة لانقاذ الموصل (٥٢٣) ، « ورأى أن طريق أخذه : أخذ قلاعه ، وما حوله من البلاد ، وإضعافه بطول الزمان (٥٢٤) » وانصرف عن الموصل ، وتوجه إلى سنجار حيث نزل عليها في ١٦ شعبان سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٣م ، واستمر حصاره لها حتى ٢ رمضان حيث استولى عليها (٥٢٥) ، ثم استولى على آمد في أول المحرم سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م بعد حصارها ثمانية أيام ، وسلمها إلى صاحب حصن كيفا ، ثم إن السلطان توجه إلى بلاد الشام لحصار حلب ، فاستولى على تل خالد (٥٢٦) ، ثم عيتاب (٥٢٧) ، وسار صلاح بعد ذلك من عيتاب إلى حلب ، التي لم تصمد لحصار صلاح الدين وفضل عماد الدين زنكى الثانى صاحبها أن يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقعة وسروج ، وتم الاتفاق بينه وبين صلاح الدين على ذلك (٥٢٨) ، ويرى ابن الاثير أن تلك بالنسبة لعماد الدين زنكى الثانى كانت صفقة خاسرة فقال : « وباعوها بأوكس الأثمان ، أعطى حصناً مثل حلب ،

(٥٢٢) الكامل ج ٩ ص ١٥٨ .

(٥٢٣) رنسيان ج ٣ ص ٧٠١ .

(٥٢٤) النوادر السلطانية ص ٩٥ .

(٥٢٥) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ .

(٥٢٦) تل خالد : قلعة من نواحي حلب . معجم البلدان ج ٢ ص ٤١ .

(٥٢٧) قلعة حصينة ورستاق من قرى حلب ، رستاقها دلوك مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٧٧ .

وفي الدر المنتخب : « وهى مدينة مليحة جليلة ولها قلعة ، الدر المنتخب ص ١٥٧ .

(٥٢٨) الكامل ج ٩ ص ١٥٨ ورنسيان ج ٢ ص ٧٠٣ وانظر

Grousset, histoires des croisades, T 2 P, 720

وأخذ عوضها قرى ومزارع (٥٢٩)، وقد تم ذلك بعد أن كان عماد الدين خرب قلعة حلب حتى لا يستفيد بها صلاح الدين ، ولم يكن تسليم حلب لصلاح الدين عن رضا من أهلها ، حتى انهم تقموا على عماد الدين تسليم حلب وقد عبر عن ذلك بعض العامة حيث « أحضر إجانة وماء وناداه : أنت لا يصلح لك الملك ، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب ، وأسمعه المكره (٥٣٠) » ، وصاغ الناس في ذلك أشعاراً يعبرون بها عن سخطهم منها :

وبعت بسنجار خير القلاع / نكلتك من بائع مشتري
وكان سقوط حلب في يد صلاح الدين كسباً كبيراً قوى من مركزه في بلاد الشام ، حتى اعتبر ابن الأثير أن ملك صلاح الدين استقر بملكها (٥٣١) .
وقد شعر صلاح الدين نفسه بذلك حتى انه « أعطى العساكر دستوراً » بالسير إلى بلادهم ، وأقام في حلب يقرر أمورها .

وقدر الفرنج أنفسهم خطورة استيلاء صلاح الدين على حلب واعتبره وليم الصوري أسوأ حدث يمكن أن يحدث للفرنج (٥٣٢) ، وذلك إنه بسقوطها في يد صلاح الدين أصبح أقوى حاكم معاصر في الشرق الأدنى ، وجعل الجبهة المتحدة تمتد تحت سلطانه من جبال طوروس في الشمال حتى النوبة في الجنوب (٥٣٣) ، وقد أصبح صلاح الدين في مركز قوى يمكنه من إنزال ضربة قاصمة للفرنج : فموارد مصر الضخمة تحت تصرفه ، ودمشق وحلب في قبضته (٥٣٤) ، وامتد صوب الشمال الشرقي

(٥٢٩) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ .

(٥٣٠) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ ، وقد استقر ملك عماد الدين زنكى الثانى بسنجار وامعها في سنة

٥٧٩ هـ ، ولم يزل بها إلى أن توفى في المحرم سنة ٥٩٤ هـ . نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٩٠

(٥٣١) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ .

(٥٣٢) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٠ .

(٥٣٣) موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٥ ص ١٧٨ و .

Stevenson, The crusaders in The East P. 230

(٥٣٤) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨١ .

حتى أسوار الموصل الا قطاعات الحربية التي ارتكن صلاح الدين إلى مساندة أربابها (٥٣٥).

وقد استبشر المسلمون بفتح حلب ، وعدوه مقدمة لفتح بيت المقدس ، فقال القاضي محيي الدين بن زكى قاضى دمشق يقول :
وفتحه حلباً بالسيف فى صفر مبشر بفتح القدس فى رجب (٥٣٦)
وكان تسلّم صلاح الدين لحلب فى يوم السبت ١٨ صفر سنة ٥٧٩هـ / ١٢ يونيو ١١٨٣م (٥٣٧). ولكن صلاح الدين فقد أخاه تاج الملك بورى على حلب ، حيث أصابه سهم فى عينه مات منه (٥٣٨) بعد أيام ، فحزن عليه حزناً شديداً نغص عليه فرحه بنصره الكبير ، فكان يقول :
« ماوقت حلب بشعره من أخى تاج الملك بورى (٥٣٩) ».

وهكذا تحقق لصلاح الدين تحقيق جزء كبير من أمله ، فقد صار فى يده مدائن الشام الكبيرة : حمص وحماه وحلب ودمشق ، وظلّ جزء من أمله متجهاً إلى الموصل للاستيلاء عليها ، أو جعلها كالتابعة له ، وفى سبيل ذلك عمل على تضيق الدائرة حولها (٥٤٠)، فتمكن من اكتساب ولاء بعض القادة الذين أدركوا ماينتظرهم من جراء مساندتهم لصاحب الموصل ، بل أحسوا بالخطر الذى ينتظر الموصل نفسها إن ظلت على

(٥٣٥) رنسيان ج ٢ ص ٧٠٤ .

(٥٣٦) فكان كما قال ، لكن بعد سنين ، وهو الذى خطب بالقدس عندما فتحها صلاح الدين فى رجب سنة ٥٨٣ هـ .

النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٥ ، وقرة جلى ص ٢٤١ ، والمختصر أخبار البشر ج ٣ ص ٦٦

(٥٣٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٧٩ .

(٥٣٨) النوادر السلطانية ص ٩٨ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٥ ، وفى الوفيات ج ١ ص ٢٩٢ وكانت الطعنة فى ركبته .

(٥٣٩) النوادر السلطانية ص ٩٨ وفى المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٦٦ ووفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٢ : « ما وقعت حلب علينا رخيصة بموت تورى (بورى) »

(٥٤٠) مصر والشام والصليبيون ص ١٣٤ .

معاندتها لصلاح الدين (٥٤١). وتبيأت الفرصة في سنة ٥٨١هـ / ١١٨٦م لصلاح الدين لحصار الموصل من جديد ، وقد حاول عز الدين الاستنجاد بالخلافة في بغداد ، ولكن الخليفة لم ينجده « ولم يحصل منه على زيادة (٥٤٢) ».

واضطر إلى مراسلة صلاح الدين للمصالحة ، وتم الصلح على أن يسلم صلاح الدين إلى عز الدين شهرزور وأعمالها ، وولاية القرابلي ، وجميع ما وراء الزاب من أعمال ، وأن يخطب عز الدين لصلاح الدين على منابر بلاده ، ويضرب اسمه على السكة ، وأن يمد صاحب الموصل صلاح الدين بالجيش والعتاد والسلاح في حالة اشتباك صلاح الدين مع الفرنج المقيمين أو ضد الصليبيين الوافدين (٥٤٣).

وهكذا يكون صلاح الدين الذي كان يعرف جيداً أهدافه الحربية ، ويجيد التخطيط لها (٥٤٤) قد نجح فيما خطط له من توحيد مصر والشام ، واستغرق ذلك منه اثنتي عشر عاماً منذ وفاة نور الدين محمود ، وأصبح على استعداد كامل لمواجهة الخطر الأكبر الجاثم على قلب الأمة العربية : خطر الفرنج والصليبيين .

الجهاد ضد الفرنج والصليبيين وحرب التحرير :

اتضح لنا من خلال ما سبق أن ثمة هدفين كانا يشغلان ذهن صلاح الدين : أحدهما ركيزة لما بعده ، ونعني بهما توحيد مصر والشام والجزيرة ، وتأمين ذلك التوحيد وثانيهما جهاد الفرنج ، ويفهم من هذا أن إحدى الغايتين كان وسيلة للغاية الأخرى .

(٥٤١) نفس المصدر ص ١٣٤ .

(٥٤٢) النوادر السلطانية ص ١١٢ .

(٥٤٣) الكامل ج ٩ ص ١٧٠ ومصر والشام والصليبيون ص ١٣٥

وانظر Brokelman, history Islamic People, P 228

(٥٤٤) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٩٠٨ .

ولعل الفرنج لم يكونوا غافلين عما ينتويه صلاح الدين وما يفكر فيه ، ولذلك كان حرصهم على حصر صلاح الدين في مصر وحدها ، وقد اتضح ذلك في محاولاتهم إبان ، وبعد سقوط الدولة الفاطمية ، ثم ما كان منهم من مؤازرات متصلة من ولاة الأمور في حلب والموصل ، وإن باءت جهودهم بالفشل ، وكان الدليل على ذلك فوز صلاح الدين بما خطط له في براعة حتى كون الجبهة المتحدة التي كان يطمح إليها .

على أن الجدير بالذكر أنه في الوقت الذي كانت فيه الجبهة الإسلامية تتحد وتقوى ، كان الفرنج يمرون بفترة عصيبة تسودها الانقسامات الداخلية العنيفة المتشعبة التي حالت دون تدخلهم بحسم فيما كان يقوم به صلاح الدين في بلاد الشام والجزيرة ، وبيان ذلك في تفصيل مركز :

اتخذت العلاقات بين صلاح الدين والفرنج طابع المناوشات والمصادمات المتقطعة بين سنتي ٥٧٢هـ - ٥٧٦هـ / ١١٧٦ - ١١٨١م (٥٤٥) ، واضطر صاحب بيت المقدس في سنة ٥٧٦هـ أن يطلب عقد الهدنة مع صلاح الدين في أعقاب غارة موفقة لصلاح الدين على السفن الراسية في ميناء عكا ، ثم غارته العنيفة على الجليل ، وقد وافق صلاح الدين على هذه الهدنة وفقاً للأولويات التي كان رتبها ، والتي تجعل الاستيلاء على حلب سابقاً على استيلائه على بيت المقدس ، وكانت مدة هذه الهدنة ستان ، ثم مالبت أن وقعت معاهدة مماثلة مع ريموند صاحب طرابلس (٥٤٦) .

وكانت مملكة بيت المقدس تمر آنئذ بفترة خطيرة عندما تولى بلدوين الرابع الذي كان مريضاً بالجذام والذي مات متأثراً به (٥٤٧) ، ثم تلاه

(٥٤٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٣٧ .

(٥٤٦) زنسيان ج ٣ ص ٦٧٩ ، ٦٨٠ . وحذا حذوه بوهيمند الثالث أمير أنطاكية فجدد هدنته مع صلاح الدين .

lone- poole, Saladin, P. 161

Chlimberger, Renadu de Chatillon, P. 189

(٥٤٧) وله من العمر ٢٤ عاماً . Kerr, The crusades, P.48 .

بلدوين الخامس الذى مالبت أن مات كذلك بعده بيضعة شهور^(٥٤٨)والذى كانت وفاته إيذاناً بفرع حاد بين أمراء الفرنج حول الفوز بعرش مملكة بيت المقدس^(٥٤٩)، ومن ثم انتقل إلى أمة سيبيلا « Sybella » التى تزوجت فارساً قدم إلى الشام من أوربا هوجى دى لوزجانان « Gui de Lusignan^(٥٥٠)»، ولكن ريموند الثالث أمير طرابلس لم يرض بذلك حيث كان يطمع فى الملك^(٥٥١)، وتولد عن ذلك انقسام شديد فى صفوف الفرنج بين مؤيد لريموند ومؤيد للوزجانان، وكان ممن ناصر لوزجانان ضد ريموند فرسان الداوية^(٥٥٢)، مما ألجأ ريموند الثالث إلى صلاح الدين يطلب معونته، فوافق صلاح الدين وسر لذلك، وسر له المسلمون، وكان ذلك من عوامل نصر الإسلام^(٥٥٣)، وقد نظر المؤرخون الغربيون إلى موقف ريموند هذا على أن خيانة مع اعترافهم بسلامة هذه السياسة، فقال رنسيان: « وبرغم ماكان من سلامة سياسة ريموند فلاشك أنها انطوت على الخيانة^(٥٥٤)».

وقد أتاحت هذه الهدنة فرصة لصلاح الدين تمكن بها من إعداد قواته عسكرياً ونفسياً، وتوحيد الصفوف لبدأ جهاده الحاسم ضد الفرنج

(٥٤٨) وله من العمر ٩ سنوات . Ibid, P 48 .

(٥٤٩) ويقال أن أمه سمته ليثول الملك لزوجها الثانى المسمى لوزجانان . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٤ .

وحقائق الأخبار ص ١٥٣

(٥٥٠) Kerr, The crusades, P. 48 .

(٥٥١) العلاقات بين الشرق والغرب / د . ماجد ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، و Lane-poole . Saladin, PP 220- 221 .

Saunders, A history of Medisval Islam, P. 165

(٥٥٢) King, The Rinights hospitallers in the holly land, P. 118 .

(٥٥٣) الروستين ج ١ ق ٢ ص ٧٤ - ٧٥ ومفرج الكرب ج ٢ ص ١٨٥ وطرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ص ٢٥٠ .

(٥٥٤) رنسيان ج ٢ ص ٧٢٨ .

والصليبيين ، وقد ساعدته الظروف حيث فقد الفرنج حليفاً قوياً لهم هو
الأمبراطور البيزنطي مانويل كومنين الذى توفى فى سنة
٥٧٦هـ / ١١٨٠م (٥٥٥) .

وقد بات صلاح الدين يتربق وقوع الفرنج فى أخطاء تمهد له السبيل ،
وتيسر أمامه الحجة لحرهم ، وواتته الفرصة على يد أمير الكرك
رينالدشاتيون (٥٥٦) الذى نقض بعض شروط الهدنة مع المسلمين والذى
كان يقضى بأن يسمح للتجار على الجانبين فى أن يجتاز كل من الجانبين
بلاد الآخر (٥٥٧) .

فقد تعرض ذلك الأمير الذى كانت سياسته قائمة على الغطرسة
والمشاكسة - لإحدى القوافل التجارية المتجهة من القاهرة إلى دمشق فى سنة
٥٨٢هـ / ١١٨٦م « وكانت قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ،
ومعها جماعة صالحة من الجند (٥٥٨) » ، وكان فى هذه القافلة أخت صلاح
الدين (٥٥٩) ، فأخذ جميع مافي القافلة أسرى ، وأودعهم السجون ، كما
استولى على كل مامعهم من أموال ودواب وسلاح ، وأرسل صلاح
الدين رسلاً إلى رينالدشاتيون ليبينوا له خطأ مافعله ، وأن يطلق جميع من
أسرهم ، وأن يتحمل التعويضات نتيجة الخسائر التى حلت بالقافلة ، ولم
يجبه رينالدشاتيون إلى شىء من ذلك بل قال لرسله « قولوا لمحمد
(٥٥٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٦٧ .

(٥٥٦) وكان كمشتكين اطلق سراحه تعاطفاً مع الفرنج الذى تعاطفوا معه ، حيث أفرج عن
الأسرى الفرنج فى قلعة حلب الذى أسروا فى حارم سنة ٥٥٩هـ رينالدشاتيون مما أضر بالمصلحة
العامة للمسلمين .

Schlumberger, Renaud de Chatillon, P 144

Stevenson, The crusaders in the East, P. 189.

(٥٥٧) رنسيان ج ٢ ص ٦٩٦- ١٩١ Schleinberger, Renaud de Chatillon PP,
192

(٥٥٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٤ و Kerr, The crusades, P 48

(٥٥٩) الكامل ج ٩ ص ١٧٤ .

يخلصكم (٥٦٠)، فوجه صلاح الدين برسله الى ملك بيت المقدس جى لوزجنان ليكبح جماح تابعه ، وكان جى لوزجنان حريصاً على عدم نقص المعاهدة مع صلاح الدين آنثذ ، فاهتم بشكوى صلاح الدين ، وأرسل إلى أمير الكرك يأمره بتنفيذ طلبات صلاح الدين ، لكن ذلك الأمير المتهور لم يقبل بأمر الملك الذى كان حريصاً على أن تدوم المعاهدة (٥٦١) ولم يكن بوسع جى أن يفرض على رينالدشاتيون أن يطيعه (٥٦٢) .

وكان ذلك دليلاً على مدى التردى الذى وصلت إليه هيبة وسلطان ملك بيت المقدس (٥٦٣) . وعلى الجملة فقد دفعت أقوال هذا الأمير المتهور وأفعاله صلاح الدين إلى أن ينذر نذراً أن يقتله إن ظفر به (٥٦٤) .

وقد سبق لهذا الأمير المتهور الذى كان لا يستطيع أن يعيش دون أن يسطو وينهب (٥٦٥) أن هاجم القوافل المارة بين مصر والشام ، وكان أسوأ هذه الاعتداءات ما حدث فى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م حين جهز رينالد سفناً أعدها وحملها على جمال البدو الذين أغراهم بالمال (٥٦٦) إلى البحر الأحمر وملأها بالمقاتلة وتمكن من الاستيلاء على أيلة (٥٦٧) ، وهاجم

(٥٦٠) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٤ .

(٥٦١) Schlumberger, Renadu de Chatillon, P. 190

Brokelman, history of Islmic people, P, 228

(٥٦٢) رنسيان ج ٢ ص ٧٢٧

Grousset, histoire des croisades, T 2, P. 703

Besant Palmer, Jerusalem..., P.388 (٥٦٣)

Grousset, histoire des croisade. T 2 P. 703

(٥٦٤) الكامل ج ص ١٧٤

Grousset, histoire des croisades, T 2 P, 776 (٥٦٥)

وسوريا ولبنان وفلسطين حتى ص ٢٣٧ .

lane- pool, Saladin, P, 175 (٥٦٦)

Lamb: The Flame of Islam P 56

(٥٦٧) بعد أن ظلت فى حوزة المسلمين منذ سنة ١١٧٠ . رنسيان ج ٣ ص ٧٠٦ وانظر المختصر

فى أخبار البشر ج ٣ ص ٦٤ .

بقراصته بعض البلدان الصغيرة ، ونهبوا عيذاب (٥٦٨) ، واستولوا بها على سفن تجارية زاخرة بالسلع قدمت من عدن ومن الهند ، كما نزلوا إلى البر وهاجروا قافلة ضخمة كانت قادمة عبر الصحراء من وادي النيل ، ولم يكتفوا بذلك بل اجتازوا البحر الأحمر من عيذاب إلى ساحل بلاد العرب ، وأشعلوا الحرائق في السفن الراسية بالحوراء وبنع مينائى المدينة ، ثم توغلوا حتى بلغوا رايغ ميناء مكة ذاتها ، وأغرقتوا بقربه سفينة للججاج كانت متجهة إلى جدة (٥٦٩) .

وكان لذلك آنذاك - أسوأ الأثر على العالم الإسلامى بأسره ، بل على حلفاء الفرنج من المسلمين ، فقد كان أميراً حلب والموصل آنذاك خجلين لاستعانتها بالفرنج الذين لا يراعون حرمة مقدساتهم الإسلامية .

وقد تمكن العادل أخو صلاح الدين من إيقاف هؤلاء العابثين عند حدهم ، حيث أرسل إليهم أسطولاً بقيادة متولى أسطول مصر حسام الدين لؤلؤ الحاجب الذى تمكن من استرداد أيلة ، وانقض على من بها « انقضاض العقاب على صيده (٥٧٠) » ، وقتل بعضهم ، وأسر البعض ، ثم تتبع من ساروا إلى عيذاب فوجدهم ارتحلوا ليفسدوا في الموانئ المختلفة حتى أدركهم بساحل الجوزاء ، ودارت معركة بينه وبينهم فى البحر ، فتك بهم فيها ، وانتقلت المعركة إلى البر « فقتل أكثرهم ، وأخذ الباقين أسرى ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم » ، وعاد بالأسرى إلى مصر فقتلوا

(٥٦٨) عيذاب : مدينة حسنة ، وهى مجمع التجار برا وبحرا .

جريدة العجائب وفريدة الفرائب ص ٥٩

« ابن الوردي ، القاهرة ١٢٧٦ »

(٥٦٩) رحلة ابن جبير ص ٥٨

وانظر Schlumberger, Renadu Shatillon, PP. 219- 221

(٥٧٠) الكامل ج ٩ ص ١٥٩ وحقائق الأخبار ص ١٥٣ .

جميعهم (٥٧١)، وتمكن رينالدى شاتيون من الهرب ، والتوجه إلى حصن الكرك ليواصل أعماله العدائية ثانية ضد المسلمين (٥٧٢)؛ وأقسم صلاح الدين أنه لن يغفر لرينالد محاولة انتهاك حرمة الدين (٥٧٣).

وشهد ابن جبير الذى كان يزور مصر آنذاك أسرى الفرنج وقد « أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذناها ، وحولهم الطبول والأبواق (٥٧٤) »، ووصف شناعة ما كان هؤلاء قد أزمعوا عليه ومانا لهم من جزاء حيث قال : « حادثة تسد المسامع شناعة ويشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإخراجه من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك ، وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه (٥٧٥) ».

هكذا جرّ هذا الأمير المتهور بحماقته المعهودة الفرنج إلى الحرب مع صلاح الدين ، تلك الحرب التى جاءت كارثة على رينالد نفسه بل وعلى الفرنج جميعاً (٥٧٦)، فقد أتاح ذلك فرصة سانحة لصلاح الدين حتى يضرب الفرنج فى الصميم ، معتمداً على التفكك السياسى فى جبهتهم ، ومحتجاً بأن ملك بيت المقدس لم يستطع كبح جماح صاحبه (٥٧٧).

واستعد لصلاح الدين لهذا الغزو بالتعبئة العامة له وجمع له عساكر

(٥٧١) الكامل ج ٩ ص ١٦٠ والمختصر أخبار البشر ج ٣ ص ٦٥ وانظر :

Kerr., The crusades, P 47

Chlumberger; Renadu de Shatillon, P. 224

lomb, The blame of Islam, P 29 (٥٧٢)

(٥٧٣) رنسيان ج ٢ ص ٧٠٧ . مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٥ .

(٥٧٤) رحلة ابن جبير ص ٥٧ .

(٥٧٥) رحلة ابن جبير ص ٥٧ .

(٥٧٦) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٦ و

Setton, a history of the crusades, vol 1 P, 581

(٥٧٧) مظهر والشام والصليبيون ص ١٤٠

الجزيرة العراقية ومصر والشام (٥٧٨)، وبدأ بالإغارة على الكرك والشوبك وغيرها ، وبث سراياه للحرق والتخريب « فنهبوا وخرّبوا وأحرقوا (٥٧٩) » .

ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين طلب من أخيه الأفضل أن يرسل بعض القوات للإغارة على عكا ، فسير جيشاً بقيادة بعض كبار الأمراء منهم . مظفر الدين كوكبوري صاحب حرّان والرها ، وقد صبح هذا الجيش صَفُورِيَّة (٥٨٠) في أواخر شهر صفر سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وكانت هذه البلد معقلاً للداوية والاستتارية ، وجرت بينهم وبين الجيش الإسلامي القادم حرب شديدة « تشيب لها المفارق السود (٥٨١) » ، وانتصر المسلمون بعد أن قتلوا من الاستتارية والداوية أعداداً كبيرة ، كما أسروا أعداداً كبيرة أخرى من بينهم مقدم الاستتارية نفسه الذي كان « من فرسان النرنج المشهورين ، وله النكاية العظيمة في المسلمين (٥٨٢) » ، وعاد المسلمون يحملون رؤوس أعدائهم على أسنة الرماح (٥٨٣) .

على أن الجدير بالذكر أن هذه القوات الإسلامية اخترقت إقليم الجليل في طريقها من بانياس إلى عكا وكان ذلك قد استلزم أن يأخذ صلاح الدين إذناً من ريموند الثالث وكان في طبرية آنئذ يطلب منه السماح لتلك القوات بالمرور بحكم ما كان بينهما من تحالف وقد اضطر ريموند للإذن بذلك وإن أصدر أوامر إلى المدن الفرنجية في الجليل بأن تغلق أبوابها حتى لا يستولى المسلمون عليها (٥٨٤) . وقد اعتبر الفرنج ذلك خيانة من ريموند الثالث لهم

(٥٧٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٥ .

(٥٧٩) نفس المصدر ج ٩ ص ١٧٥ Brokelman, history of Islamic people, P. 228

(٥٨٠) بفتح أوله وتشديد ثانياً : كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية .

معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٤

(٥٨١) الكامل ج ٩ ص ١٧٥ .

(٥٨٢) نفس المصدر ج ٩ ص ١٧٦ .

(٥٨٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٧ .

(٥٨٤) / Grousset, histoire des Croisades, T 2 P 782

وأمام هذا أراد الفرنج تجميع جهودهم ضد صلاح الدين وكان لابد من رأب الصدع كعادتهم في نبذ خلافاتهم جانباً عند استشعار خطر إسلامي محقق ، فأرسلوا إلى ريموند الثالث عدداً من رجال الدين وكذلك من الفرسان بينوا له أنهم غير راضيين عن انتمائه إلى صلاح الدين وويخوه على ذلك (٥٨٥) وقال له : لاشك أسلمت وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج ، يقتلون الداوية والاستبارية ويأسرونهم ويحتازن بهم عليك ، وأنت لا تنكر ذلك ولا تمتنع عنه ، وزادوا على ذلك بأن هدده البطرك أن يجرمه ويفسح عليه نكاح زوجته (٥٨٦) ، فأجابهم ريموند إلى ما طلبوه منه وانضم إليهم وسار معهم إلى جى لوزجان ملك بيت المقدس ، وبذلك اجتمعت كلمتهم من جديد أمام الخطر الإسلامي المائل أمامهم (٥٨٧) ولكن ذلك لم يغن عنهم من الله شيئاً (٥٨٨) .

واتجهت جموع الفرنج نحو صفورية التي تبعد ستة عشر ميلاً عن عكا . أما صلاح الدين فرأى ألا يقابلهم عند صفورية ، بل يجبرهم على المسير إليه حيث يريد هو ، فيلقاهم بجند وافر القوة والجهد لذلك اللقاء ، وفي سبيل الوصول إلى ذلك رأى أن يهاجم طبرية ليصل إلى ما يريد ويتمكن من استئصالهم (٥٨٩) ، وقد عبر ابن الأثير عن تفكير صلاح الدين هذا حيث قال : « وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من ققتالهم (٥٩٠) » .

وتمكن صلاح الدين من الاستيلاء على طبرية دون قلعها التي استسلمت زوجة ريموند الثالث. التي كانت فيها - في الدفاع عنها ، وأصرت على

(٥٨٥) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٧١ .

(٥٨٦) الكامل ج ٩ ص ١٧٦

(٥٨٧) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ص ٢٥٦ .

(٥٨٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٦

(٥٨٩) الروضتين ج ٢ ص ٧٦

(٥٩٠) الكامل ج ٩ ص ١٧٧

مقاومة الهجوم على القلعة بحاميتها القليلة العدد ، وأرسلت إلى زوجها تخبره بجلية الأمر (٥٩١).

وقد اختلفت آراء الفرنج ، بعد هذا الموقف الذى خلقه لهم صلاح الدين : ففى حين رأى بعضهم التقدم إلى المسلمين لقتالهم ، ومنعهم عن طبرية ، رأى ريموند - وكان الأبعد نظراً (٥٩٢) - خلاف ذلك ، وقال لهم : « إن طبرية لى ولزوجتى ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة مافعل ، وبقي القلعة ، وفيها زوجتى ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى ومالنا بها ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثاً ، مارأيت مثل هذا العسكر الذى مع عسكر صلاح الدين كثرة وقوة ، وإذا أخذ طبرية لايمكنه المقام بها فمتى فارقتها ، وعاد منها أخذناها ، وإن أقام بها فلا يقدر على المقام بها - الا بجميع عساكره ، ولا يقدر على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها (٥٩٣) » كما بين ريموند خطورة ترك صفورية ، والمخاطرة بالمسير على التل الأجرد فى حرارة شهر يوليو الشديدة ، وأن الجيش الذى يهاجم فى قيظ الصيف ولفحه لن تكون الأحوال فى صالحه (٥٩٤). ولم يلق رأيه قبولاً بل واتهم بالخوف والجبن ، ويأنه يريد ضياع المملكة ، واشتد عليه رينالد شاتيون وقال له : « قد أطلت فى التخويف من المسلمين ، ولاشك أنك تريدهم ، وتميل إليهم ، وإلا ماكنت تقول هذا ، وأما قولك : إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب (٥٩٥) » ، وكان ممن اشتد عليه كذلك جيرار مقدم الداوية (٥٩٦) ،

(٥٩١) رنسيان ج ٢ ص ٧٣٥ ، تمة المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٩٧ وانظر :

Kerr, The crusades, P. 48

(٥٩٢) Stevenson, The crusaders in the east, PP, 244- 245 .

(٥٩٣) الكامل ج ٩ ص ١٧٧ .

(٥٩٤) رنسيان ج ٣ ص ٧٣٥ و

Zoe Oldenbourg: The crusades, P 241

(٥٩٥) الكامل ج ٩ ص ١٧٧ .

(٥٩٦) رنسيان ج ٣ ص ٧٣٦ .

فاضطر ريموند إلى موافقتهم ، ووصلت تلك الأنباء إلى صلاح الدين عن طريق عيونه المنبئين في صفوف الفرنج (٥٩٧)، فأدرك صلاح الدين أن خطته قد نجحت ، وأن الفرنج وقعوا فيما دبّره لهم .

على أن الجدير بالذكر أن بوهمند الثاني Bohemond II أمير أنطاكية لم يشترك مع الفرنج في ذلك لبعده ، ولوجود صلاح الدين في طريقه ، وإن كان من جهته دائم الإغارة على مراكز المسلمين المجاورة لإمارته (٥٩٨) .

« موقعة حطين (٥٩٩) »

غادر جيش الفرنج بقيادة جى لوز جنان وريموند الثالث وينالدشاتيون (٦٠٠) صفورية في يوم شديد الحرارة ، راكد الهواء ، وكان ريموند على مقدمة الجيش في حين تولى جى لوزجنان قيادة قلب الجيش ، أما رينالدشاتيون وآخرون فقد أوكل اليهم مؤخرة الجيش ، وسار الجيش الفرنجى في طريق تنعدم فيه المياه ، حتى أصابهم الظمأ ، وتعبت خيولهم ، وكان للرماة الذين خصصهم صلاح الدين على طول الطريق ، لضرب مقدمة ومؤخرة الجيش القادم أثرهم في تحطيم معنويات الجيش الفرنجى بما أمطروه به من سهام (٦٠١) .

وقد نجح صلاح الدين فعلاً في استدراجهم إلى مكان صخرى ، بعد أن نجح في السيطرة على مشارب المياه ، وجعل الأردن وراءه وكان صلاح الدين فرحاً بنجاحه هذا ، حتى انه لم يكن في استطاعته أن يكتم فرحه

(٥٩٧) نفس المصدر ج ٣ ص ٧٣٧ وأطلق عليهم رنسيان اسم « الخونة » .

(٥٩٨) الناصر صلاح الدين ص ١٤٣ .

(٥٩٩) قرية بين عكا وطبرية بالشام بها قبر شعيب وابنته صفوراء .

المشترك وضعاً ص ١٣٨ .

وانظر معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤

وكذلك Ency de L'isl, (art Hattîn au Hittin) T 2 P, 308

(٦٠٠) ولم يشترك بوهمند الثالث كما أشرنا من قبل .

(٦٠١) رنسيان ج ٣ ص ٧٣٨ .

وسروره بنجاح تدبيره الذى أتاح له الفرصة التى ينشدها (٦٠٢).

ولم يغفل صلاح الدين رفع روح جنوده المعنوية وفى نفس الوقت التأثير على روح أعدائه المعنوية ، وكان من ذلك أن المسلمين باتوا ليلتهم التى أعقبها الهجوم فى الصباح . وهم فى تهليل وتكبير يزيدهم قوة وإيمانا ويبعث صده الرعب فى قلوب أعدائهم .

وحتى يزيد المسلمون فى متاعب جيش أعدائهم أشعلوا النيران فى الأعشاب والشجيرات الجافة التى تغطى تل حطين فغشى المعسكر المسيحي الدخان الساخن (٦٠٣) حتى كادوا يصابون بالجنون لما أصيبوا به من الحرارة والدخان والعطش جميعاً (٦٠٤).

وحرك صلاح الدين قواته فى جنح الظلام ، ونجح فى تطويق جيش الملك جى لوزجنان حيث « أحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها (٦٠٥) حتى لم يكن « بوسع أحد قط أن يفلت من الشبكة المنصوبة (٦٠٦) ».

وكان بدء الهجوم الإسلامى صباح يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ / ٤ يوليو ١١٨٧م والمسلمون يصيحون « الله أكبر » ، وصلاح الدين على رأسهم يجرضهم على القتال ، ورغم محاولة الفرنج التماسك فإن قواتهم بدأت فى الانهيار بعد أن أضعفهم الظمأ الشديد ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على صليب الصليبوت منهم فكان لهذا وقعه الأليم عليهم فقد « أيقنوا بعده بالقتل والهلاك (٦٠٧) ».

(٦٠٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٧٣٨ .

(٦٠٣) الكامل ج ٩ ص ٧٧ ورنسيان ج ٣ ص ٧٣٨ .

(٦٠٤) Kerr, The crusades, P. 49.

(٦٠٥) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ . King, The Knights Hospitallers, PP, 125- 126.

(٦٠٦) رنسيان ج ٣ ص ٧٣٩ .

(٦٠٧) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ وانظر

Kerr, The crusades P. 49

وقد هرب ريموند في أوائل الأمر قبل اشتداده (٦٠٨)، ووصل إلى طرابلس حيث لم يلبث قليلاً ومات « غيظاً وحنقاً مما جرى على الفرنج خاصة ، وعلى دين النصرانية عامة (٦٠٩) »

وقد تمكن المسلمون من إسقاط خيمة جي لوزجنان ، وما إن سقطت خيمته حتى أسرع الفرنج جميعاً بالتسليم ووقع ملوكهم وأمراؤهم أسرى في يدي صلاح الدين وكان ممن أسر « الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك (٦١٠) » وكان عدد القتلى كثيراً كما كان عدد الأسرى كثيراً « فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحداً ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً ، ولم يصب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل أى سنة ٤٩١ هـ بمثل هذه الوقعة (٦١١) .

وقال ابن الأثير الذى مر بمكان المعركة بعد سنة « ولقد اجتزت بموقع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها : المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق ، هذا سوى ما جحفته السيول ، وأخذته السباع في تلك الأكام والوهاد (٦١٢) » .

واستقبل صلاح الدين - بعد تمام نصره - الأسرى وفيهم جي لوزجنان وريئالديشاتيون أمير الكرك والشويك (٦١٣)، فسقى الملك ماءً

(٦٠٨) النوادر السلطان ص ١٢٢ وتمة المختصر ج ٢ ص ٩٦ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢ .

(٦٠٩) الكامل ج ٩ ص ١٨٩ ، حيث لم يسلم من عشرين ألف فارس وراجل إلا من هرب أو سقط في الأسر ، كما قتل مقدم الاستبارية وعدد كبير من أجنادهم .

سوريا ولبنان وفلسطين ص ٢٣٧

King, The Rnight hospitallers, P, 120

(٦١٠) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ وانظر Kerr, The crusades, P 49

(٦١١) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ والمختصرة في أخبار البشر ج ٣ ص ٨٢ .

Brokelman, history of Islamic people, P. 228

Grousset, histoire des croisades, T 2 P. 802

(٦١٢) الكامل ج ٩ ص ١٧٩ .

(٦١٣) وقد أطلق عليه ياقوت الحموى لقب « فرعونهم » معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٤ .

مثلوجا^(٦١٤) حيث كان العطش اشتد به ، وأدار الملك مامعه من الماء الذى بقى على رينالدشاتيون وشرب رينالد ليروى عطشاً برّح به وفى نفس الوقت لينجى نفسه من القتل على يد صلاح الدين ظناً منه أنه طبقاً للتقاليد العربية^(٦١٥) فإن صلاح الدين لن يقتله ، وأبى صلاح الدين إلا أن يعامله المعاملة التى يستحقها^(٦١٦) وقال : « إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى^(٦١٧) » ، ثم إن صلاح الدين وجه الحديث إلى رينالدشاتيون موبخاً إياه ، ومعدداً عليه ما ارتكبه من حملات ، وعرض عليه الاسلام فأبى وعندئذ قال له صلاح الدين « هاأنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام » وقام إليه وأطاح رقبته بنفسه وقال : « كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل غدراً^(٦١٨) ، وخشى الملك أن تكون الكثرة عليه ، فهدأ صلاح الدين من روعه ، وعامله معاملة كريمة ، كذلك فتك صلاح الدين بفرسان الداوية والاستبارية الذين كانوا يمثلون التعصب الصليبي^(٦١٩) ، وقد خصهم بالقتل « لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج ، فأراح الناس من شرهم^(٦٢٠) » .

(٦١٤) وكان صنع الثلج معروفاً منذ المصريين ، وكانوا يأخذونه معهم فى قیظ مكة وفى الحروب .

الناصر صلاح الدين ص ١٤٥

(٦١٥) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ ، « وكان على عادة جمیل العرب ، وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل لو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جرياً على مكارم الأخلاق »

النوادر السلطانية ص ١٢٤

(٦١٦) سوريا ولبنان وفلسطين ص ٢٣٧ وقررة جلی ص ٢٤٥ .

(٦١٧) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ .

(٦١٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ ورنسيهان ج ٢ ص ٧٤٠ والسلوك ج ١ ق ٢ ص ١١٩ .

(٦١٩) الناصر صلاح الدين ص ١٤٥ .

Kerr, The crusades, P. 49

(٦٢٠) الكامل ج ٩ ص ١٧٩ ، ويتمجب ستييفسون من موقف صلاح الدين هؤلاء ويدهى أنه لا يعرف سبباً لهذه المعاملة .

Staevenson, The crusaders in the East, P 248

وسير صلاح الدين بياقي الأسرى إلى دمشق حيث أودعوا في سجونها ،
ومعهم صليب الصليبوت منكسا ، وقد أطلق فيها بعد سراح كبرائهم بعد
أن اقتدوا أنفسهم بأموال قرروها وبتسليم قلاعهم وتعهدوا بعد الإفراج
عنهم بعدم قتاله ، كما باع بعضهم هواناً لهم (٦٢١) .

وبعد هذا النصر الكبير عاد صلاح الدين إلى طبرية ليستولى على قلعتها
فراسلته زوجة ريموند الثالث تطلب منه الأمان لها ولأولادها ولأصحابها ،
فعفا عنها ، وسيرها من حصنها بالأمان ، ومعها رجالها ومالها وتسأؤها إلى
طرابلس (٦٢٢) .

وقد سرت موجة عارمة من الفرح في نفوس المسلمين لهذا النصر المين
في حطين فقد « بات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمل حبور ،
ترفع أصواتهم بالحمد لله ، والشكر له ، والتكبير والتهليل حتى طلع صبح
يوم الأحد (٦٢٣) » .

وأطلق المؤرخون الإسلاميون عليها : وقعة حطين المباركة على
المؤمنين (٦٢٤) ، وتغنى الشعراء ، وهم يعبرون عما في نفوس الناس (٦٢٥) .

(٦٢١) وكان من أفرج عنهم الأمير باليان الثاني دى إبلين الذى تزوج الملكة ماريا كومنين أرملة
عمورى الأول .

الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨١٢ .

(٦٢٢) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨١٢ وانظر الروضتين ج ٢ ص ٧٩ و

Kerr, The crusades, P. 48 .

(٦٢٣) النوادر السلطانية ص ١٢٥ .

(٦٢٤) نفس المصدر ص ١١٩ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١ .

(٦٢٥) قال ابن الساعاتى قصيدة أولها :-

جلت عزماتك الفتح المبينا
فقد قرّت عيون المؤمنيننا
النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤

وقال العماد :

حطمت على حطين قدر ملوكهم
بطون ذئاب الأرض صارت قبرهم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
ولم تزل أرض أن تكون لهم رقسا

وكان لهذا النصر الكبير في حطين مابعده حيث كان له أثره الكبير في فتح الطريق إلى بقية الممتلكات الفرنجية ، وكان سببا لفتح بلاد الساحل (٦٢٦) وكان بدء صلاح الدين بالمدن الساحلية لأنه كان يرمى من وراء ذلك إلى هدفين :

أولهما : حصر الفرنج في بلاد الشام ، وحرمانهم من الاتصال بغرب أوروبا . وثانيهما : تحقيق الاتصال السريع بين شطرى دولته في مصر والشام (٦٢٧) .

وقد نجح صلاح الدين في الاستيلاء على عكا وغزة وحيفا وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من الثغور الساحلية ، كما استولى على بعض الأماكن القريبة من القدس مثل الرملة والخليل وبيت لحم ونابلس (٦٢٨) ، وتآهب بعد ذلك على رأس عساكر مصر لحصار القدس (٦٢٩) .

وقال في وصف ما فعل بأسرى الفرنج وقتل رينالد :

يايوم حطين والأبطال عابسة . وبالعجاجة وجه الشمس قد عيسا
رأيت فيها عظيم الكفر مختصراً معضراً خده والأنف قد تعسا
ياظهر سيف برى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص إذطار ذك الرأس في دمه كأنه ضفدع في الماء قد غطسا
الكيلانى ص ٣٠

(٦٢٦) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ وسوريا ولبنان وفلسطين .

وانظر Saunders, A history of Medieval Islam, P 165

(٦٢٧) تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٨٠ و Stevenson, The crusaders in the East,

P 249

(٦٢٨) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٧٢ وقرة جلى ص ٢٤٥ وانظر

Brokelman, history of Islamic People, P 228

(٦٢٩) وهذا يدل على أن صلاح الدين أصبح يعتمد على العسكر المصرى في المعارك الحاسمة .

الناصر صلاح الدين ص ١٤٦ .

فتح بيت المقدس :-

تقدّم صلاح الدين إلى بيت المقدس لتخليصه من الفرنج (٦٤٠) ، فرأى على سوره من الرجال ما هاله ، وكان من به صمموا على الدفاع عنه ، وكلهم « يرى الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس ، ويأخذوه منهم ، ويرى أن بذل نفسه أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس ، ويأخذوه منهم ، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه (٦٤١) » ، وقد حصنوا المدينة ماوسعهم التحصين ، ونصبوا المنجنيفات لتحول دون دخول المسلمين ، وتمكنت حامية المدينة فعلاً من قتل بعض جنود صلاح الدين الذين خرجوا ليكونوا يزكاً (٦٤٢) .

ولكن صلاح الدين الذي كان مصمماً على تحليص بيت المقدس ظل خمسة أيام يمر على سور المدينة يبحث عن أضعف الأماكن فيه ، ليهاجمها منه ، ووجد ذلك في الجهة الشمالية نحو عمود أو كنيسة صهيون (٦٤٣) ، وتمكن في الليل من نصب منجنيقاته حيث بدأ يصب حممها على المدينة في الصباح ، ودارت معركة رهيبه بين الطرفين ، وحارب الفرنج بكل قوتهم ، (٦٤٠) وكان فتح بيت المقدس أملاً إسلامياً ، حتى كان الشعراء يمرضون صلاح الدين على فتحه فقال العماد :

فسر . وافتح القدس واسفك به دماءً ماتجرها ينظف
واهد إلى الاسبتار البتار ، وهد السقوف على الأسقف
كيلاني ص ٣٠٥

ومن أطرف التحريض مقاله أحد الشعراء على لسان بيت المقدس :

يأبها الملك الذي لمعالم الصليبان نكس
جاءت إليك ظلامه تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت وأنا على شرف منجس
نفس المصدر ص ٣٠٥

(٦٤١) الكامل ج ٩ ص ١٨٢ .

(٦٤٢) اليزك : والجمع أيزك ومعناها الطلائع . التعريف بمصطلحات صحح الأعشى ص ٣٦٤ .

(٦٤٣) مختصر تاريخ ابن العبري ص ٢٢٠ .

وقاتل المسلمون أشد قتال ، ووصف ابن الأثير ذلك بقوله « فأصبح « صلاح الدين » من الغد قد فرغ من نصبها ، ورمى بها ، ونصب الفرنج على سور البلد منجنقات ، ورموا بها ، وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً ، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني (٦٣٤) » ، وتمكن رجال صلاح الدين من نقب السور ، وزاد قتال المسلمين ، وتحكموا في رمى منجنقاتهم على الفرنج ، حتى أدرك هؤلاء الأماة أمامهم من طلب الأمان من صلاح الدين ، وسعى في ذلك كبارؤهم ، حتى أجابهم صلاح الدين بعد طول رجاء ، على أن يدفعوا عن الرجل عشرة دنانير ، يستوى في ذلك الغنى والفقير ، وعن الطفل دينارين وعن المرأة خمسة دنانير ، وأن يتم ذلك في بحر أربعين يوماً ، فإذا انقضت المدة ، فكل من لم يدفع يصبح مملوكاً للمسلمين (٦٣٥) .

ورتب الصلح على هذا الأساس ، وسلمت المدينة إلى صلاح الدين يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م (٦٣٦) ، وكان يوماً مشهوداً ، ورفعت الاعلام الاسلامية على الأسوار (٦٣٧) .

وقد خطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين في أول جمعة صليت بالقدس بعد الفتح ، وكان هو الذي قال للسلطان يوم فتح حلب :
وفتحه حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتح القدس في رجب (٦٣٨)

وهكذا عاد بُيت المقدس إلى أحضان المسلمين على يد صلاح الدين الأيوبي ودوى صوت المؤذن في المسجد الأقصى وسكت ناقوس

(٦٣٤) الكامل ج ٩ ص ١٨٢ .

(٦٣٥) الفتح القسى ص ٥٣ والنوادر السلطانية ص ١٢٩ وانظر مختصر تاريخ ابن العبري ص ٢٢١ .

(٦٣٦) Ency. de L'Isi, (art al- Kuds) T. 2, 1165- 6

(٦٣٧) الكامل ج ٩ ص ١٨٣ و Brokelman, history of Islamic people, P. 229

وقرة جليبي ص ٢٤٥

(٦٣٨) انظر الخطبة في ملاحق هذا الكتاب .

المسيحيين (٦٣٩)، وقد تم تحرير بيت المقدس على أيدي العسكر المصرى وهذا من شأنه أن يكون أمراً « تفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار (٦٤٠) » .

وقد رتب صلاح الدين على كل باب من أبواب مدينة القدس أميناً يجمع الجزية التى قدرها على الناس ، وكان يمكن لهذه الأموال لو جمعت أن تكون ثروة عظيمة ، حيث كان أهل بيت المقدس « على الضبط ٦٠ ألف رجل مابين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان (٦٤١) » غير أن هؤلاء الأمناء المرتبين استعملوا الخيانة ، ولم يؤدوا فيه الأمانة ، واقتسم الأمناء الأموال ، وتفرقت أيدي سبا ، « ولو أديت فيه الأمانة لملا الخزائن وعم الناس (٦٤٢) » .

وقد اختلف سلوك المسلمين حيال الفرنج ، فقد اختلف تمام الاختلاف عن سلوك الفرنج عندما دخلوا تلك المدينة منذ ثمانى وثمانين سنة مما استوجب شهادة المؤرخين الأجانب بذلك ، فقال رنسيهان : « الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والانسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمانى وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الاشخاص مكروه ، إذ صار رجال الشرطة ، بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين (٦٤٣) » .

أما ابن الأثير - وكان ممن لا يميل إلى صلاح الدين - فقال : « وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله

(٦٣٩) موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٥ ص ٦١٨ .

(٦٤٠) الفتح القسى ص ٣٩ .

(٦٤١) الكامل ج ٩ ص ١٨٣ ودول الاسلام ج ٢ ص ٩٥ وقدرهم العماد بيهاتة ألف . الفتح

القسى ص ٤٣ .

(٦٤٢) نفس المصدر ج ٦ ص ١٨٣ وتتمة المختصر فى اخبار البشر ج ٢ ص ٩٧ .

(٦٤٣) رنسيهان ج ٢ ص ٧٥٢

عنه ، غير صلاح الدين رحمه الله ، وكفاه ذلك فخراً وشفراً (٦٤٤) .

وكانت رنة الفرح التي سادت المسلمين بعودة بيت المقدس تفوق كل خيال ، أطلقت العنان للشعراء المسلمين ليعبروا عن احساس الشعب لاسلامى بهذا الفتح المين (٦٤٥) .

قد قال صلاح الدين بعد استسلام القدس : « ومتى يسر الله فتح بقية لساحل قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم ، وأتبعتهم فيه حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله وأموت (٦٤٦) .

استسلام حصنى الشوبك والكرك :-

كانت السيدة ستيفانى سيدة إقطاع ماوراء نهر الأردن إحدى أسيرات

(٦٤٤) الكامل ج ٩ ص ١٨٦ .

(٦٤٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٥٤ .

(٦٤٦) وقد ذكر فتح صلاح الدين القدسى الشعراء بعمر بن الخطاب فمن ذلك قول ابن ساعتي :

ليت فسى الخطاب شامد فتحها فيشهد أن السيف من يوسف أضى الكيلانى ص ٣٩٥ .

وقال في نفس المعنى يمدح صلاح الدين :

والفتاح البيت المقدس بعدما ضيلة فتح كان ثانى خليفة تحامته سادات الدنيا وأسودها من القوم مبيديا وأنت معيدها نفس المصدر ص ٣٩٦

وللنسابة الجوانى قصيدة مليحة يقول فيها :

أترى مناماً ما يعينى أبصر قد جاء نصر الله والفتح الذى

القدس تفتح والنصارى تكبر وعُد الرسول فسيحوا واستغفروا دول الاسلام ج ٢ ص ٩٥

وقال العماد لصلاح الدين :

فأنت الذى من دونهم فتح القدسأ فاذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا بأن أذان القدس قد بطل النقسا شعر الجهاد ٦ / الهرقى ص ١٦٤ ، ١٦٥

فلايستحق القدس غيرك فى الورى وطهرته من رجسه بدمائهم وقد شاع فى الافاق عنك بشارة

صلاح الدين ، وتم فداؤها في بيت المقدس ، كما وافق صلاح الدين كذلك أن يفرج عن ابنها همفري صاحب تبين على شريطة أن يستسلم له حصنها الكبيران « الشوبك والكرك » ، ولكن حامية الحصنين رفضا الانصياع لأوامرها ، مما دفع بها الى أن تعيد ابنها إلى أسر صلاح الدين ، فقابل صلاح الدين تصرفها الحميد بأن أطلق سراح همفري لها .

وفي تلك الأثناء وصل الملك العادل أخو صلاح الدين ، وحاصر حصن الكرك مايزيد عن سنة (٦٤٧) ، وعرض أهلها للهلاك جوعاً حتى أذعنوا بالاستسلام بعد أن أكلوا آخر حصان تبقى لديهم (٦٤٨) ، وبعد أن لم يعد لديهم للصبر مجال (٦٤٩) وكان استسلامهم في سنة ٥٨٤ هـ / آخر سنة ١١٨٨ م ، وكذلك استسلمت حامية الشوبك بعد تسليم الكرك بعدة شهور (٦٥٠) ، وكان هذا فتحاً حليلاً بالنظر إلى قيمة هذين الحصنين وخطورتهما ، وبذلك « فرغ القلب من تلك الناحية ، وألقى الاسلام هناك جراحه ، وأمنت قلوب في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ، ومن شرهم مشفقين (٦٥١) » .

صور :-

كانت صور مركز استقبال للفرنجة الذين سلموا مواقعهم حيث طلبوا الهجرة إليها بأسلحتهم ، ووافق صلاح الدين على ذلك ، أما كونراد دي مونتفرات Conrad de Montefrat الملقب بالمركيس (٦٥٢) الذي وصلها قادماً

(٦٤٧) رنسيان ج ٢ ص ٧٥٧ .

(٦٤٨) نفس المصدر ج ٢ ص ٧٥٧ .

(٦٤٩) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧١ وفيما أصاب الكرك في هذه الحرب قال ابن سناء الملك :

هل الكرك الشكلى بأولادها انتهت عن النسئل مما جرعته من الشكل

الهرقى ص ٣٧٥

(٦٥٠) وهكذا استسلم الحصنان بعد وفاة نور الدين بنحو ١٤ عاماً كاملاً .

مصر والشام والصليبيون ص ١٣٤

(٦٥١) الكامل ج ٩ ص ١٩٦ والروضتين ج ٢ ص ٩٦ .

(٦٥٢) الكامل ج ٩ ص ١٨١ وهو شقيق أول زوج للملكة سيلا - رنسيان ج ٢ ص ٧٦٢ .

من القسطنطينية (٦٥٦) فوجدتها لقمة سائغة بعد فرار ريموند الثالث إلى طرابلس ، ولم يكن مونتفرات يعلم بإحلال الفرنج من المصائب في الشام ، وكلا يؤسر في عكا على يد المسلمين ؛ ولقى كونراد دي مونتفرات الترحيب في صور على أنه متقد المدينة (٦٥٤) التي كان صلاح الدين ترك حصارها حتى « يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها » وذلك نظراً لقوة حصانتها « فكان ذلك سبب حفظها (٦٥٥) » .

وأصبح مونتفرات ملكاً على صور ، وأخذ يعمل على تحصينها بحفر ق عميق حولها وعمل أسواراً جديدة ، حتى صارت صور معقلاً منيعاً نج يصعب اقتحامه (٦٥٦) .

وقد أرسل جوسياس Josias رئيس أساقفه صور إلى غرب أوروبا يطلب النجدة من البابوية وملوك غرب أوروبا (٦٥٧) .

وقد أخفق صلاح الدين فعلاً في استرجاع صور مرة بعد خطين وأخرى بعد تحرير بيت المقدس نتيجة للجوء الفرنج المهزومين من قلاعهم إليها (٦٥٨) وزعامة كونراد دي مونتفرات : ويلقى ابن الأثير المسئولية على صلاح الدين في ذلك حيث يقول : « ولم يكن لأحد ذنب في أهلها غير صلاح الدين : فإنه جهز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال

(٦٥) وكان حقاً فيها غيراته تورط في جريمة قتل وقع بها ، فهرب سراً متوجهاً إلى فلسطين ، ج أولاً على عكا التي كانت سقطت في يد صلاح الدين ، ولم يكن يعلم بذلك ، فبادر بالمسارعة إلى صور .

(٦٥٤) رنسيان ج ٢ ص ٧٦٢ .

(٦٥٥) الكمل ج ٩ ص ١٨١ و Kerr, The crusades, P. 49

(٦٥٦) Grousset, histoire des croisades, T. 2 PP. 822- 823

(٦٥٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٤٢ .

(٦٥٨) الفتوح التي ص ٥٧ .

غيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ، ووعدهم بالنصرة ، وأمرهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم التي يحتمون بها ويلجئون إليها فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها (٦٥٩) ثم يقول موجها اللوم إلى صلاح الدين : ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفراطاً مضيعاً للحزم ، وأعذر له عند الناس (٦٦٠) ، ويفهم من هذا أن ابن الأثير كان يرى أن التسامح والعتو - وهما خصلتان تميز بها صلاح الدين في حروبه مع الفرنج - كانا خطأ من صلاح الدين ، في تعامله معهم ، ولو أنه اتخذ معهم سياسة أكثر عنفاً ما وجدت مشكلة صور ويوافقه في ذلك لين بول أحد مؤرخي الغرب - ضمناً - بحديثه عن هزيمة صور بالنسبة لصلاح الدين حيث يقول : « كانت هزيمة صور نقطة تحول في تاريخ انتصارات صلاح الدين . لقد كانت هزيمة ساحقة وغلظة يصعب علاجها ، إذ أصبحت صور بعدها نقطة تجمع فيها الصليبيون وانتشروا منها في سواحل فلسطين . ولولم تكن هذه المدينة الواحدة قد نجحت في مقاومتها لكان من المحتمل ألا يسمع العالم أبداً بالحرب الصليبية الثالثة (٦٦١) » .

ولعله يشفع لصلاح الدين أنه كان يرمى من وراء السباح للفرنج بالتجمع في مدينة صور أن يتمكن من مواجهة جنود الأعداء مجتمعين في مكان واحد بدلاً من توزيعهم وتشتتهم في أماكن عديدة ولكنه كان يمكنه ألا يسمح لهؤلاء أن يهاجروا إلى صور بأسلحتهم إذا كان تجريدهم من أسلحتهم أمراً يتفق مع العفو عنهم وهم مهزومون (٦٦٢) .

كذلك يشفع له أنه استولى على العديد من مدن الساحل مما كان يصلح

(٦٥٩) الكامل ج ٩ ص ١٨٧ .

(٦٦٠) الكامل ج ٩ ص ١٨٧ .

(٦٦١) مصر والشام والصليبيون ص ١٥٤ .

(٦٦٢) وهذا ما كان يلجأ إليه الظاهر بيرس في حروبه مع أعدائه

محاطاً لجنود صليبيين يقدمون من البحر ، دون الوقوف عند صور التي قد يستلزم حصارها وقتاً طويلاً يكفي لوصول الحملة الصليبية الجديدة التي كان تحركها أمراً محتوماً ، ونزول قواتها في أماكن مستعدة للترحيب بها في عكا ويافا وحيفا وأرسوف وغيرها من المواقع الممتدة على الساحل الشمالي مما يتسبب في تمزيق جيوش المسلمين ، وإصابتها بضربة قاصمة (٦٦٣) .

وعلى أية حال فإنه لم يبق من مملكة بيت المقدس الصليبية سوى مدينة صور التي لم يتمكن صلاح الدين من استرجاعها لحصانتها ، ولتمركز الفرنج المهاجرين من المواقع التي هزموا فيها إليها (٦٦٤) ، ولم يكن للفرنج في شمال المملكة سوى أنطاكية وطرابلس وحصن المرقب التابع للاستتارية ، وبذلك اعتدل ميزان القوى في المنطقة لصالح العرب (٦٦٥) ، وفي ذلك يقول باركر : « ارتدت عقارب الساعة الى الوراء ، وعادت الأمور من جديد إلى ماكانت عليه قبل الحملة الصليبية الأولى (٦٦٦) » .

وقد ازداد حال الفرنج سوءاً حيث بدءوا يعتقدون أن السماء توليهم ظهرها غير راضية لمسلك المسيحيين تجاه المسلمين ، وذلك « بسبب المصائب التي سمح الرب بتواليها على رؤوسهم ، وإلا فكيف لصلاح الدين أن يسترد منهم في ضربة واحدة تقريباً الأراضي التي اكتسبها المسيحيون بكثير من الدماء والتضحية (٦٦٧) » .

(٦٦٣) مصر والشام والصليبيون ص ١٥١ .

(٦٦٤) Stevenson, The crusaders in The East, PP. 224- 225

(٦٦٥) الوحدة وحركات اليقظة / جوزيف نسيم ص ٢٩ .

(٦٦٦) الحروب الصليبية . باركر ص ١٠٦ .

(٦٦٧) وكيف سَمَحَ (فيما بعد) بفرق فردريك في مياه نهر ضحاة عندما ذهب ليمد يد المعونة .

رد الفعل الأوربي أو : الحملة الصليبية الثالثة

وقد تمثل رد الفعل الغربى الأوربى الذى أصيب بالذعر لفقد بيت (٦٦٨)المقدس ، ومباتلاه من احتلال كثير من القلاع مثل : اللازقية ، وجبله ، والكرك والشوبك ، وصفد ، وكوكب ، وانطرسوس ، تمثل رد الفعل هذا فى حملة صليبية جديدة هى الحملة الثالثة ، تلك الحملة التى كان كونراد دى مونتفرات من المحرضين عليها بعد أن تمكن من صور وذادَ عنها بشجاعة أحبطت جهود صلاح الدين للاستيلاء عليها ، وذلك حيث أرسل إلى الغرب يلتمس النجدة (٦٦٩) ، وكان من أقوى الوسائل التى استخدمها فى طلب النجدة لوحة كبيرة بعث بها إلى الغرب ، وجرى الطواف بها فى أوربا وهى تمثل القبر المقدس وقد لوثته خيول المسلمين (٦٧٠)أو صورة لرجل عربى يضرب المسيح ، والدماء تسيل على صورة المسيح وقالوا لهم : هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين (٦٧١) ، وتولى أمر التبشير بالحملة الصليبية البابا جريجورى الثامن الذى أرسل خطاباً دورياً يحث فيه الغربيين على التطوع فى حملة صليبية جديدة لانقاذ إخوانهم فى الشام (٦٧٢) ، وتوفى جريجورى الثامن دون أن

Saunders, a history of Medieval Islam, P 156 (٦٦٨)

Michaud, histoire des croisades. (٦٦٩)

T. 2, PP, 314- 315

Kerr, The Crusades, P. 51.

(٦٧٠) الحروب الصليبية / باركر ص ١٠٩ .

(٦٧١) الكامل ج ٩ ص ٢٠١ والعلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٧٣ .

(٦٧٢) روما وبيزنطة ص ٢٨٢ وانظر نص الخطاب فى

Documents of Medieval history PP. 64- 67

وكان البابا اربان الثانى قد مات من هول الصدمة عندما علم بسقوط بيت المقدس .

Kerr, The crusades P. 51

يرى ثمار دعوته للملوك غرب أوروبا (٦٧٣)، ليتولى أمر تلك المهمة بعده البابا كليمنت الثالث Clement III الذي أمر أساقفته في كل مكان أن ييسروا بحرب صليبية جديدة (٦٧٤)، وأمر بإقامة صلوات خاصة في سائر الكنائس من أجل استعادة بيت المقدس (٦٧٥).

وقد قوبلت الدعوة إلى الحملة الصليبية الثالثة بحماس زائد شبيه بالحماس الذي غمر غرب أوروبا أيام التبشير بالحملة الصليبية الأولى (٦٧٦)، وبناء على ذلك فقد اشترك الغرب الأوربي بكل ما يملك من إمكانيات في تلك الحملة، حتى النساء اشتركن فيها وجندن كما يجند الرجال (٦٧٧)، فقد خرج إلى الشرق ملك ألمانيا فردريك برباروسا، كما قصد الشرق كذلك كل من ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس ملك فرنسا. وقد فتكت الظروف بالجيش الألماني الذي كان أضخم جيش مستقل خرج إلى حرب صليبية، حيث بلغ تعداده مائة ألف محارب (٦٧٨)، فقد هلك الامبراطور غريقاً في مياه نهر السالف في بلاد أرمينيا (٦٧٩)، ولم يبق من كل جيشه هذا سوى ألف رجل واصلوا سيرهم بقيادة فردريك السوابي ابن ملك ألمانيا (٦٨٠).

وبذلك اقتضت الحملة على ملكي انجلترا وفرنسا وبينهما ما بينهما من

Kerr, The crusades, P 51 (٦٧٣)

Ibid, P. 51 (٦٧٤)

(٦٧٥) أوروبا وبيزنطة ص ٢٨٧

(٦٧٦) روما وبيزنطة ص ٢٨٧

(٦٧٧) الكامل ج ص ٢٠١

Cam. Med. History Vol 5, P 411 (٦٧٨)

Grpusset, histoire des croisades T3, P. 10

Lone- Poole, Saladin, PP. 197- 207

(٦٧٩) أوروبا العصور الوسطى / فبشر ص ١٩١

(٦٨٠) الحروب الصليبية / باركر ص ١١٣ وسوريا وفلسطين ولبنان ص ٢٣٩

حسد قومي ، وأزرهما المدن الإيطالية جنوة وبيزة وبينهما دخن وسوء سيرة مضافاً إلى ذلك كونراد دى مونفترات وجى لوزجنان ، وتنافسهما في سبيل تاج بيت المقدس الذي لم يوجد إلا رمزاً بعد ذهاب مملكة بيت المقدس وأرضها إلى صلاح الدين (٦٨١).

ويضيق الحديث في هذا الكتاب عن الحديث الكامل عن تلك الحملة الصليبية الثالثة ، ويكفى أن نبين نتائج هذه الحملة والتي يمكن أن نلخصها في ثلاثة أشياء :

١ - تمكن الصليبيون الجدد يعاونهم الفرنج المقيمون في استعادة بعض المواقع التي استولى عليها صلاح الدين من عكا إلى يافا .

٢ - تمكن صلاح الدين من إثبات قوة المسلمين في هذا الدور ، وتمكن من حفظ بيت المقدس بعد القيام بتحصينه .

٣ - انتهت الحملة الثالثة بتوقيع صلح الرملة في يوم الثلاثاء ٢١ شعبان سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م (٦٨٢) ، وبمقتضى ذلك الصلح :-

أ - احتفظ كل فريق بما في يده ، فأصبح للفرنج من صور إلى يافا بما فيها قيسارية ، وحيفا ، وأرسوف ، وللمسلمين على الساحل الشامي صيدا وبيروت وجبيل ومعظم داخلية البلاد وأن تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين (٦٨٣) .

ب - تخريب أسوار مدينة عسقلان التي كان ريتشارد قد حصنها ، وذلك لتكون منطقة منزوعة السلاح No man's Land .

ج - يسمح للمسيحسبن بأن يحجوا إلى بيت المقدس في حرية وأمان دون تدخل من المسلمين .

(٦٨١) أوروبا العصور الوسطى / فيشر ص ١٩١ .

(٦٨٢) العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٢ وقره جلي ص ٢٤٦ وانظر Brokelman, history of Islamic People, P. 229

(٦٨٣) العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٨٤ .

د - يتولى الملك العادل أخو صلاح الدين - ويمثله في مفاوضات الصلح - حكم مدينة بيت المقدس .
هـ - تكون مدة هذه الهدنة ثلاثة أعوام وثمانية أشهر ، هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر (٦٨٤) .

وقد شهد رسل الفرنج الذين حضروا مفاوضات الصلح بنكاية صلاح الدين في العدو فقال أحدهم « ما عمل أحد في الاسلام ماعملت ، ولاهلك من الفرنج مثل ماهلك منهم هذه المدة ، فإننا أحصينا من خرج الينا من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف ما عاد منهم إلى بلاده من كل عشرة واحد ، بعضهم قتلهم أنت وبعضهم غرق (٦٨٥) » .

وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً ، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب (٦٨٦) . وهذه أول مرة تنتهي حملة صليبية إلى صلح أو اتفاق يجمعهما على التعايش وقبول الواقع Modus vivendi (٦٨٧) .

ولاشك أن النجاح كان من نصيب المسلمين وقد عبر عن ذلك لين بول فقال : « قبل انتصار حطين لم يكن في يد المسلمين بواصة واحدة من أرض فلسطين غربى الأردن ، وبعد صلح الرملة في سبتمبر سنة ١١٩٢ ، فقد أصبحت جميع الأراضى ملكاً لهم ماعدا جزء ضيق من الساحل بين صور وبيافا (٦٨٨) » .

(٦٨٤) الكامل ج ٩ ص ٢٢١ والعلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٨٣ ، ١٨٤ وانظر

Kerr, The crusades, P. 58

ويجعل صاحب السلوك وابن الفرات المصرى مدة هدنة ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر .
السلوك ج ١ ق ١ ص ١٧٧ وابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٨٤ .

(٦٨٥) الكامل ج ٩ ص ٢٢٢ .

(٦٨٦) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٨ والنوادر السلطانية ص ٣٩٠ .

(٦٨٧) العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٨٤ .

(٦٨٨) سيرة القاهرة ص ١٥٥ .

أما الحملة الصليبية الثالثة فقد كانت حملة فاشلة ، وكان الصلح نصراً
لصلح الدين « حيث كان إيذاناً بعودة ريتشارد إلى بلاده دون أن يحقق
الأمّل الذي كء من أجله إلى الشرق حيث كان الهدف الأساسي للحملة
هو استرداد بيت المقدس (٦٨٩) » ، كما كان من أهدافها شل قوة السلطنة
المضرية المتصاعدة ، وانتهت الحملة بالفشل وقوة مصر موضع لمهابة
عظمى تكاد تبلغ حد الخرافة (٦٩٠).

ولخص فيشر مبلغ فشل الحملة مقاساً إلى ما حصلت عليه حيث قال أنها
لم تأت بشيء يذكر : « ماعدا استيلاء الصليبيين على عكا ، وموافقة
صلاح الدين على هدنة تضمن للحجاج المسيحيين حرية الوصول إلى
كنيسة القيامة ببيت المقدس » ثم يقول : « ومن هذه النتيجة تتضح شناعة
الخاتمة التي حلت بها عقد على تلك الحملة من آمال (٦٩١) » .

ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين وقع على هذا الصلح تحت ضغط
الظروف حيث رأى فيه المصلحة لسامة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة ، وقد
قال ابن شداد مؤكداً ذلك : « والله العظيم ، إن الصلح لم يكن من
إيثاره ، فإنه قال في بعض محاوراته في الصلح : أخاف أن أصلح ، وما
أدرى أى شيء يكون فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ،
فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ، ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد
في رأس قلعتة - يعنى حصنه ، وقال : لا أنزل فيهلك المسلمون » ثم
قال : « هذا كلامه ، وكان كما قال ، ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسامة
العسكر وتظاهرهم بالمخالفة (٦٩٢) » .

على أن هذا الصلح كان فعلاً في مصلحة المسلمين ، حيث لم يلبث

(٦٨٩) أوروبا العصور الوسطى / ديفيز ص ١٩٧ .

(٦٩٠) أوروبا العصور الوسطى / سعيد عاشور ص ١٩٣ .

(٦٩١) أوروبا العصور الوسطى / فيشر ص ١٩١ وانظر رنسيان ج ٣ ص ١٤٥ و

Saunders, a history of Medieval Islam, P. 165

(٦٩٢) النوادر السلطانية ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

صلاح الدين أن توفي بعد توقيع الصلح في صفر سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، وقد عبر ابن شداد عن ذلك حيث قال : « وكان (أى الصلح) مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له (٦٩٣) » .

وكانت وفاة صلاح الدين في الخامسة والخمسين من عمره حدثاً عظيماً وقع بالأمة الاسلامية وكان يوم وفاته « يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى » ، ويضيف ابن شداد « وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا ضرب من من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس^(٦٩٤) ، وقد غشى الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته (٦٩٥) ، وعبر الذهبي عما أصيب به أهل دمشق فقال : « لقد غشى أهل دمشق يوم موته من البكاء والعيول والضجيج ما لا يعبر عنه ، حتى كأن الدنيا كلها تصبح صوتاً واحداً ، وعظم الأسف واشتد القلق (٦٩٦) » .

وقد أجمع المؤرخون في الشرق والغرب على عظمة صلاح الدين ، ولعلنا نبدأ بما قاله عنه ابن الأثير - وكان لا يميل إليه كما عرفنا - « وبالجملة فكان نادراً في عسكره كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار ، وفتوحه تدل على ذلك (٦٩٧) » .

وقال العماد الكاتب : « مات بموت السلطان الرجال ومات لوفاته

(٦٩٣) النوادر السلطانية ص ٣٩١ .

(٦٩٤) النوادر السلطانية ص ٤١٠ .

(٦٩٥) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٨٦ وتتمة المختصر ج ٢ ص ١٠٧ .

(٦٩٦) دول الاسلام ج ٢ ص ١٠٤ .

(٦٩٧) الكامل ج ٩ ص ٢٢٦ .

الافضال ، وغاصت الأيادي ، وفاضت الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ،
وادلهمت الأفاق ، وفجع الزمان بواحدته وسلطانه ورزىء الإسلام بمشيد
أركانه (٦٩٨).

وقال الذهبي « مات السلطان الكبير المجاهد في سبيل الله الملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب (٦٩٩) ».

وعرف المؤرخون المحدثون قيمة صلاح الدين يستوى في ذلك الغربيون
والشرقيون ، فجعل باركر من أسباب فشل الحملة الصليبية الثالثة أنها
حاربت جيوشاً « انضوت تحت لواء قائد مثل صلاح الدين (٧٠٠) ».

وقال رنسيان أن صلاح الدين « أثبت بالدليل القاطع مالدى الشرق
من قوة وروح ، ففى وقعة قرون حطين ، وعلى أبواب بيت المقدس ،
انتقم صلاح الدين لما حدث فى الحرب الصليبية الأولى من المهانة
والإذلال ، وأثبت كيف يحتفل الرجل الشريف بانتصاره (٧٠١) ».

ووصفه سوندرز بأنه « بطل العالم الاسلامى الذى احترم من أعدائه
المسيحيين كـانـمـوـذـجـ لـلـفـرـوسـية الشريفة (٧٠٢) ».

أما سيديو فقال : « مات صلاح الدين وأعداؤه يعجبون من علو
همته ، والمسلمون يأسفون على فقدته ».

أما مقاله المؤرخون الاسلاميون المحدثون فكثير فقال أحدهم : « لقد
كان قائداً موهوباً تمثلت فى شخصه كل المعانى التى كانت تدور فى نفوس
العرب والمسلمين فأبرزها باسم العرب والمسلمين (٧٠٣) ».

(٦٩٨) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٨٧ .

(٦٩٩) دول الاسلام ج ٢ ص ١٠١ .

(٧٠٠) الحروب الصليبية لباركر ص ١١٨ وانظر البحرية الاسلامية ج ١ ص ٢٩٢ .

(٧٠١) رنسيان ج ٢ ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ .

(٧٠٢) Saunders: A history of Medieval Islam, P. 165

(٧٠٣) موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٥ ص ٦٢٣

وقال غيره : « وقد ترك صلاح الدين فراغاً بموته ، ففقد الاسلام به بطله وناصره ، إذا أنه لو مد عمره أكثر من ذلك لتمكن حتماً من القضاء على دولة الفرنجة في الشرق (٧٠٤) » وقال أنه « صورته الشرق اللامعة حينها يجد الزعيم الكفاء والقائد المخلص ، فينطلق إلى غايته من المجد والقوة ، والعزة والسلطان (٧٠٥) ، وقال مؤرخ ثالث : « أما مكانة صلاح الدين في التاريخ فستظل عظيمة أبد الدهر ، إذ يكفي ما قام به في سبيل توحيد صفوف المسلمين والدفاع عن كياناتهم ، ثم مواصلة الجهاد في صورة لاتعرف الملل لطرده الغزاة الدخلاء (٧٠٦) » .

وقد حظى صلاح الدين الأيوبي بعناية فائقة من الشعراء والأدباء لم يحظ بها أحد غيره من أبطال الحروب الصليبية على الإطلاق ، وقد رثاه الشعراء بالكثير من المراثي (٧٠٧) .

(٧٠٤) العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٨٥ .

(٧٠٥) الناصر صلاح الدين ص ١٩٤ .

(٧٠٦) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١١ .

(٧٠٧) شهر الجاد في عصر الحروب الصليبية ص ١٥٨ .

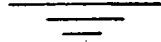
ونكتفى هنا بقول بعضهم :

شمل الهدى والملك عم شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذي لله خالصة صفت نيته
وفيها :

لا تحسبوه شخصاً واحداً قد عمّ كل العالمين بماته
قد أظلمت مذغاب عنا دوره لما خلت من بدرة داراته
الدين بعد أبي المظفر يوسف أقوت قراه وأقفرت ساحاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت من سهلها وركوبها عزماته
ياراعيا للدين حين تمكنت منه الذئاب وأسلمته رعاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوان رب العرش بل صلواته

النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٠ ، ٦١ والروضتين ج ٢ ص ٢١٥

وهكذا مات صلاح الدين الأيوبي بعد أن أرسى دعائم دولته في مصر والشام ، خلفاً وراءه مملكة واسعة الأطراف تمتد من حدود وتونس إلى جبال أرمينيا (٧٠٨) ، وتاركاً وراءه أبناء السبعة عشر وإخوته وأبناء إخوته ، فهل ملأوا الفراغ الذي وجد بوفاته ؟



ملحق رقم ١

« منشور تولية الخليفة العاضد لصلاح الدين وزيراً للديار
المصرية » (٧٠٩)

من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله ، أمير المؤمنين إلى السيد
الأجل ، الملك الناصر مصطفى الأئمة ، منجد الأمة ، صلاح الدين ،
كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى المظفر يوسف بن أيوب
العاضدى عضد الله به الدولة ، وأمتع بطوله بقائه ، أمير المؤمنين . وأدام
قدرته ، وأعلى كلمته ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين ، يحمد الله الذى
لا إله إلا هو . يسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين ، وسيد
المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الأئمة الطاهرين المهديين وسلم
تسليماً .

أما بعد ، فالحمد لله مصرف الأقدار ، ومشرف الأقدار ، ومحصى
الأعمال والأعمار ، وعالم بسر الليل ، وجهر النهار ، وجاعل دولة أمير
المؤمنين ، ملكاً تتعاقب فيه أحوال الأعمار : بين انقضاء وسرار ، واستقبال
أبدار ، وروضاً إذا أوت فيه الدوحات أينعت الفروع ، سابقة النور ،
باسقة الثمار ، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها ، والجواهر
المستخرجة من أمضى نصولها ، والقائم بنصرة دولته ، فلا تزال حتى يرث
الله الأرض ومن عليها ، قائمة على أصولها .

والحمد لله الذى اختار لأمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار ، وأغنائه
باقتضاب الإلهام ، عن رواية الاختبار ، وعضد به الدين الذى ارتضاه ،
وعضده بمن ارتضاه ، وأنجز له من وعد السعد ما قضاه ، بل اقتضاه ،

(٧٠٩) ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٥٧ - ٦٣ وهذا آخر منشور كتب عن الفاطميين ، وانقرض
أمرهم ، وانقضت عرى دولتهم .

ورفع محله عن الخلق ، فكلهم من مضافٍ إليه غير مضاه ، وجعل مملكته عريناً ، لاعتزازها بالأسد وشبله ، ونعمته ميراثاً ، أولى بها ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله . وأظهر في هذه القضية ، وأظهره في كل القضايا من فضله (أمير المؤمنين) وعدله . فأولياؤه كالأيات التى تنسق درارى ألقها المنير ، وتنسق درر عقدها التنظيم النصير : « ما ننسخ من آية أو ننسأها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير . السورة ٢ - البقرة - الآية ١٠٦ ك . »

والحمد لله الذى أتم بأمر المؤمنين ، نعمة الإرشاد . وجعله أولى من للخلق ساد ، وللحق رشاد ، وآثره بالمقام الذى لا ينبغي إلا له فى عصره . وأظهر له من معجزات نصره ، مالا يستغل العدد بحصره- ، وجمع لمن والاه ، بين رفع قدره ووضع إصره ، وجعل الإمامة محفوظة فى عقبه ، والمعقبات تحفظ بأمره ، وأودعه الحكم التى رآه لها أحوط من أودعه ، وأطلع من أنوار وجهه الفجر الذى جهل من ظن غير نوره مطلعته . وآتاه مالم يؤت أحداً . وأمات به غياً ، وأحيا به رشداً ، وأقامه للدين عاضداً ، فأصبح به معتضداً (وحفظ به مقام جده ، وإن رغم المستكبرون ، وأنعم به على أمته إماماً لولاه ماكانوا ينظرون ولا يبصرون و « ماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون . السورة ٨ - الأنفال - الآية ٣٣) .

يحمده (أمير المؤمنين) على ماآتاه من توفيق يذلل له الصعب الجامح . ويدنى منه البعيد أنزاح . ويخلف على الدين صلاحه ، والخلف الصالح ، ويلزم آراءه جدد السعود ، ويريه آيات الإرشاد ، فإنه نار قدح القادح .

ويسأله أن يصلى على (جده) محمد الذى أنجى أهل الإيمان ببعثه ، وطهر بهديه من رجس الكفر وخبثه ، وأجار بأتباعه من عنف الشيطان وعبثه ، وأوضح جادة التوحيد لكل مشرك الاعتقاد مثلته .

وعلى (أيضا) أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، الذى جادلت يده بلسان ذى الفقار ، وقسم ولاءه وعداواته بين الأتقياء والأشقياء ، الجنة والنار ، وعلى الأئمة من ذريتهما ، الذين أذل الله بعزتهم أهل الإلحاد ، وأصفى بما سفكوه من دمائهم ، موارد الرشاد ، وجرت أيديهم وألستهم بأقوات القلوب ، وأرزاق العباد . وسلم ومجد ووالى وجدّد .

وان الله سبحانه ، ما أخلى قط دولة فلان (أمير المؤمنين) التى هى مهبط الهدى ، ومحط الندى ومورد الحياة للولى ، والردى ، للعدا ، من لطف يتلافى الحادثة . ويشبعها ويرأبها ، ونعمة تبلغ بها النفوس مالا تبلغ أربها ، وموهبة تشد موضع الكم ، وتسد موضع الثلم . وتحلى غنائم الغم ، وتحلى مغنم النعم ، وتستوفى شرائط المناجح وتستدنى فوارط المصالح ، ولم يكن ينسى الحادثة فى السيد الأجل ، الملك المنصور ، أسد الدين ، أبى الحارث شيركوه - رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة منقلبه ومثواه - التى كادت لها أوأخى الملك تترزعزع ، ومباني التدبير تتضعضع ، إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين ، العاضد بنور الله من اصطفاؤها ، أيها السيد الأجل ، الملك الناصر - أدام الله قدرتك - لأن تقوم بخدمته بعده ، وتسد فى تقدمه جيوشه مده ، وتقفوفى ولاءه أثره ، ولا تفقد منه إلا أثره ، فوازت الفادحة فيه النعمة فيك . حتى تستوفى حظه منه (أمير المؤمنين) بأجر لا يضيع الله عمله ، فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له وحمله . - واستحق أن ينضر الله وجهه ، بما أخلفه الله من جسمه ، فى مواقف الجهاد ، وبدله ومضى فى ذمام رضا أمير المؤمنين وهو الذمام الذى لا يقطع الله منه ما أمره أن يصله ، واتبع بدعائه بتحف أول ما تلقاه بالروح والريحان ، وذخرت له من شفاعته ما عليه معول أهل الإيمان ، فى الأمان . فرعى الله له قطعة البيداء إليه (أمير المؤمنين) وتجمشمه الأسفار ، ووطأه الموطىء التى تغيظ الكفار ، وطلوعه على الأبواب ، طلوع أنوار النهار ، وهجرته التى تغيظ الكفار ، وطلوعه على الأبواب ، طلوع أنوار النهار ، وهجرته التى جمعت له أجرين : أجر المهاجرين وأجر الأنصار ، وشكر له

ذلك المسعى الذى بلغ من الشرك الثأر ، وبلغ الاسلام الايثار ، ومالقى ربه حتى تعرض للشهادة ، بين مختلف الصفاح ، ومشتجر الرياح ، ومفترق الأجسام من الأرواح . وكانت مشاهدته لأمر المؤمنين أجراً فوق الشهادة ، ومنة الله تعالى عليه بها ، ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، وحتى رآك أيها السيد الأجل الملك الناصر - أدام الله قدرتك - وقد أقررت ناظره ، وأرغمت مناظره ، وشدت سلطانه ، وسددت مكانه ، ورمى بك فأصاب ، وسقى بك فصاب ، وجمعت مافيه من أهبة المشيب ، إلى مافيك من مضاء الشباب ، ولقنت ما أفادته التجارب جملة ، وأعانتك المحاسن التى هى فيك جملة ، وقلب عليك إسناد الفتكات فتقلبت ، وأوضح لك منهاج البركات فتقلبت ، وسددت سهماً وجردت شهماً ، وانتضاك فارتضاك غربا ، وأترك على آثر ولده إمامه فى التدبير وحربا ، وكنت فى السلم لسانه الآخذ بمجامع القلوب ، وفى الحرب سنانه النافذ فى مضائق الخطوب ، وساقته إذا طلب ، وطليعته إذا طلب ، وقلب جيشه إذا ثبت ، وجنحه إذا وثب ، ولا عذر لشبل نشأ فى حجر أسد ، ولا لهلال استملى النور من شمس واستمد .

هذا ولولم يكن لك هذا الاسناد فى هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث لأغنتك غريزة ، وسجية سجية ، وشيمة وسيمة ، وخلائق فيها ما تحب خلائق ، ونحائز لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ماؤها غير آسن ، وماثر جد غير عاثر ، ومفاخر غفل عنها الأول ليتأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال عليك شواهد أنوارها ، تتوضح ، ومساعى مساعد لديك ، كمائم نورها تتفتح ، فكيف وقد جمعت لك فى المجد ، بين نفس وأب وعم ، ووجب أن سألك من اصطفاء أمير المؤمنين ، ماذا حصل ، ثم على الخلق عم ، فيومك واسطة فى المجد ، بين غدك وأمسك ، وكل ناد من أندية الفخار لك ، أن تقول فيه ، وعلى غيرك أن يمسك ، فبشراك

أن أنعمه (أمير المؤمنين) موصولة منكم بوالد وولد ، وأن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأسد .

ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين في سمائه ، ولاه من اختيارك قبله ، وقامت حجته عند الله باستفتائك وزيراً له « ووزرا » للملة ، فناجته مرشد الإلهام ، وأضاءت له مقاصد ، ولا تعقلها كل الأفهام ، وعزم له على أن قلدك تدبير مملكته ، الذي أعرفت في إرثه ، وأغرقت في كسبه ، ومهدّ لك أبعاد غاية في الفخر ، بما يسرّ لك من قربه .

ولقد سبق (أمير المؤمنين) إلى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه ، وذكر فيك قول ربه « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، السورة ٧ - الأعراف - الآية ٥٨ ك » وقلّدك لأنك سيف من سيوف الله تعالى . يحق به التقليد ، وله التقليد ، واصطفاك على علم بأنك واحد منتظم في معنى العديد ، وأحيا سلطان جيوشه سنة جده ، « الإمام المستنصر بالله » في أمير جيوشه الأول ، وأقامك بعده ، كما أقام بعده ولده ، وإنه ليرجو أن تكون أفضل من الأفضل ، وخرج أمره إليك ، بأن يوعز إلى ديوان الانشاء ، ويكتب هذا السجل لك ، بتقليدك وزارته ، التي أحلك ربوتها ، وأحل لك صهوتها ، فتقلد ما قلدك (وزارة أمير المؤمنين) من رتبتهما ، التي تناهت في الأناقة إلا أن لارتبة فوقها ، إلا ما جعله الله للخلافة ، وتبوأ منها صدرأ لا تتطلع إليه عيون الصدور ، وأرنو منها في درجة على مثلها تدور البدور :

« واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . السورة ٣١ - لقمان - الآية ٣٤ ك » .

وقل « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . السورة ٣٥ - فاطر - الآية ٣٤ ك » .

وباشر مستبشراً ، واستوطن متديراً ، وابسط يدك ، فقد فوض إليك الأمر (أمير المؤمنين) بسطاً وقبضاً ، وارفح ناظرك فقد أباح لك ، رفحاً

وخفضاً ، وأثبت على درجات السعادة ، فقد جعل لحكمك تثبيتاً ودحضاً ، واعقد حبي العزمات للمصالح ، فقط أطلق بأمرك عقداً ونقضاً ، وأنفذ فيما أهلك له ، فقد أدى بك نافلة من السياسة وفرضاً وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصرف .

وثقف أود الأيام ، فعليك أمانة التهذيب ، والثقيف ، واسحب ذيول الفخار ، حيث لاتصل التيجان ، واملاً لحظاً من نور الله تعالى ، حيث تتقى الأبصال لجين الأجفان ، وإن هذا هو الفضل المبين ، فارتبطه بالتقوى . التي هي عروة النجاة ، وخيره الحياة ، والممات ، وصفوة ما تلقى آدم من ربه من الكلمات ، وخير ما قدمته النفوس لغدها في أمسها ، وجادلت به يوم تجادل كل نفس عن نفسها ، قال الله سبحانه وتعالى ، ومن أصدق من الله قيلاً : « والآخرة خير لمن اتقى ولا يظلمون قليلاً - السورة ٤ النساء - الآية ٧٧ م » .

وأما القضاة والدعاة : فهم بين كفالتك وهديك ، والتصريف على أمرك ونبيك ، فاستعمل منهم ، من أحسن عملاً ، فأما بالعنايات فلا .

والجهاد : فإنك راضع دره وناشئة حجره ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الجبل مساكنك ، وفي ظلمات مشاكله ، تجلى محاسنك وفي أعقاب نوازله تتلى ميامنك ، فشمّر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحراً من الظبا ، واحلل فيه عقدة كلمات الله ، سبحانه ، وثيقات الحبي ، واسل الوهاد بدماء العداء ، وارفع برءوسهم الربا ، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين ، أن يكون مذخوراً لأيامك ، ومشهود به يوم مقامك ، بين يديه من لسان إمامك .

والأموال : فهي زبدة حلب اللطف ، لا العنف ، وجمّة يمتريها الرفق ، لا العسف ، وما برحت أجد ذخائر الدول للصفوف ، وأحد أسلحتها التي تمضى ، وقد تنبو السيوف ، فقدم للبلاد الاستعمار ، تقدم لك الاستثمار ، وقطرة من عدل ، تزخر البلاد بها من مال بحار .

والرعايا : فهم ودائع الله (لأمير المؤمنين ودائعه لديك) فاقبض عنهم الأيدي ، وابسط بالعدل فيهم يدك ، وكن بهم رءوفاً ، وعليهم عطوفاً ، واجعل الضعيف منهم في الحق قوياً ، والقوى في الباطل ضعيفاً ، ووكّل برعايتهم ناظر اجتهادك ، واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك ، وقلوبهم بالمحبة من أجنادك ، ولوجاز أن يستغنى عن الوصية قائم بأمر ، أو جالس في صدر لاستغنيت عنها بفطنتك الزكية ، وفطرتك الذكية ، ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك ، وأنت من المؤمنين ، وعراة بركة فتلك رايتها باليمين .

والله سبحانه وتعالى يؤيدك ، أيها السيد الأجل ، بالنصر العزيز ، ويقضى للدولة على يدك بالفتح الوجيز ، ولأهلها في نظرك بالأمر الحريز ، يمتع دست الملك بحلى مجدك ، الابريز ، ويقر عيون الأعيان ، بما يظهر لك في ميدان السعادة ، من السبق والتبريز ، ويمليك من نحلته ، بما ملكك أباه ملك التحويز ، ويلحق بك في المجد أو لك ، ويحمد فيك العواقب ولك .

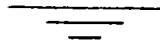
فاعلم هذا من أمره (أمير المؤمنين) ورسومه ، واعمل بموجبه وحكمه ان شاء الله والسلام عليك ورحمة الله وبكاته .

وكتب العاضد لدين الله في طرته بخطه :

وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولن مضى يجيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن أسوة (ولن بقى بقربنا سلوة) تلك الدار الأخرى نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .
السورة ٢٨ - القصص - الآية ٨٣ ك .

ملحق رقم ٢ من كتاب فاضلى إلى الملك العادل بمصر بفتح دمشق على يد صلاح الدين

« وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع العشرين من ربيع الأول وقد توجه صاحبها بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها ، ثم لقينا الأجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين شيركوه رحمة الله عليه وأدام نعمته ، والأمير سعد الدين ابن أنرفى يوم السبت السابع والعشرين . ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب والأجناد الدمشقية إلينا متوافية ، والوجوه على أبوابنا مترامية ، ولم يتأخر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبه ، ومن أعتقد بالقعود أنه نظر لنفسه فى العافية . ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى ، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعتهم (٧١٠) عساكرنا المنصورة وصدمتهم ، وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم . ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قرية عيوننا ، مستقراً سكون الرعية وسكوننا ، وأذعنا فى أرجاء البلد النداء بإطابة النفوس وإزالة المكوس . وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت ، واليد المتعدية قد امتدت إلى أحوالهم وأجحفت ، فشرعنا فى امثال أمر الشرع بزمعها ، وإعفاء الأمة منها بوضعها » .



(٧١٠) الدَّعْسُ : الطَّعْسُ كالتدعس ، والمدعس الرمح يدعس به أى يطعن . ودعت وفق الفتراب على وجه الأرض بالقدم أو باليد القاموس المحيط

من كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٣ . ٦٠٤

رسالة من صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله

« ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائعاً فائقاً ، يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الأفرنج في حياة نور الدين ، ثم فتح مصر واليمن ، وبلاد حجة من اطراف المغرب ، وإقامة الخطبة العباسية بها يقول في أوله للرسول (٧١١) :

فإذا قضى التسليم حق اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء ،
فَلْيَعُدْ وليعدّ حوادث ماكانت حديثاً يفترى ، وجوارى أمور إن قال فيها
كثيراً فأكثر منه ماقد جرى ؛ وليشرح صدرأ منها لعله يشرح منا صدرأ ،
وليوضح الأحوال المسترة فإن الله لايعبد سراً :

ومن الغرائب أن تسير عرائب في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس : أقل ما يكون لها الصدى والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا
يستمير ؛ ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفايح
بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ، ولابد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل
الذي تُرد به الغُضوب ، ونظهر طاعتنا فناخذ بحظ الألسن كما أخذنا بخط
القلوب ، وماكان العائق إلا أننا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف
بالنعمة ، يضاهي ابتداءنا بالخدمة ، وإنجاباً للحق ، يشاكل انجابنا
للسبق ، كان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ،
ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا ، فأى مدينة
فتحت ، أو معقل ملك ، أو عسكر للعدوكسر ، أو مصاف للاسلام معه
ضرب ولم نكن فيه ، فما يجهل أحد صنعنا ، ولا يجحد عدونا أن نصطلي
الجِمره ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندير التعبئة ،

إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها .

وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبيرد وبها دولتها عليه من غلبة صغير كبير ، وأن النظام بها قد فسد ، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل من قام وقعد . والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاتعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة ؛ وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة ، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة فإنها متحامة . وتلك البدع بها على ما يعلم ، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ومحكم ؛ وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم ؛ فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غرة تقلب الذين كفروا في البلاد فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقلها ، ونسترجع للإسلام شاددها ، ونعيد على الدين ضالته منها ، فسرنا إليها في عساكر ضخمة ، وجموع حمة ، وبأموال انتهكت الموجود ، وبلغت منا المجهود ، أنفقناها من حاصل ذمنا وكسب أيدينا ، وثمان أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا ؛ فعرضت عوارض منعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستنجد الفرنج قطعت ، ولكل أجل كتاب ، ولكل أمل باب . وكان في تقدير الله أنا نملكها على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وخطبها ، وعلم أن استئصال كلمة الاسلام محطها ، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون في الشام في هذا الأوان ، بأنا لم ندرك الأمر إلا خرج عن اليد ، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى الغد فسرنا بالعساكر المجموعة ، والأمراء الأهل المعروفة ، إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران ، وتقرر لنا في القلوب ودان : الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم ، وإحياء الحق الأقدم ، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم ، وإمالة عشارهم ، ففعل الله ما هو أهله ، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله ،

وضاقت به سبله ، وأفرج عن السديار بعد أن كانت ضياعها ورسايقها (٧١٢) ، ويلادها وأقاليمها ، قد نفذت فيها أوامره ، وخففت عليها صلبانه ، ونصبت بها أوثانه ، وأيس من أن يسترجع ماكان بأيديهم حاصلًا ، وأن يستنفذ ماصار في ملكهم داخلًا ، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام ، أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر ؛ وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف ، كلهم أغنام أعجم ، إن هم إلا كالأنعام ، لا يعرفون ربا إلا ساكن قصره ، ولا قبله إلا مايتوجهون إليه من ركنه ، وامثال أمره ؛ وبها عسكر من الأرض باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة ، وحة وحميته ، ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داع (٧١٣) تتلطف في الضلال مداخله ، وتصيب القلوب مخاتله ، ومن بين كتاب تفعل أفعالهم أفعال الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر نملها الصغير ، ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع خطرات الضمير ، فكيف بخطوات التدبير . هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر سُمى بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه . فهازلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار ، بعجائب تدبير لا تختملها المساطير ، وغرائب تقدير لا تخملها الأساطير ، ولطيف توصل ماكان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا بالفرنج ، دفعة إلى بلبس ودفعة إلى دمياط ، وفي كل دفعة منها وصلوا بالعدد المجهر ، والحشد الأوفر ، وخصوصاً في نوبه دمياط ، فإنهم نزلوها

(٧١٢) جمع رستاق : لفظ فارسي معناه القرية أو محلة العسكر أو البلد التجاري ، وتعريبها : الرزداق وجمعها الرزداق والرزاديق .

(٧١٣) يقصد به الداعي إلى المذهب الفاطمي أو الاسماعيلي .

بحراً في ألف مركب ، مقاتل وحامل ، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل ،
وحصروها شهرين يياكرونها ويراوحونها ، ويبارسونها ويصاحبونها ،
والقتال الذي يصلبه الصليب ، والقراع الذي ينادى به الموت من كل مكان
قريب . ونحن نقاتل العدو الباطن والظاهر ، ونصابر الضررين المناق
والكافر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من
المصريين والفرنجة ، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان
والأجناد ، فأخرجناهم من القاهرة ، تارة بالأوامر المهينة وتارة بالأمر
الفاضحة منهم ، وطوراً بالسيوف المجردة ، وبالنار المحرقة ، حتى بقى
القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه ، وتمزقت بدعه ،
وخفت دعوته ، وخفيت ضلالتة ، فهناك تم لنا إقامة الكلمة ، والجهر
بالخطبة ، والرفع للواء الأسود المعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه
وفنائه ، وبرأنا من عهده يمين كان إثم حثها أيسر من إثم إبقائه ، لأنه
عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته . ولما خلا درعنا ،
ورحب وسعنا ، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار ، فلم تخرج سنة إلا عن
سنة أقيمت فيها برا وبحرا ، مركبا وظهراً ، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً ،
وملكنا رقابهم قهراً وقسراً ، وفتحننا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها
منذ أخذت من أيديهم ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها
أعدائهم . فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد
الاكتساب ، ومنها قلعة بشفر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو
المسلوك فيه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم ، فساء منه خلقاً ،
وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً ، فكادت القبلة أن يستولى على
أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام ؛
أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم
أن يتطرقه من لا يدين بها جاء به من الاسلام . فأخذت هذه القلعة
وصارت معقلاً للجهاد ، وموثلاً لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد
العباد .

ثم قال : « وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال الملحد ، المبدع المتمرد ، وله آثار في الإسلام ، وثأر طالبه النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات ، وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل مالا يقر لمسلم عليه نفس ؛ ودان ببدعة ، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأباحها ، وأحل الفروج المحرمة وأباحها ، فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا نفقات واسعة ، وأسلحة رائعة ؛ وسار فأخذناه والله الحمد ، وأنجح الله فيه القصد ، والكلمة هنا لك بمشيئة الله إلى الهند سامية ، وإلى ما يفتض الإسلام عذرتة متيادية . »

« ولنا في الغرب أثر أغرب ، وفي أعماله دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب ؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر ، وملكهم قد عُمر ، وجيوشهم لا تطاق ، وأمرهم لا يشاق ، ونحن بحمد الله قد تملكنا بما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا إليها عسكرياً بعد عسكر ، فرجع بنصر بعد نصر . ومن البلاد المشاهير ، لله الأقاليم الجماهير : برقة (٧١٤) ، قفصة (٧١٥) ، قسطيلة (٧١٦) ، توزر (٧١٧) ؛ كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله ، أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، ولا عهد للإسلام بإقامتها ، وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها . »

« وفي هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الأمصار ، ورموه بأسماع وأبصار ، مقداره سبعون ركباً ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً ، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً ، وقد صدت عنا بحمد الله

(٧١٤) يعرفها ياقوت بأنها إقليم ومدينة ، بين الاسكندرية وافريقية .

(٧١٥) في طرق افريقية من ناحية المغرب .

(٧١٦) أكثر بلاد أفريقية إنتاجاً للتمر .

(٧١٧) في أقصى إقليم افريقية بينها وبين نقطة عشرة فراسخ ، وهي من إقليم قسطيلة .

تقاليدها ، وألقيت إلينا مقاليدها ، وسيرنا الخلع والمناشير والألوية ، بها فيها من الأوامر والأقضية . فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية ، وهو الطاغية الأكبر ، والجالوت الأكبر ، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، وجرت لنا معه غزوات بحرية ، ومناقلات ظاهرة وسرية ، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين ، بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح ، وإلقاء السلاح ، والانتقال من معاداة إلى مهادة ، ومن مفاضحة إلى مناصحة ، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردد ذكرها ، وعساكره التي لم يخف أمرها .

« ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية ، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا ، وهزما وكسرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تكثر عدته ، وتتنخب عدته ، إلى أن وصل منها في السنة الحالية إلى الإسكندرية أمرائح ، وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ؛ وما هو إلا إقليم ، بل أقاليم ، نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله .

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة ، والبياشنة ، والجنوية (٧١٨) كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفاراً يمتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ، وما فيهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت

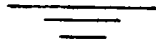
(٧١٨) البنادقة : أهل مدينة الندقية أو فينسيا ، والبياشنة مدينة بيزا ، والجنوية أهل جنوه ، وكلها من المدن الإيطالية التي اشتهرت بنشاطها التجاري البحري ، ومن ثم بنشاطها في ميدان الحرب والسياسة أيضاً في العصور الوسطى

معهم المواصله ، وانتظمت معهم المسالمة ، على مانريد ويكرهون ، وعلى مانؤثر وهم لا يؤثرون .

« ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية ، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة ، والعساكر قد تجهزت ، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج على بانياس ، وأشرفوا على اجتيازها ، ورأوها فرصة مدوا يد انتهازها ، استصرخ بصاحبها ، فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها . »

« ثم عدنا إلى البلاد وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيفون بها الأطراف الاسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سُجن كبارهم ، وعوقبوا وصدروا ، والمهاليك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور ، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور ، قد مدوا الأيدي والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً . وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم في قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ؛ وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة . وإننا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخييل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة وأصلحنا مافي الشام من عقائد معتلة ، وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبية ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فإننا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه . »

والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، يوفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسى كل ما لا تطيقه العهاد ، وهو تقليد جامع بمصر ، واليمن والمغرب ، والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيفونا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا ، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً ، مع ما ينعم به من السمات التى فيها الملك . وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قرناً يقوم به ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يمل الشر حتى يملأوا ، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يجلوا . وإذا شد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويد كل مؤمن تحت برده ، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذى أسرى الله إليه بعده .



ملحق رقم ٣

« رسالة عمادية » عن صلاح الدين

إلى الخليفة العباسي بعد نصره حطين والفتوحات التي
تلفتها (٧١٩)»

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي
الصالحون (٧٢٠) » والحمد لله على إنجاز هذا الوعد وعلى نصره هذا الدين
الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد العسر يسرا ، وأحدث من بعد
أمر أمرا ، وهو أن هذا الأمر الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا
وخطب النبي بقوله ولقد مننتنا عليك مرة أخرى ، فالأولى في عصر النبي
صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخرى في هذه الدولة التي عتق فيها
من رق الكتابة والزمان كهيئة قد استدار ، والحق ببهجته قد استنار ،
والكفر رد ماعنده من الشعار ، والخدام يشرح في هذه الفتح العظيم والنصر
الكريم فيشرح صدور المؤمنين ويسوء وجوه الكثرين ويورد من البشرى ما
أنعم الله به من يوم الخميس الثالث العشرين من ربيع الآخر سلخه وتلك
سبعة أيام وثمانية أيام حسوماً هدموا فيها نفوساً وجسوماً ، فأصبحوا وقد
هووا في الهاوية كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وأصبحت البلاد إلى الإسلام
ضاحكة كما كانت بالكفر باكية ، ففي يوم الخميس الأول فتحت طبرية ،
والجمعة والسبت كانت الكسرة التي أبقت منهم بقية لا يقوم لهم بعدها
قائمة ، أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . فتحت مكة بالأمان ارم
ذات العماد . وصليب الصليبوت عندنا مأسور ، وقلب الكفر الأسير
بحبسه المكسور مسكور ، وأيضاً الصليب وأعوانه قد أحاطت بهم يد
القبضة وعلت رهنه فلا يقبل فيه القناطر المقتطرة من الذهب والفضة ،

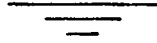
(٧١٩) مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ (عن رسالة ماجستير العلاقات بين أرناط وصلاح الدين
لمحمود رزق) .

(٧٢٠) آية قرآنية .

وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، وصارت البيع مساجد يعمرها من يؤمن بالله واليوم الآخر وصارت المدايح مواقف لخطب المنابر .

« وعد العماد الأصفهاني الحصون التي فتحت » .

وقال في آخر الكتاب : « وما يتأخر النهوض إلى البيت المقدس ، وهذا أوان فتحه ، وقد دام عليه ظلام الضلال ، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صحة السلام » .



ملحق رقم ٤

« الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل
إلى الأمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن الامام
المستضىء بأمر الله بفتح المقدس (٧٢١) »

« أدام الله تعالى أيام الديوان العزيزى النبوى ، ولازال مظفر الجذ بكل
جاحد ، غنياً بالتوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعى عن اقتناء
مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والنصل فى جفنه راقد ، وارد الجود
والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعى الفضل وإن كان لايلقى
إلا بشكر واحد ، ماضى حكم العدل بعزم لايمضى إلا بنبل غوي وريش
راشد ، لازالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المراقع وأنواراً إلى
المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيلاً إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة ، تلو ما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التبشير
لصبح هذه العزمة ، والعنوان لكتاب وصف النعمة ، فإنها بحر للأقلام
فيه سبج طويل ، ولطف لحمل الشكر فيه عبء ثقيل وبشرى للمخاطر فى
شرحها مآرب ، ويسرى للأسرار فى إظهارها مسارب ، والله تعالى فى إعادة
شكر رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لايقال معه : هذا مضى . ولقد
صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، وقد استتبت عقائد أهله على
أبين بصائرهما ، وتقلص ظل رجاء الكافد المبسوط ، وصدق الله أهل دينه
فلما وقع الشرط وقع المشروط ، وكان الدين غريباً فهو الآن فى وطنه ،
والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس فى ثمنه ، وأمر أمر الحق وكان
مستضعفاً ، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف
أهل الشرك راغمة ، وأدجت السيوف إلى الأجال وهى نائمة ، وصدق
وعد الله فى إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح
عندها جنان الجنين ، واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم أبقا ، وظفروا يقظة

بها لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأى طارقاً ، واستقرت على الأعلى أقدام ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غلّهم ، ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهناً كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه .

وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من يستمطله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتعادى في عتبه ، إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ، وكانت الألسن ربما سلقته فأنضح قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة جاسر ، ومن سما لأن يجلى غمرة غامر ، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها ، ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها ، هذا إلى كون القعود لا يقضى به فرض الله في الجهاد ، ولا يرمى به حقه في العباد ، ولا يوفى به واجب التقليد الذي يطوقه الخادم من أئمة قضاوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يسألون ، لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر ، ونجلهم الأكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطليعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد القلم وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، ولا غضوا لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ، ومنه مقبولاً ، وخلص إليهم إلى المضاجع مع فاطمánt به جنوبها ، وإلى الصحائف ما عبقت به جيوبها ، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهار به بصيراً ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأن وإره ، فإنه نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لاتوازيه أوراق الصحف .

وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شقاً ،

وطارت فرقة فرقا ، وفل سيفه فصارعها ، وصدعت حصاته وكانت الأكثر عدداً وحصى ، وكلت حملاته وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان ، وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظة تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شاحمة بالمنى أوراغفة بالمنون ، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث ، وبيوت الكفر مهدومة ، ونيوب الشرك مهتومة ، وطوائف المحامية ، مجمعة على تسليم القلاع الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة لبذل القطائع الوافية ، لا يرون في ماء الحديد لهم عصره ، ولا في نار الأنفة لهم نصرة ، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ويدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاء الأولى فأمده الله بمداركته ، وأنجده بملائكته ، فكسرهم كسرة مابعدا جبر ، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر ، وأسر منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من قتلت به المناضل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار ، فنيلوا بشار من السلاح ونالوه أيضاً بشار ، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسه ، فكان اليوم مشهوداً ، وكانت الملائكة شهوداً ، وكان الضلال صارخاً وكان الإسلام مولوداً ، وكانت ضلوع الكفار لنا جهنم وقوداً . وأسر الملك ويده أوثق وثائقه ، وأكد وصله بالدين وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم ييسط لهم باعه ، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه ، لاجرم

أنهم يتهافت على ناره فراشهم ، ويجمع في ظل ضلالة خشاشهم ، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، يرونه ميثاقاً بينون عليه أشد عهد وأوثقه ، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندفه ، وفي هذا السوم أسرت سراهم ، ودهيت دهاتهم ، ولم يفلت منهم معروف إلا القومصى ، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال ، ومليا يوم الخذلان بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف ، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ، ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده ، وأهلكه لموعده ، فكان لعدتهم فذلك ، وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا ، البيضاء صنعا ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ، الغالبة هي وعزائم أوليائها ، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر ، فافتتح بلاد كذا وكذا ، وهذه أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهى مزارع وفدن ، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر ، وبحار وجرائر ، وجوامع ومنابر ، وجموع وعساكر ، يتجاوزها الخادم بعد أن يجرزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصن منها كفراً ويزرع إيماناً ، ويبوء أهل القرآن بعد أهل الصليبان للقتال عن دين الله مقاعد ، ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بجاراً ومجور ، وأن نظفر بكل سور ، ما كان يخاف زلزاله ولازياله إلى يوم النفخ في الصور .

ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليه كل طريد منهم وشريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم ، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت وتألقت على الموت ففزلت بغرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من كل جانب ، فإذا أودية عميقة ، ولجج وعر غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار ، فعدل إلى جهة أخرى كان للطالع

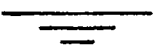
عليها معرج ، ولخيل فيها متولج فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها ،
وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ،
وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم
ناجزها ، وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها فإذا هم
لا يصبرون على عبودية الحد عن عنق الصفح ، فراسلوه ببذل قطيعة إلى
مدة ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة ، فعرفهم الخادم في لحن
القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات
الحصون عصيها وجبالها ، وأوتر لهم قسيها التي ترمى ولا تفارقها سهامها
ولكن تفارق سهامها نصالها ، فصافحت السور فإذا سهامها في ثنايا
شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسرأ من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض
ويعلو علوه إلى السماك ، فشج مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيبها
صم أعلاجها ، ورفع منار عجاجها فأخلى السور من السيارة ، والحرب
من النظارة ، وأمكن النقب ، أن يسفر للحرب النقب ، وأن يعيد الحجر
إلى سيرته الأولى من التراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب
معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع
الصخرة الشريفة أنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله ، وتبرا بعض
الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبحر الأرض ، وفتح
من السور باب سدّ من نجاتهم أبواباً ، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده
الكافر : يا ليتني كنت تراباً ، فحينئذ يشس الكفار من أصحاب الدور ،
كما يشس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ،
وفي الحال خرج طاغية كفرهم ، وزمام أمرهم ، ابن بارزان (٧٢٢) سائلاً أن
يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ، وألقى بيده إلى
التهلكة . وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة ، وطرح جنبه على التراب ،
وكان جنباً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليها أمل
طامح ، وقال : ها هنا أسارى مسلمون يتجاوزون الألوف ، وقد تعاقد

الفرنج على أنهم إن جُمحت عليهم الدار ، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدىء بهم فَعجلوا ، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك ، فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ، ولا يفل سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف ، فأشار الأمراء بأخذ الميسور من البلد المأسور ، فإنه لو أخذ حرباً فلا بد أن يتقحم الرجال الأنجاد ، ويقال كفوا عنها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد ، وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات ، وأثقل الحركات ، فقبل منه المبذول عن يدٍ وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون ، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لاجرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم ، فإنهم ، خذلهم الله ، حموها بالأسل والصفاح ، وبنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاستبارية فيها بكل غريبة من الرخام الذى يطرده ماؤه ، ولا ينترد لألاؤه ، قد لطف الحديد فى تجزيهه ، وتفنن فى توشيعه ، إلى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد ، كالذهب الذى فيه نعيم عنيد ، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم وفراق ، وعمداً كالأشجار لها من التثبيت أوراق .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود ، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السماوات يتفطرن للسجود لا للوجوم ، والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة ، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس وكان التثليث يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين فى وطنه الأشرف من المنبر ، فرحب به ترحيب من بر بمن بر ، وخفق علماه فى خفافيه ، فلو طار سروراً لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد فى استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ما ضاق بتهادى الحرب من الصدور ، فإن قوى العساكر قد استفذت مواردها ،

وأيام الشقاء قد مردت مواردها ، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاستت
العساكر خلالها ، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها ، فهي بلاد ترفد ولا
تسترفد ، ونجم ولا تستنفد ، ينفق عليها ولا ينفق منها ، وتجهز الأساطيل
لبحرها ، وتقام المرابط بساحلها ، ويدأب في عمارة أسوارها ومرمات
معقلها ، وكل مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة ، وأطباع الفرنج
بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة ، فإن يدعو دعوة يرجو الخادم من الله أنها
لا تسمع ، ولن يكفوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع ، وهذه البشائر
لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تشخص ، ولا بسا سوى المشافهة
تتخلص ، فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً ، ومبشراً صارحاً ، يطالع
بالخبر على سياقته ، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته ، وهو
فلان ، والله الموفق .



المصادر والمراجع العربية :-

أولاً : المصادر :-

(١) ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٣٣٨ م) علي بن أحمد الكرم

أ - التاريخ الباهر تحقيق عبد القادر طليعات

القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م

ب - الكامل في التاريخ ط . بيروت

(٢) الاصطخرى (ت في القرن الرابع الهجرى) أبو اسحق ابراهيم بن

محمد الفارسي

المسالك والممالك تحقيق د / محمد جابر الحيني

القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م

(٣) الأصفهاني (عماد الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الرجاء) ت

٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي مصر ١٣٢١ هـ

(٤) ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد

رحلة ابن جبير

تحقيق د / حسين نصار القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م

ونسخة ط . بيروت

(٥) ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) شمس الدين أبو المظفر

يوسف ابن قزا وأوغلى سبط ابن الجوزي :

مرآة الزمان ط . حيدرآباد

(٦) ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٧٠ م) شمس الدين أبو العباس

أحمد بن إبراهيم ابن أبي بكر الشافعي :

وفيات الأعيان ط . بيروت ١٩٧٢

(٧) الذهبي (ت ٧٤٨) الحافظ شمس الدين

دول الاسلام

تحقيق محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم

ط . القاهرة ١٩٧٤ م

(٨) أبو شامة (ت ٦٦٠ هـ) بهاء الدين أبو محمد بن محمد بن عبد

الرحمن ابن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي الروضتين في أخبار الدولتين .

تحقيق د / محمد حلمي محمد أحمد ط مصر

(٩) ابن الشحنة (حوالي القرن التاسع الهجري) أبو الفضل محمد

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب .

بيروت ١٩٠٩ م

(١٠) ابن شداد (٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) القاضي بهاء الدين أبو

المحاسن يوسف بن رافع ابن تميم :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

تحقيق محمد محمود صبح سلسلة كتب ثقافية ١٩٦٢ م

(١١) الشهرستاني (٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) أبو الفتح بن عبد الكريم

الملل والنحل تحقيق محمد بن فتح الله بدران

ط . أولى مطبعة الأزهر

(١٢) صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩ هـ)

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع .

مصر . ط . أولى ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م

(١٣) ابن العبري (ت ٦٨٥ هـ) غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الطيب

الملطي المعروف بابن العبري .

مختصر تاريخ الدول تحقيق صالحاني بيروت ١٨٩٠ م

(١٤) ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) أبو الفلاح عبد الحمى :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب

ط . بيروت الأولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

(١٥) عمارة اليمنى (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) أبو محمد عمارة بن أبي
الحسن على

النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية

ط في مدينة شالون ١٨٩٧ م

(١٦) أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢١ م) اسماعيل بن عماد الدين

صاحب حماه

أ - تقويم البلدان ط . باريس ١٨٤٠ م

ب - المختصر في أخبار البشر ط . بيروت

(١٧) ابن الفرات المصرى (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المعروف

بابن الفرات المصرى)

تاريخ الدول والملوك تصوير شمس رقم ٣١٩٧ تاريخ دار الكتب

ومجلد ٤ ج ١ ، ج ٢ تحقيق حسن محمد الشماح ١٣٨٦ هـ ،

١٣٨٩ هـ

(١٨) ابن القلاننى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة

ذيل تاريخ دمشق . ط . بيروت ١٩٠٧ م

(١٩) ابن قاضى شهبه :

الكواكب الدرية فى السيرة النورية

مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٢٢٧ تاريخ

(٢٠) ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل

بن القرشى الدمشقى البداية والنهاية

ط . بيروت

(٢١) أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٣٥٤ م) جمال الدين بن تغرى
تغرى بردى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
ط . دار الكتب المصرية

(٢٢) المقرئى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٠ م) تقى الدين أحمد من على
أ - اتعاث الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ج ٢ ، ج ٣
تحقيق د / محمد حلمى محمد أحمد

ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ط . بيروت

ج - السلوك لمعرفة دول الملوك التأليف والترجمة والنشر

د - إغاثة الأمة بكشف الغمة نشر د / الشيال وزيادة القاهرة

م ١٩٥٧

(٢٣) ابن ممتى (الأسعد) ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)

قوانين الدواوين مطبعة مصر ١٩٤٣

جمع وتحقيق عزيز سورىال عطية .

(٢٤) ابن ميسر (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف

بن جلب :

تاريخ مصر (ط . هنرى ماسيه) القاهرة ١٩١٩ م .

(٢٥) ناصرى خسرو :

السفرنامه ترجمة د / يحيى الخشاب ط مصر

(٢٦) النوبرى (٧٢٣ هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

نهاية الأرب فى فنون الأدب

مصر ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

(٢٧) ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ - ١٢٩٨ م) جمال الدين

محمد بن سالم

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

ط . دار الكتب المصرية

(٢٨) ابن الوردى (الشيخ زين الدين عمر بن الوردى)

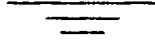
تتمة المختصر فى أخبار البشر مصر ١٢٨٥ هـ

(٢٩) ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله

الحموى الرومى

أ - معجم البلدان ط . بيروت

ب - المتفق لفظا والمختلف صقعا ط ١٨٤٦ م



ب - المراجع :

١ - أحمد أحمد شلبي (الدكتور)

موسوعة التاريخ الاسلامى الطبعة الخامسة ١٩٨٢ م

٢ - اسحق تاوضروس عبيد (الدكتور)

روما وبيزنطة (من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة
قسنطينة .

ط - القاهرة ١٩٧٠ سلسلة المكتبة التاريخية

٣ - باركر (أرنست)

الحروب الصليبية ترجمة د / السيد الباز العرنبي

القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٠م

٤ - جوزيف نسيم عبده (الدكتور)

أ - الوحدة وحركة اليقظة العربية القاهرة . ط . الأولى ١٩٦٦

ب - لويس التاسع فى الشرق الأوسط ط . مصر ١٩٥٦ .

٥ - حسن إبراهيم حسن (الدكتور)

أ - الفاطميون فى مصر المطبعة الأميرية ١٩٣٣ م

ب - النظم الاسلامية بالاشتراك مع د / على إبراهيم

مصر ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م

٦ - حسن الباشا (الدكتور)

الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار

ط . القاهرة القاهرة ١٩٥٧ م

٧ - حسين مؤنس (الدكتور)

نور الدين محمود

ط . القاهرة ١٩٥٩ م

٨ - حمدى حافظ : الشرق الاسلامى قبيل الغزو والمغولى

ط . القاهرة ١٩٥٩ م

٩ - رنسيهان « ستيف »

تاريخ الحروب الصليبية

ترجمة د / السيد الباز العريني

ط . بيروت . ١٩٨١

١٠ - سرهنك (اسماعيل)

حقائق الأخبار عن دول البحار

مصر . طبعة أولى ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م

١١ - سعيد عبد الفتاح عاشور « الدكتور »

أ - الحركة الصليبية مصر . طبعة أولى ١٩٦٣ م

ب - أوروبا العصور الوسطى . مصر ١٩٦١

ج - أضواء جديدة على الحروب الصليبية . المكتبة الثقافية العدد

١١٨

١٢ - السيد عبد العزيز سالم « الدكتور »

أ - طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي الاسكندرية ١٩٦٦ م

ب - تاريخ البحرية الاسلامية (الجزء الأول) الاسكندرية ١٩٨١ م

١٣ - سيد عبد الحريزي :

الأخبار السنوية في الحروب الصليبية مصر . ط . الثانية ١٣٢٩ هـ

١٤ - سيديو

خلاصة تاريخ العرب ط . دار الآثار بيروت ١٤٠٠ هـ

١٥ - السيوطي (الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)

ت ٩١١ هـ

تاريخ الخلفاء الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م

١٦ - شحاتة عيسى إبراهيم (الدكتور)

القاهرة الألقاب كتاب العدد رقم ١٨٤

١٧ - عبد القادر طليحات :

مظفر الدين كوكبوري العدد ٣٢ أعلام العرب

١٨ - عبد الرحمن زكى (الدكتور)

بناء القاهرة في ألف عام القاهرة ١٩٨٦ المكتبة الثقافية .

١٩ - عبد المنعم ماجد (الدكتور)

أ - الناصر صلاح الدين يوسف بيروت ط . الثانية ١٩٦٧

ب - ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر . الاسكندرية ط .

الثانية ٩٧٦

ج - العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى بيروت ١٩٦٦

د - الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى القاهرة ط . الثانية

١٩٧٣

٢٠ - على حسن الخربوطلى (الدكتور)

مصر العربية الاسلامية القاهرة ١٩٦٣ .

٢١ - على مبارك :

الخطط التوفيقية الجديدة القاهرة ١٩٨٠

٢٢ - عمر أبو النصر

قلعة ألموت ط . بيروت ١٩٧٠ م

٢٣ - فيشر ه . أ . ل

تاريخ أوروبا العصور الوسطى

ترجمة د / زيادة ود / العرينى ط . القاهرة ١٩٦٦ م

٢٤ - فيليب حتى (الدكتور)

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين

ترجمة د . كمال اليازحى ط . بيروت ١٩٥٩ م

٢٥ - كمال الدين سامح (الكتور) :

العمارة الاسلامية في مصر المكتبة الثقافية

٢٦ - لينبول (ستانلى)

سيرة القاهرة

ترجمة الدكتورين حسن إبراهيم وعلى إبراهيم القاهرة ١٩٥٠ م

٢٧ - مجموعة أبحاث الندوة الدولية (القاهرة فى ألف عام)

الهيئة العامة للكتاب

٢٨ - محمد جمال الدين سرور (الدكتور)

أ - مصر الفاطمية مصر ١٩٦٠ الألف كتاب رقم (٢٧٤) .

ب - سياسة الفاطميين الخارجية القاهرة ط . الرابعة

١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م

ج - الدولة الفاطمية فى مصر وسياستها الداخلية القاهرة ١٩٧٩ م

د - الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عهده القاهرة

١٣٥٠ هـ / ١٩٥٠ م

٢٩ - محمد حلمى محمد أحمد (الدكتور)

مصر والشام والصليبيون القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

٣٠ - محمد عبد الله عنان

تراجم إسلامية وشرقية وأندلسية . ط . الأولى ١٩٤٧ م

٣١ - محمد قنديل البقلى

التعريف بمصطلحات سبع الأعشى . مصر ١٩٨٤ م

٣٢ - نخبة من المؤرخين

تاريخ الحضارة المصرية التأليف والترجمة والنشر

(العصر اليونانى والرومانى فى العصر الإسلامى)

٣٣ - محمد حمدى المناوى (الدكتور)

الوزارة والوزارة العصر الفاطمى المكتبة التاريخية

٣٤ - نظير سعداوى (الدكتور)

- أ - التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين القاهرة ١٩٥٧ .
ب - جيش صلاح الدين القاهرة . ط . الثانية ١٩٥٩

٣٥ - الهرفى (محمد على) الدكتور

- شعراء الجهاد فى عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام القاهرة . ط
أولى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م

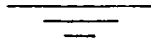
٣٦ - وفاء محمد على (الدكتور)

- أ - الدولة البورية ودورها فى عصر الحروب الصليبية القاهرة
١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

- ب - من صور الجهاد الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية القاهرة
١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

٣٧ - ول . ديورانت

- قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الرابع ترجمة محمد بدران
القاهرة ط . الثانية ١٩٦٤م



« المراجع الأجنبية »

- 1 - Besand (W) Palmer (E. H)
Jerusalem, The City of Herod and
Saladin (Landon 1899)
- 2 - BRokelman (Karl)
History of Islamic People (London 1959)
- 3 - Cambridge Med. history (Cambridge 1957)
- 4 - Encyclopedia Britanica (London 1972)
- 5 - Encyclopèdie de L'Islam (Leiden, 1 ère ed, 2 ed)
- 6 - Grousset (R)
History des croisades et du Rpyaume
Franc de Jerusalem (Paris 1943- 6)
- 7 - Kerr (A. J)
The crusades. (London 1966)
- 8 - King (E. J),
The Knights hospitallers in the holy Land
(London 1931)
- 9 - Kirk (G)
a Short history of the Middle East.
(London 1966)
- 10 - Lamb (H)
The crusades (The flame of Islam)
(Newyork 1931)
- 11 - Lane- poole (S)
1 - A history of Egypt in the middle ages
(London 1901)
- 2 - Saladin
(London 1898)
- 12 - Lowis (Bernard)
The arabs in history (london)
- 13 - Louis & Jonathan,
Documents of Medieval Islam (London)

14 - Saunders (J.J)

A history of Medieval Islam (London)

15 - Schlumberger (G)

1 - Campagnes du Roi Amaury de Jerusalem, Egypte

(Paris 1966)

2 - Renaud de Chatillon

(Paris 1898)

16 - Sertstevens (A. T)

Le Livre Markopolo (Paris, 1955)

17 - Setton (K. M)

A history of the Crusade (pensylvania 1958)

18- Stevenson (W. B)

The Crusaders in the East.
(Cambridge 1907)

19 - Wiet (G)

L'Egypte arabe
(Paris 1937)

20 - Zoe Oldenbourg.

The crusades
(Newyork 1966)

٢١ - قرة جلی
تاریخ روضة الأبرار بولاق ١٢٤٨ هـ

« كشاف الموضوعات »

المقدمة

٥

٩

الفصل الأول

٣٩-٩

الحالة في مصر قبيل قدوم صلاح الدين

٩

ضعف الخلفاء

١٢

الصراع على الوزارة :

١٣

الصراع بين ابن مصال وابن السلار
المصالح طلائع بن رزبك وعباس وابنه نصر

١٦

رزبك وشاور

٢٠

شاور وضرغام

٢٢

حملة شيركوه الأولى على مصر سنة ٥٥٩هـ

٢٩

حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ

٣٢

حملة شيركوه الثالثة على مصر سنة ٥٦٤هـ

٣٨

وزارة شيركوه

٨١-٤١

الفصل الثاني

٤٠

الدور الأيوبي حتى وفاة نور الدين محمود
(٥٦٤ - ٥٦٧ هـ) (١١٦٩ - ١١٧٢ م)

٤٤

صلاح الدين والأخطار التي جابهته في مصر
أولاً : حتى سقوط الدولة الفاطمية

٤٨

الأخطار الداخلية

٥١

الفرنج وصلاح الدين

٥٥

محاولة القضاء على المذهب الشيعي في مصر

٦١	صلى سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر
٦٦	حركة عمارة اليمنى
٧٦	العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين
١١٠-٨٣	الفصل الثالث
	الدور الأيوبى حتى وفاة الصالح اسماعيل
٨٣	(٥٦٧ - ٥٧٧ هـ) (١١٧٢ - ١١٨٢ م)
٨٤	صلاح الدين والزنكيون
٩٠	توجه صلاح الدين إلى دمشق
٩٩	صلاح الدين والباطنية
١٠٦	صلاح الدين والفرنج
١١١ - ١٥٥	الفصل الرابع :
١١١	تدعيم الدولة الأيوبية فى مصر والشام
١١٧	المواجهة مع بنى زنكى
١٢٣	الجهاد ضد الفرنج والصليبين وحرب التحرير
١٢٣	موقعة حطين
١٣٩	فتح بيت المقدس
١٤٢	استسلام حصنى الشوبك والكرك
١٤٣	صور
١٤٧	رد الفعل الأوربى أو الحملة الصليبية الثالثة
١٥٢	وفاة صلاح الدين الأيوبى

الملاحق :

ملحق رقم (١)

١٥٦ منشور تولية الخليفة العاضد لصلاح الدين وزيراً للفاطميين

ملحق رقم (٢)

من كتاب فاضلى إلى الملك العادل بمصر بفتح دمشق على يد صلاح

الدين

١٧٢	ملحق رقم (٣) رسالة « عمادية » عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي
١٧٤	ملحق رقم (٤) الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الإمام الناصر لدين الله بفتح القدس
١٨١	المصادر والمراجع العربية
١٩١	المراجع الأجنبية
١٩٣	كشاف الموضوعات

